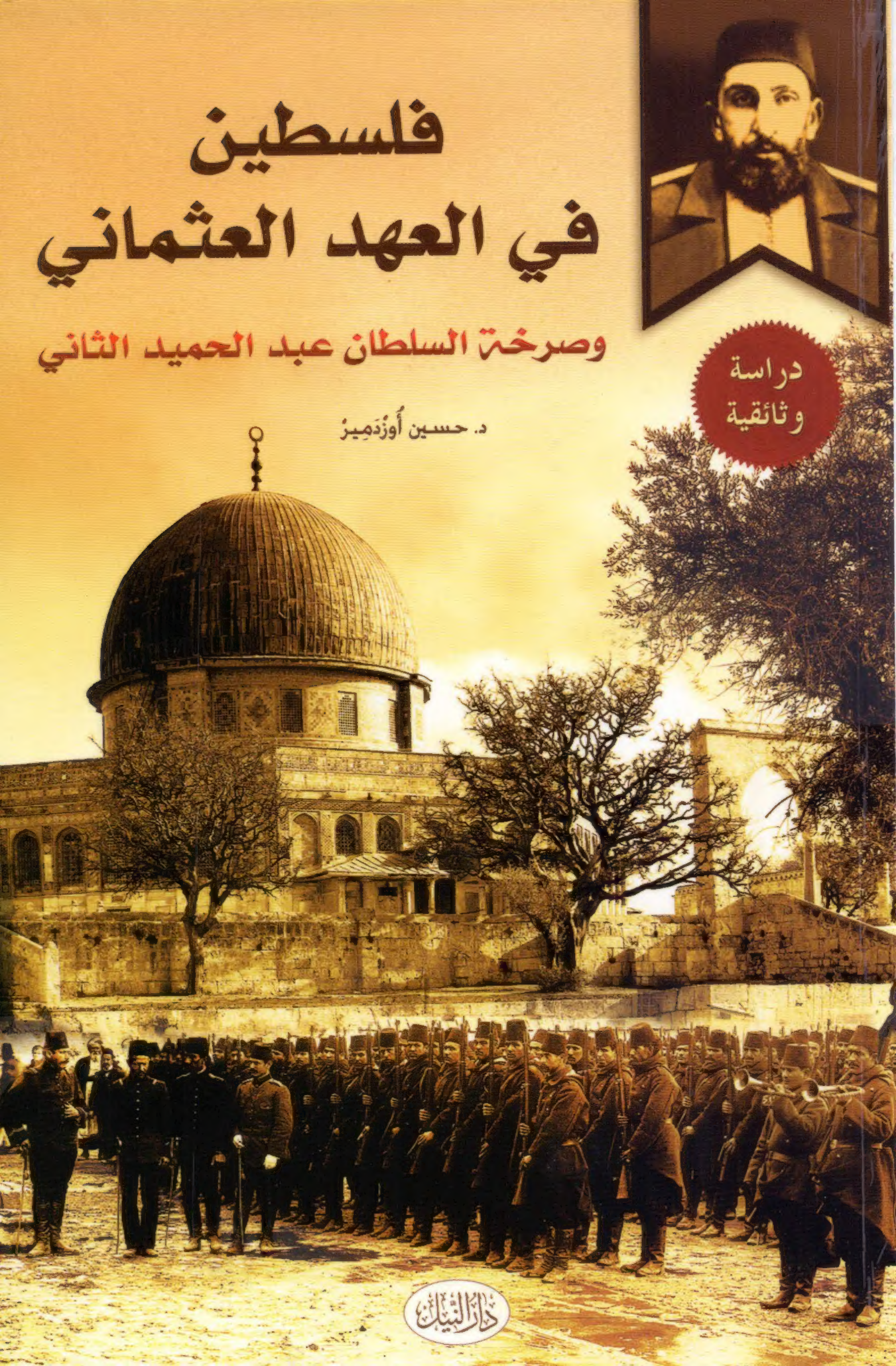


فلسطين في العهد العثماني

وصرخة السلطان عبد الحميد الثاني

دراسة وثائقية

د. حسين أوزدَمير

دار النيل



فلسطين في العهد العثماني

وصرخة السلطان عبد الحميد الثاني

لقد رفض السلطان عبد الحميد الثاني بيع الأراضي في فلسطين لليهود الذين أرادوا الاستيطان فيها، مهما كان الثمن المعروض مغريا، بل قال لمن جاء إليه بهذا الخصوص:

"لن أبيع ولو شبرًا واحدًا من الأراضي التي دخلت ضمن دولتنا العلية ودفع أجدادنا دماءهم ثمنًا لها؛ لأن هذه الأرض ليست ملكي، بل ملك أمّتي، وقد دفعت أُمّتي دماءها ثمنًا لهذه الأرض؛ فلن أبيعها لكم ولو بملء الأرض ذهبًا.

السلطان عبد الحميد الثاني



ISBN: 978-975-315-615-8



فلسطين في العهد العثماني

وصرخة السلطان عبد الحميد الثاني

د. حسين أُوزْدَمِير



فلسطين في العهد العثماني

وضرخة السلطان عبد الحميد الثاني

الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م

تحرير

إسماعيل كايار

مراجعة

عبدالله محمد بسطويسي - يوكسل جلبنار

تصحيح

عبد الجواد محمد الحردان

المخرج الفني

أنكين جيفجي

تصميم

أحمد علي شحاتة

غلاف

ياووز يلماز

رقم الإيداع: ISBN 978-975-315-615-8

رقم النشر

487

IŞIK YAYINLARI

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad. No:1

34696 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 522 11 44 Faks: +90 216 650 94 44

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 حـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - خلف سيتي بنك- التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402-5

Mobile: 0020 1000780841

E-mail: daralnile@daralnile.com

مركز التوزيع: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة - مصر

Mobile: 0020 1141992888

www.daralnile.com

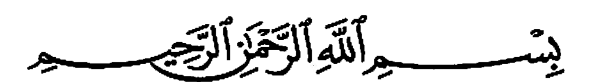
فلسطين في العهد العثماني
وصرخة السلطان عبد الحميد الثاني

تأليف

د. حسين أُوزْدَمِيز

ترجمة

د. وليد عبد الله القط


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

"كونوا على ثقة أننا لو انسحبنا من هذه الساحات
فستتحول إلى ساحة للفوضى والاضطراب أبدَ الدهر"

السلطان عبد الحميد الثاني

بين يدَي الكتاب

توصف القدس بأنها بوابة الأرض إلى السماء، فكثير من الأنبياء أُوحِي إليهم في هذا المكان المقدس، ومنهم: سيدنا إبراهيم وداود ويحيى وزكريا ويوسف وعيسى ﷺ، كما عُرج بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام إلى السموات العلى من المسجد الأقصى بالقدس، وبذلك تكون القدس مدينة مقدسة عند المسلمين والمسيحين واليهود.

وفلسطين عند اليهود كما ذُكر في التوراة هي "أرض الميعاد"، ومركز الكون، وهبة الله تعالى لبني إسرائيل؛ ويوم جاء اليهود من مصر مع سيدنا موسى عليه السلام بدؤوا بتأسيس دولتهم في فلسطين في زمن سيدنا يوشع بعد موسى عليه السلام، ثم طُردوا منها أول مرّة على يد المملكتين الآشورية والبابلية ثم الإمبراطورية الرومية، فعاشوا مشتتين في الجيتوات "حارات اليهود المنعزلة" وفي البلدان التي هاجروا إليها، وقد قام اليهود الذين يدعون أنهم ''شعب الله المختار" بإحياء قوميتهم وهويتهم الدينية ومثلهم العليا في تعنت وتعصب، على اعتقاد أنهم سيجتمعون تحت "نجمة داود" ذات الست زوايا في أرض الميعاد، ومن أجل هذا الاعتقاد خاض اليهود كثيرًا من المعارك لاتخاذ القدس موطنا لهم، منذ قديم الزمان وفي عهد آل عثمان بل حتى الآن.

إن هذا الكتاب يتناول تاريخ فلسطين الزاهر، لا سيما القدس، ومحاولات اليهود للتوطن في القدس في العهد العثماني، وعرض الكتاب إجمالًا حياة الأنبياء الذين عاشوا في تلك البلدة بحلوها ومرها.

وكان الهدف الأساسي لهذا العمل توضيح أمرين هما في غاية الأهمية:

أولهما: أن فلسطين وخاصة القدس هي أرض مقدسة لدى المسلمين واليهود والمسيحيين على حد سواء، فعند المسلمين هي ثالث الحرمين الشريفين بعد مكة والمدينة، وورد ذكرها في القرآن الكريم، أما عند المسيحيين فهي موطن ميلاد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، حيث رُفع منه إلى السماء، وهناك دفنت السيدة مريم، وفيها كثير من المعابد المسيحية المهمة عندهم؛ وهي عند اليهود "أرض الميعاد".

وعند النظر إلى القدس من الناحية الدينية والتاريخية نجد أنها رمز لحاجة البشر إلى التعايش المشترك بل لضرورته لهم، فكنيسة القيامة المقدسة لدى المسيحيين تقع بين مسجدين، وثمة عند حائط المَبْكَى الذي يعظمه اليهود مكان يسمى البراق، كان نبينا الكريم ﷺ قد ترك فيه البراق ليلة الإسراء والمعراج؛ فيستحيل ترك القدس تحت سيطرة اليهود، فسلام العالم وأمنه مرهون -من ناحية ما- بمدى تحقق العدالة في القدس.

إن التاريخ هو نور ينفذ من الماضي إلى المستقبل، وقد غدا القدس نموذجًا واقعيًا للمبادئ الرصينة العادلة التي وضعها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سبيل تعايش الناس جميعًا في أمان وطمأنينة مهما اختلفت أجناسهم وأديانهم، ويشرح هذا الكتاب كيف حققت هذه المبادئ السلام والطمأنينة للناس جميعًا، حيث أرسى هذه المبادئ المعتمدة على أساس العدل والتسامح السلطان صلاح الدين الأيوبي ثم جميع السلاطين العثمانيين حتى آخر عهدهم، فعاش أتباع المذاهب والأديان والطوائف جميعًا في أمن واستقرار داخل القدس عندما كانت تحت حكم المسلمين، وورد في بحث للباحث الغربي "درور زيعوي (*Dror Ze'evi*)" -معتمدا فيه على أبحاث أمنون كهين- ما يلي:

" لقد تكيفت الجماعات اليهودية والمسيحية مع النظام الاقتصادي في القدس كما هو الحال في الولايات الأخرى للدولة العثمانية، فكانت معاملة العثمانيين لهؤلاء الأقلية لا تختلف كثيرا عن تعاملهم مع المسلمين، ودليل هذا أن هذه الأقليات -اليهودية والمسيحية- رغبت في الاحتكام للقضاة المسلمين رغم أنهم لم يكونوا مُلجئين إلى ذلك؛ ثقةً منهم في المحاكم الشرعية المستحدثة في تلك المنطقة".

ثانيهما: توطُّن اليهود فلسطين.

تمت الاستعانة في دراسة هذا الأمر بالوثائق لكشف الإجراءات والأسباب التي أفضت إلى توطن اليهود في فلسطين، وكان السلطان عبد الحميد الثاني قد حظر بيع الأراضي في فلسطين لليهود، ورفض استيطانهم فيها أيّما رفض فقال:

"لن أبيع ولو شبرًا واحدًا من الأراضي التي دخلت ضمن دولتنا العلية ودفع أجدادنا دماءهم ثمنًا لها؛ لأن هذه الأرض ليست ملكي، بل ملك أمّتي، وقد دفعت أُمّتي دماءها ثمنًا لهذه الأرض؛ فلن أبيعها لكم ولو بملء الأرض ذهبًا".

ورغم كل هذا احتال عدد لا بأس به من اليهود على التوطن بفلسطين في عهده، ومن النقاط المهمة التي رُكّز عليها كثيرا في هذا العمل: عدم جدوى الإجراءات التي تم اتخاذها لأن القوانين والقواعد قد أصبحت معطلة، فقضت الضرورة بأنه لا بُدَّ من حلٍّ حقيقي.

إن وراء كل خسارة مادية فسادًا أخلاقيًا أفرز تلك الخسارة؛ فلا أثر لمعاهد العلم والمعرفة في تلك المدينة التي كانت تربو المدارس فيها على مائة مدرسة تقريبًا؛ فضيّع أحفاد فاتحي القدس -عمر بن الخطاب ﷺ، وصلاح الدين الأيوبي، وياووز سلطان سليم (سليم الأول)- كثيرًا من القيم والأخلاق العالية، فاستبدلت الخيانة بالأمانة، والجهل بالعلم، والسفاهة

والكسل بالتدين والتمسك بالقيم، وباع القرويون الأراضي التي رواها أجدادهم بدمائهم بثمن بخس، وارتشى العاملون في الدولة وساعدوهم على بيعها؛ وهذا مفهوم من بين سطور الوثائق التي لا بد من دراسة وتمحيص أسبابها أكثر من التركيز على الأشخاص والحوادث.

وهذا البحث عمل متواضع حول تاريخ فلسطين الذي يعدل تاريخ البشرية تقريبًا، كما أنه رواية بدأت بداية جميلة إلا أنها انتهت بمأساة.

د. حسين أوزدمير
٢٠٠٩/١١/١م
جُولْ بَهْجَسِي - بَشَكْشَهِيز

مقدمة

فِلِسْطين بلدة يُقدسها اليهود والمسيحيون والمسلمون؛ لِما تحمِله من معانٍ دينية، فضلًا عن طبيعتها الجغرافية المهمَّة التي تجعلها جِسْرًا بين قارتي آسيا وإفريقيا.

بدأ بنو إسرائيل الهاربون من ظُلْم فرعون هِجْرة كُبرى صَوْب الأرض الموعودة، وكان موسى عليه السلام قائدهم، فسيطروا على قسم كبير من المنطقة، وقد تولى داود عليه السلام حُكْم بني إسرائيل خَلَفًا لشاؤل (طالوت) أول ملوك بني اسرائيل، وفتَح القُدْس، وجعلها عاصمة للدولة، وحَكَم ثلاثة وثلاثين عامًا، وقد غادر موسى عليه السلام ومعه بنو اسرائيل سَيْناء لإقامة دولة في فِلِسْطين، ولكنه تُوفِّي في الطريق، ويرى اليهود أن فِلِسْطين هي"الأرض الموعودة" لهم.

وهذه المنطقة عند المسيحيين هي الأرض التي وُلِد فيها عيسى عليه السلام؛ ومنها رُفع إلى السماء، ودُفنت فيها أُمُّه السيدة مريم عليها السلام، وللكنائس المنْشأة فيها ودور العبادة المقَدسة الأخرى أهمية كبرى عندهم.

وكم أثنى القرآن الكريم على القدس؛ ففيها المسجد الأقصى أولى القِبْلتين، وهي ثالث الحرمين، ولا يخفى أن المسلمين يُكِنُّون الاحترام والحبَّ لكثير من الرسل الذين كان لهم فيها مقامات وذِكْرى؛ لذلك حَظِيت تلك المناطق باهتمام خاصّ أثناء انتشار الإسلام؛ وعَقِب وفاة الرسول ﷺ وقعت عِدّة غزَوات لمحاولة فتح فِلِسْطين؛ ففتحت وأُلحِقت بالأراضي الإسلامية، وظلّت عصورًا طويلة تحت الحُكْم الإسلاميّ.

وفِلِسْطين من الناحية الدينية والعِرْقية كأنها لوحة من الفُسَيْفُساء، فكانت منذ أن فَتَحَها عمرو بن العاص رضي الله عنه في عَهْد عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه

تُمثِّل العدالة والتسامح الإسلاميّ على أكمل وجه، وقد زارها الخليفة عُمَر شخصيًّا، ووقَّع بنفسه اتفاقية السلام فيها، مُعْلِنًا في عَهْده العُمَريّ المشهور أنه ستتمُّ حماية غير المسلمين المُقيمين فيها من كل أنواع الضرَر وفْقا لأحكام الذِّمِّيين، وأنهم سيقيمون أديانهم بحُرِّية تامة.

وأصبح عَهْد عُمَر ﷺ لأهل القُدْس أُسوة لمن جاء بعده من الحُكّام المسلمين، وقد استطاع صلاح الدين الأيوبيُّ اسْتِرْداد القُدْس من الصليبيّين مرّة أخرى بعد معارك استمرّت حتى عام ١١٨٧م، وطبّق العدالة والتسامح الإسلاميّ بعينه، وأبدى كل أنواع التسهيلات للصليبيين؛ خاصة النساء والأطفال ورجال الدين المسيحيّ في المدينة.

وقد تنامى التسامح الذي كان سائدًا في القُدْس في عصر الدَّوْلة العثمانيّة تناميًا أكثر من قبل، فدخل كل مجال من مجالات الحياة، وحَكَم السلاطين العثمانيّون هذه المنطقة مُتعددة الأجناس والديانات في سلام وأمان التزامًا منهم بعَهْد عُمَر ﷺ، وقد سُجّل هذا العَهْد العُمَريّ في سِجلّ "كنيسة القيامة" في الأرشيف العثمانيّ، وكذلك في الخطّ الهُمايوني (أي خطّ الملك) وسِجّلاته.

وفي عام ١٤٥٨م وَفَد أتناسيوس بَطْرِيَرْك الروم بالقُدْس هو ورُهْبانه إلى إسطنبول ليُهنئوا السلطان الفاتح بفتحها، وطلبوا منه استخدام المعابد المسيحية في القُدْس وإعفاءَها من الضرائب، وأرَوه كُتُب العهود الممنوحة لهم من الرسول ﷺ ثم من عُمَر ﷺ ومن جاء بعده من السلاطين، وقام السلطان الفاتح أيضًا بمَنْحهم تلك الامتيازات بمرسوم هُمايوني قال فيه:

"ألا لعنة الله على من يفسَخون هذا الحُكْم".

وابتداءً من السلطان ياووز سليم طَبّق السلاطين العثمانيّون ذلك القانون، ومنحوا بعض الامتيازات التي تجعل الجميع يُمارسون شعائر

دينهم بكل حرية، غير أن هذه الامتيازات أدتْ إلى استغلالها وسوء استعمالها، وبدءًا من القرن التاسع عشر حاول اليهود والمسيحيون ذو المذاهب المتنوعة في القُدْس إقامةَ مؤسسات خاصة بهم بدعم من الدول الغربية؛ حتى يتسنى لهم تفتيت وحدة الدَّوْلة العثمانيّة.

وقد تحوّلت عقيدة العَوْدة إلى صهيون -الأرض الموعودة- بين بعض اليهود إلى حركة صهيونية سياسية، وبُذل جُهْد كبير من أجل ذلك، وقد سَرَّعت حركة مُعاداة السامية التي تطورت في روسيا وأوروبا من الهجرة إلى الأراضي الفِلِسْطينية، ولا سيما بعد عام ١٨٨٠م، حتى قام السلطان عبد الحميد الثاني -بعد أن رأى خطورة الموقف- باتخاذ التدابير التي تمنع هذه الهجرة؛ لئلا يتمَّ توطين أيّ يهودي على الإطلاق، غير أنه تعذّرتْ الحيلولة دون الهجرة اليهودية.

ومع إعلان المشروطية (الإعلان الدستوري) عام ١٩٠٨م أراد اليهود الاستفادة من مناخ الحرية، فبدؤوا بتكوين مُستعْمَرات جديدة في المنطقة بشكل مُنظّم وسريع؛ فقرّر الاتحاديُّون حَظْر توطين اليهود بفِلِسْطين كما حدَث من قبل، غير أن اليهود واصلوا الاستيطان في هذه المنطقة بطُرُق مُتنوعة، ومن ثَمّ اتخذ الاتحاديون قرارات شديدة صارمة، ونفوا بعض اليهود خارج فِلِسْطين قُبَيْل الحرب العالمية الأولى.

وفي الحرب العالمية الأولى واجهت دُوَل الحُلَفاء بقيادة إنجلترا الاتفاق العثمانيّ الألمانيّ، وسَعَتْ علانيةً أثناءَ الحرب من أجل إنشاء دولة لليهود في فِلِسْطين، ومع بَدْء الاحتلال الإنجليزي لفِلِسْطين عام ١٩١٧م أُعلن في الخطاب -الذي كتبه وزير الخارجية البريطاني بلفور "المسمى وعد بلفور" إلى اللورد روتشيلد باسم اتحاد الجمعيات الصهيونية- أن إنجلترا ترى إقامة وطن قوميّ لليهود في فِلِسْطين، وقد صدَّقت على هذا الدُّوَل العُظمى الأُخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية.

ومــع تكـرار الهجوم من قبل الإنجليز في أيلول/سـبتمبر عام ١٩١٨م واحتلالهم لفِلِسْطين تمامًا، أصبحت المنطقة التي كانت خاضعة للانتداب الإنجليزي تحت سيطرة اليهود؛ لتكون وطنًا لهم، ومـع أن إنجلترا ساعدت اليهـود من أجـل توطينهم في فِلِسْـطين، إلا أن يهود تركيـا قدّموا اقتراحًا لمناقشـته في المجلس أثنـاء إجراء مُحادثات الصلـح فـي "لوزان"، ادَّعوا فيه أن مسـاعدة إنجلترا لهم كانت من أجل مصلحة مُؤقّتة، وأنه يسـتحيل الوثـوق بالإنجليز علـى المدى البعيد، وورد في الجلسـة رقم (١٦١) من البرلمان التركي الأول برئاسة علي فؤاد باشا:

"يُلتمس -في رسالة ميشون - وانتورا وصديقيهما من مُدرّسي دار الفنون السابقين- منح انتداب دولة يهود فِلِسْطين إلى دولة تركيا؛ وذلك نظرًا لأن اليهود لن يَنْسَوا أبدًا أنهم وجدوا المَلْجأ الحقيقيّ والمَخْلص لهم في تركيا، بينما كانوا يتعرّضون منذ خمسة قرون لأنواع التضييق في كل أنحاء العالم؛ ولذلك نقترح ونلتمس منح الانتداب فـي فِلِسْـطين إلى دولـة تركيا من أجـل توفير تناسـب ووِفاق بين اليهود والعرب كما كان الأمر في فِلِسْطين أثناء الحُكْم التركي".[1]

وكان مـن الطبيعـي أن عـارض النُّـواب مثـل هـذا الاقتـراح بشـدّة، يعنـي المُوافقـة على توطين اليهود بفِلِسْـطين، والتصديـق على الخطوات التـي اتخـذت في سـبيل إقامة دولتهم فيهـا، ومن ثَمّ رُفض هـذا الاقتراح في المجلس.

(١) جريدة مضبطة البرلمان التركي، ج ٢٦، مطبعة البرلمان ، أنقرة ١٩٦٠م.

الفصل الأول

نظرة عامة في التاريخ الإداري والدّيني والاجتماعي لفلسطين

١- أهم المراحل في تاريخ الأديان

فِلِسْطين هي المنطقة الواقعة في الطرَف الجنوبيّ الشرقيّ للبحر المتوسط، بين سوريا ومصر والبحر المتوسط ونهر الأردن، استمدّت هذه المنطقة التاريخية -وهي تُمثّل جِسْرًا بين قارّتيْ آسيا وإفريقيا- اسمها من قبائل "الفِلست" التي قَدِمت إلى هذا المكان عن طريق البحر أثناء هجرتها في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

قَدِمَ كثير من الأقوام منذ عصور ما قبل التاريخ إلى هذا المكان واستقرّوا فيه، والعَمالِقة هم أول الأقوام التي سكنت هذه المنطقة، وهم كما تخبرنا التوراة أقدم أمة في العالم، وهم أجداد العرب كما يرى المؤرّخون العرب وبعض الباحثين، وعاش في هذه المنطقة في عصور ما قبل الميلاد الكنعانيون وهم من الأقوام السامية، كما سكن الفِينيقيون والآراميون بعض مناطق الساحل كذلك، وتطورت حضارة الزراعة والتجارة في هذا العصر الذي عُرف بعصر "ديار كنعان"، وظهرت فيه أول أبجدية، ثمّ قَدِمَ إلى المنطقة جماعات الفِلست وهم من "أقوام البحر"، بعد ذلك وقعت المنطقة تحت احتلال مصر خلال هجرة الأقوام إليها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وأَسّست هذه الجماعات قِطاع غزّة كما هو اليوم، وخمس مُدن أخرى مُجاورة له، واتخذوا منها جميعًا وطنًا لهم.

اختلط الفِلِسْت الذين أُثير الجدَل في مسألة عِرْقهم بعد فترة من الزمن بسكان البلاد المحلّييّن، وفقَدوا خواصهم الذاتية بينهم، وأثناء استقرار الفِلست فيها على ضِفاف البحر المتوسط هاجر إليها بنو إسرائيل الذين كانوا في مصر، وفرّوا بقيادة سيدنا موسى ﷺ من ظلم فرعون إلى أرض الميعاد، دخل بنو إسرائيل في حرب مع العَمالِقة أصحاب

الأرض الأصليين، ومع الأقوام السامية المُختلفة وأقوام الفِلست، ونجح بنو إسرائيل في الاستيلاء على جزء كبير من الأرض في المنطقة، وأقاموا عليها أول دولة لهم في نهايات القرن الحادي عشر قبل الميلاد.[٢]

آل العرش إلى سيدنا داود ﷺ بدلًا من شاؤل (طالوت) أول ملوك بني إسرائيل، وفتَح القُدْس واتخذ منها عاصمة لدولته، وضمّ تحت حكمه كل الجماعات في المنطقة، واستمرّ حُكْمه ثلاثًا وثلاثين سنةً، بَيْد أن مملكة بني إسرائيل عاشت زهرةَ أيامها في حُكْم سيدنا سليمان (٩٧٢- ٩٣٢ ق.م)؛ فقد ضمّ سيدنا سليمان ﷺ إلى حُكْمه فِلِسْطين وما يجاورها وصولًا إلى سوريا، وأقام في القُدْس أولَ مَعْبد عُرف باسم "مَعْبد سليمان"، ولكن وحدة الدَّوْلة تفتّت بوفاة سيدنا سليمان ﷺ، وانقسمت إلى مملكتين مُستقلتين؛ فظهرت مملكة بني إسرائيل في الشمال وعاصمتها سامرية (سامانا)، ومملكة يهوذا في الجنوب وعاصمتها القُدْس (أورشليم)، ولم تدُم هاتان المملكتان طويلًا، بل آلت الأولى إلى الآشوريّين عام ٧٢١ ق.م، وقضى على الأُخرى حاكمُ بابل بختنصر عام ٥٨٦ ق.م، ولم يكتفِ الآشوريون والبابليون بالقضاء على هذه الممالك، بل قاموا بطَرْد آلاف السكان منها إلى ما بين النهرين.

استولتِ الإمبراطورية الفارسية بعد ذلك على فِلِسْطين، ونال العِبْرانيون في تلك الفترة (٥٣٩ ق.م) قَدْرًا من الحرية، وعاد ٤٠٠٠٠ شخص من أُسر بابل بعد أن حرّرهم الإمبراطور الفارسيّ قورش، وأُعيد إنشاء أسوار المدينة ومَعْبد سليمان الذي هدَمه البابليون، وبعد وفاة الإسكندر الأكبر الذي احتلّ سوريا ومصر، تحوّل حكم المنطقة بعد عام (٣٢٣ ق.م) من يد الإغريق إلى البطالمة في مصر، والسلوقيين في سوريا.[٣]

---

(٢) م. لطف الله قاراماان، موسوعة وزارة الشؤون الدينية الإسلامية، فِلِسْطين، ج ١٣، نشر وقف الشؤون الدينية.

(٣) قاراماان، مصدر سابق، ص ٩٠.

استولى الرومان على أرض فِلِسْطين عام ٦٣ ق.م، وصارت خلال حكم الرومان الذي استمرّ مدة طويلة مسرحًا لتمرّد اليهود وثوراتهم بين الحين والآخر، ونجم عن تمرّدهم -وخاصة في المرة الثالثة- طَرْدُهم خارج القُدْس، وقام الرومان بعد عام ١٢٥م بإعادة إعمار القُدْس بصِبْغة مدينة رومانية، وجعلوا منها عاصمة لفِلِسْطين، وأطلقوا عليها اسم "إيليا كابيتولينا"، واسمها العربي "إيلياء".

واستعادت مدينة القُدْس قُدْسيّتها مرّة أخرى بعد مولد سيدنا عيسى ﷺ في بلدة "الناصرة" الفِلِسْطينية في فترة الحُكْم الرومانيّ، وبعثه بالشريعة المسيحية، واعتناقِ الإمبراطور الرومانيّ قِسْطَنْطين للمسيحية في عام ٣١٢م؛ إذ أنشأ قِسْطَنْطين فيها بيوتًا للعبادة، وأصدر أمره ببناء أول كنيسة كبيرة هناك عُرفت باسم مَرْقد عيسى.

للقُدْس إضافة إلى هذا أهمية كبيرة عند المسلمين؛ لأن العروج بخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج كان من المسجد الأقصى في القُدْس، وقد غزا المسلمون فِلِسْطين مِرارًا عَقِب وفاة رسول الله ﷺ ابتداء من حُكْم الخليفة سيدنا أبي بكر ثمّ سيدنا عُمَر ﷺ، وفتحتْ المنطقة أبوابها أمام المسلمين في الحرب التي دارت رَحاها في منطقة أجنادين بين الرملة وبيت جبرين، وفُتِحت بعدها مباشرة مُدن أُخرى مثل سباستيه ونابلُس وليد ويوبنه وأمواس، وتحتلّ معركة اليرموك (١٥/٦٣٦م) التي انتصر فيها المسلمون مكانة مُهمّة في تاريخ فِلِسْطين؛ فقد أصبح المسلمون بهذا النصر أكثر قوة في المنطقة، وقاموا بمُحاصرة المدينة حتى وصلوا إلى القُدْس، وأسفرت معركتا أجنادين (٦٣٤م) واليرموك (٦٣٦م) عن ضمّ جزء كبير من أرض فِلِسْطين إلى حُكْم المسلمين، أما القُدْس فأصبحت أرضًا إسلامية بالصلح عام (٦٣٧م)، وكانت فِلِسْطين قد تحولت بتحركات معاوية العسكرية إلى أرض إسلامية خالصة، وكانت دماء الصحابة ﷺ هي الثمن.

وفي عصر الأمويين تمّ توطين عدد كبير من القبائل العربية في فِلِسْطين؛ فقد أولى الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد اهتمامًا كبيرًا بفِلِسْطين وخاصة القُدْس.

وفي عصر العباسيين تحوّلت فِلِسْطين وسوريا إلى ولاية مركزها الرملة، وبعد وفاة هارون الرشيد عام (٨٠٩م) ساد البلادَ في عصر الأمين بعضُ الفوضى، وسقطت المنطقة تحت سيطرة الطولونيين (٨٦٨-٩٠٥م) لتعود بعدها إلى سيطرة العباسيين، وتستقرّ في النهاية تحت نفوذ الإخشيديين (٩٣٥ - ٩٦٩م)، وفي عام (٩٦٩م) استولى الفاطميّون على فِلِسْطين بعد أن آل إليهم حُكْم مصر لمدة قصيرة.(٤)

ظلّت القُدْس بعد الفاطميّين تحت سيطرة السلاجِقَة والتُّرْكمان طِيلة رُبْع قَرْن، فقد دخل أطسيز بن أُوَاق -وكان من أبرز قادة السلاجِقَة- إلى القُدْس عام (٤٦٣هـ - ١٠٧١م) أثناء هجمات السلاجِقَة على الغرب، وأَبْعَد الواليَ الفاطميَ عن الحُكْم، وأحْكم سيطرته على المدينة، وأمر بقراءة الخُطْبة باسم سلطان السلاجِقَة "ألب أرسلان (*Alparslan*)" والخليفة العباسيّ "القائم بأمر الله"، ثم انتقلت الأراضي الفِلِسْطينية بعد ذلك إلى حُكْم الفاطميّين مرّة أُخرى، ولكن القائد "أطسيز (*Atsız*)" قام بتجهيز جيش جديد، واستردّ كل القلاع والمُدن التي فقَدها وعلى رأسها القُدْس، وإن كان "تُتُش (*Tutuş*)" أخو السلطان ملكشاه قد أسّس الدَّوْلة السلجوقية في سوريا وفِلِسْطين عام (١٠٧٩م)، إلا أن الفاطميّين قاموا بالاستيلاء على القُدْس مرّةً أخرى عام (١٠٩٨م)، ولكن حُكْم الفاطميّين في القُدْس لم يدُم طويلًا؛ فقد كانت أوربا تعيش في هذا العصر أشدّ المِحَن، وعمّت فيها فوضى كبيرة بسبب أمور كثيرة، منها المجاعة التي ضربت البلاد منذ سنوات، والفَقْر، وصِغَر حَجْم رُقَعة الأراضي،

(٤) قارامان، مصدر سابق، ص ٩١.

وتحوَّل الوضع فيها إلى حالة تهزّ سُلْطة الباباويّة؛ فقامت الباباويّة بإيجاد حلّ لهذا الموقف، ووجّهت أنظار الناس نحو الشرق والقُدْس وما حوله بشكل خاص؛ لتفرِض سيطرتها على الأراضي الإسلامية الغنية التي تزداد قوةً خارج أوربا، وتستعيد الأراضي المسيحية المُقَدسة؛ لأن أراضي الشرق كما ذُكرت في الإنجيل هي الأرض التي "يسيل اللبن والعسل في طُرُقاتها".(٥)

أسهمت هذه الادعاءات وما شابهها في تجميع الآلاف من أوربا حول البابا في مدة قصيرة، وبدأت بذلك الحمَلات الصليبية (١٠٩٨م)، وقام "الصليبيُّون" -وهم زُمْرة يُعلّقون الصليب في أعناقهم- بتخريب الأماكن التي كانوا يمرّون بها، وقتلوا بوحشيّة كل من يمرّون به في طريقهم، ونالت القُدْس نصيبها من هذا أيضًا؛ فقد قتلوا آلاف المسلمين في القُدْس، وتعرّضت للاحتلال الصليبيّ، وظلّت فِلِسْطين تعيش حالة من الفوضى طِيْلة فترة احتلال الصليبيّين إلى أن فتَح صلاح الدين الأيوبيّ القُدْس عام ١١٨٧م.

بعد أن قضى صلاح الدين الأيوبيّ على الفَوْضى في القُدْس ضمّ المؤصِل وحلَب إلى دولته، ونجح في تحقيق الأمن والوحدة في دولته، ثمّ قاد حمْلة على الصليبيّين بعد هجومهم على قوافل المسلمين التجارية، وإثارتهم للشغب، وأنزل بهم هزيمة مُنكرة في معركة "حِطِّين" عام ١١٨٧م، وعادت مدينة القُدْس مُجدّدًا إلى المسلمين في الثاني من تشرين الأول/أكتوبر عام ١١٨٧م الذي يُوافق ليلة المعراج.(٦)

أحسن صلاح الدين الأيوبيّ -بعد أن استردّ القُدْس- مُعاملة الصليبيّين في المدينة، وخاصة النساء والأطفال ورجال الدين، وقدّم لهم كافة

(٥) الإنجيل، الخروج من مصر، ١٣: ٥.

(٦) رمضان شَشَن، "الأيوبيون" تاريخ الإسلام العظيم من الميلاد حتى يومنا الحاضر، المجلد السادس، ص ٣٣٠-٣٣١.

التسـهيلات، حتى إنه أرسل كثيرًا منهم إلى المكان الذي يرغبون فيه دون أن يأخذ منهم جزية، كما أعطى غير المسـلمين الحقوق التي مُنحت لهم منـذ عَهْد سـيدنا عُمَر ﷺ، وسـمَح لجزء من اليهود الذيـن تعرّضوا للنفي قديمًا أن يعودوا إلى القُدْس مُجدّدًا.

تحوّلـت القُـدْس بعـد وفـاة صـلاح الديـن الأيوبـيّ عـام (١١٩٣م) إلى سـاحة كبيرة للفوضى وعدم الاسـتقرار، وخضَعت من جديد لسيطرة الغَرْب بمقتضى اتفاقية عُقدت عام ١٢٢٩م، ولكن هذا الوضـع لم يستمرّ طويـلًا؛ إذ عـادت القُـدْس إلى حُكْم المسـلمين بعد ذلك بخمس عشـرة سـنة، واستعاد المماليك -وخاصة بجهود السلطان "بيبرس (*Baybars*)"- فِلِسْـطين قِطْعـة تِلْو الأُخرى مـن أيدي الصليبيّين، وأصبحت سـتة مناطق منها، وهي غزة وليد وقاقون والقُدْس والخليل ونابلُس تَتْبـع دمشق.

تجلّت سـماحة الإسـلام بشـكل جيد في حُكْم المماليك، فقد سُـمِح للمسـيحيين بالدخـول إلـى المنطقـة رَغْـم أن الغلَبـة كانـت للمسـلمين فـي فِلِسْـطين في ذلـك العَصْـر، وأُعطي حقُّ اللجـوء لليهـود الذين فرّوا من أوربا -وخاصة إسبانيا- وهاجروا إلى فِلِسْطين، ومن مزايا هذا العَصْر كذلك انتشـار وتطوُّر نظام الأوقاف الذي ظهر في عصر العباسيّين، وأُقيم فـي القُدْس على وجـه الخصوص عددٌ كبير من الأوقـاف لخِدْمة أهداف دينية واجتماعية؛ وذلك من خلال موظفي الدَّوْلة.

دخلت فِلِسْـطين تحت الحُكْم العثمانيّ في عَهْد السلطان سليم الأول بعـد معركـة "مَـرْج دَابِـق (*Mercidâbık*)" عـام ١٥١٦م، واسـتُكمل فتح المنطقة وما حولها في عَهْد السـلطان سـليمان القانونيّ، وجرَت كثير من أعمال الإعمار، وخضَعت فِلِسْطين والمنطقة المُحيطة بها لحُكْم العثمانيّين الـذي تركوا فيها بصمات لا تخطئها العين، واسـتمرّ هذا الأمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى رَغْم وجود تحدّيات داخلية وخارجية أدّتْ أحيانًا إلى تغيُّرات إدارية.

انقسمت فِلِسْطين في العَهْد العثمانيّ إلى مُقاطعات، هي القُدْس وغزة ونابلُس والصفد، وكلها تتبع ولاية الشام إداريًّا، وخارج هذه المُقاطعات إماراتٌ تَتْبع مركز الولاية مُباشرةً.

تمرّد الأُمَراء الذين كانوا في عَكّا، واستولَوْا على الحُكْم عندما ضَعُفت قَبْضة الإدارة المركزية، وأشهر هؤلاء "مان أوغلو فخر الدين (*Ma'noğlu Fahreddin*)" (ت.١٦٣٥م)، وزاهر العُمَر (ت.١٧٨٢م).

لم يكن "نابليون بونابرت (*Napolyon Bonapart*)" قادرًا على السيطرة على فِلِسْطين بعد أن احتلّ مصر عام ١٧٩٩م، رَغْم أنه جهَّز حَمْلة لهذا الغرض؛ لأن حاكم عكّا أحمد باشا الجزار نجَح في الدفاع عنها.

بعد أن سيطر إبراهيم باشا بن محمد علي باشا على منطقة فِلِسْطين عام ١٨٣٢م، عادت مرّة أُخرى تحت الحُكْم العثمانيّ عام ١٨٤٠م، وأصبحت القُدْس ولاية تخضع للإدارة المركزية في الدولة العثمانيّة عام ١٨٨٧م؛ ثمّ بعد عام دخلت نابلُس وعكّا داخل حدود هذه الولاية عندما تأسّست ولاية بيروت؛ وبذلك انقسمت فِلِسْطين إلى شطرين: الجزء الشمالي صار ولاية تتبع بيروت، أما الجزء الجنوبي للأرض المُقَدسة فتُرِك أمره لإدارة القُدْس، ومن المدن المُهمّة التي تخضع لولاية القُدْس وَفْق هذا التقسيم: القُدْس ويافا وغزّة وخليل الرحمن؛ ويتبع لواء عكّا مدن عكّا وحَيْفا والصفَد والناصِرة وطبَرية؛ ويتبع لواء نابلُس مدن نابلُس وبني صَعْب وجمّاعين وجنين، وظلّت فِلِسْطين تابعة للدولة العثمانيّة حتى في عَهْد الانتداب البريطانيّ بعد الاعتراف بحدود نهر الأردن ودخول فِلِسْطين العثمانيّة في هذا التقسيم.[٧]

---

(٧) قاراماان، مصدر سابق، ص ٩٢.

٢- البنية الإدارية والسكانية لفِلِسْطين

ا- التقسيم الإداري لفِلِسْطين

تُركت البُنْية الإدارية القديمة في منطقتي سوريا وفِلِسْطين على حالها تقريبًا بعد أن دخلتا تحت الحُكْم العثمانيّ، وانقسمت منطقة فِلِسْطين إلى ثلاثة أقسام تتبع ولاية الشام، هي القُدْس - غزة، نابلُس - الصفَد، صالت - عجلون، وعُهد بحُكْم القُدْس في المرحلة الأولى لـ"أورانوس أوغلو (*Evrenosoğlu*)"، وحُكْم الصفَد لـ"منتصر أوغلو (*Muntasıroğlu*)"، وحُوِّل حُكْم القُدْس وغزة والصفَد في ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٥١٧ إلى "الجانبردي الغزالي" نائب المماليك السابق في الشام، ثُمّ ما لَبِث أن أُلقي القَبْض عليه أثناء حُكْم السلطان سليمان القانونيّ، وأُعدِم بتهمة السعي لإعادة تأسيس حُكْم المماليك القديم في سوريا ومصر، وترتَّب على هذا تغيير في البنْية الإدارية لهذه المنطقة؛ فعُهِد بإدارة ولاية الشام لعيَّاش باشا أمير أمراء الأناضول، وانفصلت مُدن الصفَد وغزة والقُدْس عن ولاية الشام، وصارت كل منها ولاية مُستقلة تابعة لولاية الشام، وعُيِّن "قَرَه حسن بك (*Kara Hasan Bey*)" حاكمًا على القُدْس.

وأُسِّستْ ولاية جديدة تحت اسم الصفَد - صيدا - بيروت عام ١٦١٤م، ودخلت ضِمْن حدود هذه الولاية مُقاطعات نابلُس وجبل عجلون وتَدْمُر وكَرْك شَوْبَكْ الواقعة داخل حدود ولاية الشام، وأصبحت أراضي فِلِسْطين مُكوَّنة من ولايتين مُستقلتين، وقام الباشاوات الذين يُديرون ولاية الشام في كثير من الأحيان بتولي الأمور -إضافة إلى عملهم- في مقاطعتين أو ثلاث، مثل نابلُس وجبل عجلون اللتين تتبعان ولاية الصفد - صيدا -

بيروت مع القُدْس الشريف ولَجُّون وغزة التابعة للولاية، وأُعلنت مناطق القُدْس الشريف ونابلُس وغزّة على وجه الخصوص من مُلحقات ولاية الشام، وتغيّر اسم ولاية "الصفد - صيدا - بيروت" اعتبارًا من أواسط القرن السابع عشر، لتصبح ولاية "صيدا".

لم تتغيّر البنية الإدارية لمنطقة فِلِسْطين كثيرًا في القرن التاسع عشر، وآلت لحُكْم القواللين ما بين عامي ١٨٣١-١٨٤٠م، ثمّ انتقلت إلى حُكْم الدَّوْلة العثمانيّة من جديد عام ١٨٤٠م؛ لتخضع في حُكْمها بعد ذلك لولاية صيدا، ودخلت مُقاطعات القُدْس ونابلُس وعكّا في حدود ولاية سوريا عام ١٨٦٥، وارتبطت القُدْس من الناحية الإدارية أثناء حرب القرم بإسطنبول بوصفها أحد الأماكن المُقَدسة، ولكن هذا الأمر لم يستمرّ طويلًا فسُرْعان ما عادت القُدْس مرّةً أخرى ضِمْن الحدود الإدارية لولاية سوريا، وفي عام ١٨٨٧م أُقيمت ولاية بيروت، وانضمّ إلى هذه الولاية الجديدة من الناحية الإدارية نابلُس وعكّا، في الوقت الذي انضمّت فيه القُدْس من جديد إلى إسطنبول للحيلولة دون تدخل الدُّوَل الغربية، وسُمِّيت "حامية القُدْس"، واستمرّت هذه البنية الإدارية على حالها إلى أن خرجت المنطقة بأسرها من سيطرة الحُكْم العثمانيّ،[8] وفي عام ١٨٦٠م أُسّست أول بلدية في فِلِسْطين، وكان تأسيس أول بلدية في منطقة القُدْس سببًا في تحويلها إلى مركز إداريّ مُهمّ نتيجة للتدابير الإدارية هناك.

وأُقيمت في نابلُس بعد ذلك ثاني بلدية في فِلِسْطين عام ١٨٦٨م، وامتدّت حدود نابلُس لتشمل منطقتي جبل نابلُس وبلقا، وفي عام ١٨٧٢م أُقيمت بلدية في يافا التي تحوّلت إلى واحدة من أهمّ المدن الساحلية في فِلِسْطين في تلك الفترة، وقد تأسّست البلدية في يافا عام ١٨٧٢م،

(٨) إشيق إشيل بوستانجي، فِلِسْطين في القرن ١٩ (وضعها الإداري والاقتصادي والاجتماعي، رسالة دكتوراه، جامعة فرات، ٢٠٠٦م)، ص ١٢٤-١٢٥.

أمـا البلديـات فـي الصفد وطبَرية والناصـرة وحيفا التي حلّـت محلّ عكّا على الساحل، فقد أُقيمت بعد صدور قانون بلديات الولايات عام ١٨٧٧م.

حـدّد قانون بلديـات الولايات الذي أُقرّ عـام ١٨٧٧م مَهامّ البلديات، وهذه المَهامّ هي الإشراف على أعمال البناء، وفَتْح الطُّرُق وبناء الأَرْصفة والمصارف، وهَدْم المباني الخَطيرة، وإنشاء قنوات المياة العامة والخاصة وصِيانتهـا، ونَزْع المُلكيـة الخاصة لأجل المصلحة العامـة، وإدارة أملاك البلديـة وإيراداتهـا، وإضاءة المدينة، وتنفيذ أعمـال النظافة، وإحصاء عدد السـكان، وإقامة أماكن للأسـواق، وضَبْط الأوزان، ووَضْـع أسعار الخبز، والإشـراف والمراقبـة واتخـاذ التدابيـر اللازمـة للمُحافظة على السـلامة والصالـح العـام، وتكويـن وحـدة للإطفاء، وتقديـم الخدْمـات مثل فتح المُستشفيات ومدارس الإصلاح والفنون.



حفرية للقدس

كان عبد الرحمن أفندي الذي يُنسب إلى الداوودبين -إحدى العائلات التي عُرفت بعِلْمها- أول رئيس لبلدية القُدْس، وبعد عام حلّ محلّه يوسف ضياء وهو من عائلة الخالدية، قام يوسف ضياء الخالدي خلال رئاسته للبلدية -وقد استمرت تسع سنوات- ببعض المشاريع المُهمّة لتطوير المدينة، مثل تعبيد طُرُق المدينة، ونَقْل المياه من "حوض السلطان" إلى المدينة، وفَتْح طريق بين القُدْس ويافا، ثم عُيّن عُمَر حسيني خَلَفًا له بعد أن دخل نائبًا عن القُدْس في أول برلمان عثمانيّ.

أثّرت النسبة المرتفعة لعدد السكان المسلمين في القُدْس على انتخابات البلدية في أواخر القرن التاسع عشر؛ فقد حصل المسلمون على خمسة مقاعد في مجلس البلدية، بينما حصل اليهود والمسيحيون على مقعد واحد، وكذلك حصل المسلمون في آخر مجلس للبلدية على ستة مقاعد، بينما حصل اليهود والمسيحيون على مقعدين لكل منهما.(٩)

ب- الخريطة السكانية في فِلِسْطين

لم يتجاوز عدد السكان اليهود في القُدْس عام ١٤٨٨ سبعين عائلة، وكان عدد اليهود في القُدْس من الذكور ممن هم في سن البلوغ ١١٥ نسمة وفقًا لمراكز الإحصاء الرسمية في أواخر القرن السادس عشر، أما العدد الإجمالي فبلغ حوالي ٥٠٠-٦٠٠ نسمة،(١٠) وارتفع هذا العدد مع سماح الدَّوْلة العثمانيّة لليهود الذين فرّوا من المذبحة في إسبانيا عام ١٤٩٢م بالقدوم إلى فِلِسْطين والاستقرار فيها.

يرى بعض الباحثين أن العدد التقريبي لسكان فِلِسْطين في القرن السادس عشر قد بلغ ٢٠٠٠٠٠ نسمة مُعظمهم ممن يقطُنون القُرى، ويتراوح عدد السكان في مدن غزّة والصفَد والقُدْس -وهي أكبر ثلاث مدن آنذاك- بين ٥٠٠٠-٦٠٠٠ نسمة، ورَغْم ارتفاع عدد اليهود

---

(٩) بوستانجي، مصدر سابق، ص ٦٩-٧٠.

(١٠) فيظاء بتول كوسه، القُدْس تحت الحُكْم العثمانيّ، رسالة ماجستير، جامعة أتاتورك، أرضروم ٢٠٠٣، ص ٩٥.

في فِلِسْطين في القرن السادس عشر مع توافد اليهود من إسبانيا وزيادة النشاط التجاري الإقليمي، إلا أن هذا العدد شَهِد تراجعًا ملحوظًا في القرن ذاته، وكذلك القرن السابع عشر.

وقد تراجعت أعداد اليهود القادمين من إسبانيا، وزادت أعداد السكان مع نشاط التجارة الإقليمية في القَرْن نفسه، وكذلك في القرن السابع عشر.(١١)

ولم تُعرف أعداد السكان في بدايات القرن التاسع عشر لعدم إجراء إحصاء دقيق للسكان في تلك الفترة، وكانت الأرقام التي يُعطيها الرّحالة الذين زاروا المكان في ذلك الوقت أرقامًا تخمينية؛ فعلى سبيل المثال ذكر "ستزَن (*Seetzen*)" الذي زار القُدْس عام ١٨٠٦ أن عدد سكان القُدْس الإجمالي هو ٨٧٥٠ نسمة، منهم ٤٠٠٠ مسلم؛ أما "روبنسون (***Robinson***)" الذي جاء إلى القُدْس عام ١٨٣٨ فذكر رقمًا يفوق الأرقام التي أعلن عنها رحّالة الغرب الآخرون؛ إذ ذكَر أن عدد سكان القُدْس يتراوح بين ١٥٠٠٠–٣٠٠٠٠ مُعظمهم من المسلمين؛ أما "طوبلر (*Tobler*)" الذي زار المنطقة عام ١٨٤٠م فذكر أن عدد سكان القُدْس الإجمالي ١٠٠٠٠ نسمة تقريبًا، منهم ٤٥٠٠ مسلم، و٣٥٥٨ مسيحيًا، والبقية من اليهود؛ وكذلك ذكر *Schultz* الذي قدم إلى القُدْس بصفته قُنْصلًا، أما "ف. بريمر (*F. Bremmer*)" فأعلن عام ١٨٥٩م أن عدد سكان القُدْس الإجمالي هو ٢٣٣٥٤ نسمة، منهم ١٢٢٨٦ مسلمًا، و٧٤٨٨ مسيحيًا، و٣٥٨٠ يهوديًا، ولكن هذه المعلومات لا تخلو من المبالغة عند الباحثين الغربيين؛ فلم يُوضّح أحد منهم ما إذا كانت هذه الأعداد التخمينية تخصّ مركز المنطقة فقط، أم أنها خاصة بالأعداد الإجمالية للمنطقة كلها.(١٢)

---

(١١) درور زيعوي، القُدْس، دار نشر يورت، وَقْف التاريخ، إسطنبول ٢٠٠٠م، ص ٣.

(١٢) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٣٦.

وبحلول عام ١٨٩٣م أُحصيت أعداد سكان القُدْس كلها حسب طوائفهم على النحو التالي:

اسم الطائفة	عدد الأشخاص
الإسلام	٢١٣٣١٠
الروم	١٦٧٠٦
اليهود	٨١١٠
لاتيني	٦٨٤٩
الأرمن	٩٣٩
البروتستانت	٦٥٤
البلغار	٤٢٢
السريانيين	١٠
العدد الإجمالي	**٢٤٧٠٠٠**

وارتفع عدد سكان القُدْس الإجمالي ومُقاطعاتها خلال فترة عشر سنوات تقريبًا من ٢٣٤٧٧٠ إلى ٢٧٤٠٠٠، بَيْد أن وثائق السكان العثمانيّة لم تُشر إلى زيادة في أعداد اليهود بعد عام ١٨٨٢م، رَغْم هجرة اليهود التي أخذت في التزايد، واحتياط الدَّوْلة العثمانيّة في أخذ التدابير اللازمة في هذا الخصوص، ويرجع السبب في هذا إلى عمليات الاستيطان غير المُرَخص بها، وقد أعلن "*Mc Carthy*" أن عدد السكان الإجمالي في القُدْس هو ٢٧٥١١٥ نسمة، وصل عدد اليهود منهم عام ١٨٩٢-١٨٩٣م إلى ١١٠٠١ إجمالًا، وقد لوحظ وجود فرق قُدِّرَ بـ٢٨١١٥ من الأعداد المدونة في الوثائق الرسمية للدولة العثمانيّة عن الفترة نفسها.[١٣]

(١٣) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٤٠.

يُوضّح الجدول التالي عدد السكان والمنازل في يافا[١٤] عام ١٩١٧م:

مدينة يافا	عدد المنازل	عدد النساء	عدد الذكور	المجموع
الإسلام	٣٦٢٢	٩٥٦١	٩٩٧٤	١٩٣٥٣
الروم	٦٧٨	٢٠٥٣	٢١٩٩	٤٢٥٢
الأرمن	٢٢	٥٧	٤٨	١٠٥
اللاتينيين	١٠٢	٣٢٨	٣٣٨	٦٦٦
الكاثوليك	١٠٤	٢٥٨	٢٧٤	٥٣٢
المارونيون	٥٥	٩٤	١٢٠	٢١٤
البروتستانت	٢٠	٤٤	٤٨	٩٢
السريانيون	١	١١	٨	١٩
الأقباط غير المسلمين	٤	٩	٩	١٨
اليهود	١٣٤٣	١٩٣٥	١٧٦٨	٣٧٠٣

وقد انخفضت أعداد اليهود في فِلِسْطين من ٨٥٠٠٠ نسمة عام ١٩١٤؛ لتصل إلى ٦٥٠٠٠ نسمة أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي عام ١٩٢٢ بلغ عدد السكان في فِلِسْطين ٦٦٨٢٥٨ نسمة، أما اليهود فبلغت أعدادهم ٨٣٧٩٠ نسمة.[١٥]

(١٤) BOA. DH. UMVM, ١٤٥/٤٩

(شرح: أشيرَ إلى "وثائق الأرشيف العثماني التابعة لرئاسة الوزراء" بـ"BOA" في الهوامش والمصادر، انظر "المصادر" لمزيد المعلومات).

(١٥) رياض ميشيل، التطور السكاني في الأردن وإسرائيل منذ النشأة وحتى اليوم وتحليله البنيوي (رسالة ماجستير)، جامعة إسطنبول، إسطنبول، ١٩٩٧ م، ص ٥٣-٥٥، حسن صالح، سكان فِلِسْطين، عمان: دار الشروق ١٩٨٥م، ص ٢٤٨ ؛ نقلًا عن رياض ميشيل؛ التحليل البنائي والتطور السكاني في الأردن وإسرائيل منذ قيامهما حتى يومنا الحاضر، رسالة ماجستير بجامعة إسطنبول.

وينبغــي النظــر بحيطة إلى الأرقــام المُصرّح بها؛ لأن الدَّوْلـة العثمانيّة ظلّـت تســجل عدد غير المســلمين مــن رعاياها حتى عـام ١٨٨٠م فقط، وأهملت تســجيل غير المسلمين من رعايا الدُّوَل الأجنبية، فجاءت بعض الأرقام مُبالغًا فيها بقَصْد إظهار زيادة أعداد اليهود.

٣- إدارة فِلِسْطين العِرْقية والدينية

أ- الطوائف العِرْقية والدينية في فِلِسْطين

يُشَبَّه المجتمع الفِلِسْطينيّ في تركيبه بالفُسَيْفُساء، وتُؤثِّر العقائد الدينية والفروق المذهبية بشكل خاص على البنية السكانية في فِلِسْطين أيضًا؛ لهذا كان المصدر الرئيس للفوضى وعدم الاستقرار في المنطقة هو هذا البناء الفُسَيْفُسائي الذي تنوّع من الأديان والأعراق المختلفة؛ وتُقدِّم وثيقة لا تاريخ لها (يُرجَّح أنها تعود إلى ما بين ١٩١٥-١٩٢٠م) من سِجّلات الأرشيف العثمانيّ معلومات عامة عن البناء الديني والعِرْقي للأقوام الذين عاشوا في القُدْس الشريف، وفيما يلي عَرْض مُبَسّط لمحتوى هذه الوثيقة:

اليهود: رَغْم معرفتنا بأن اليهود قد أخذوا عقائدهم عن سيدنا موسى ﷺ، إلا أن كتاب التلمود وكتب العقائد والتعاليم الأخرى كان لها تأثير قويّ في عقائدهم، لم يكن عدد اليهود يتجاوز مائتين أو ثلاثمائة شخص فقط قبل تسعة قرون على أراضي فِلِسْطين التي طُرِدوا منها منذ عَهْد "أدريانوس"، وأخذت أعدادهم تتزايد تدريجيًا بعد هذا التاريخ لتصل اليوم إلى خمسين ألفًا في القُدْس وحدها، وتُقدَّر أعدادهم في فِلِسْطين كلها على سبيل التخمين بما يَقْرُب من مائة ألف يهوديّ؛ فقد نزح اليهود إلى فِلِسْطين من كافة أنحاء العالم، وقَوِيت العلاقة بينهم بناء على الناحية العِرْقية، ولكنهم انقسموا فيما بينهم إلى طُرُق وأجناس مختلفة؛ فاليهود ينحدرون من نسلين كبيرين، النسل الأول ويطلق عليهم يهود "الأشكيناز" وهم القادمون من ألمانيا وروسيا وبولونيا ورومانيا، ويطلق على النسل الآخر يهود "السفرديم" وهم اليهود الذين طُرِدوا

من أسبانيا، وكانوا قد نزَحوا من البرتغال ومُرّاكش والجزائر واليمن وإيران وبُخارى، ومن المنتسبين إلى القسم الثاني طُرُق دينية يطلق عليها "باروشيم"، و"حسديم"، وهي منسوبة إلى الطُّرُق الفلسفية الإسرائيلية، ويعيش أفراد هذه الطريقة في القُدْس -وهم قليلو العدد- من مُساعدات جمعية الإسرائيليات "إليانز" للإغاثة، ويقضون أوقاتهم في العبادة، يتّبع اليهودُ عددًا كبيرًا من الطُّرُق الدينية، لكل منها مَعْبد ومدرسة خاصة بها، وهم يخضعون لإدارة حاخام واحد من "السفرديم"؛ لأنهم يجتمعون على مذهب أساسيّ واحد.



يهود القُدْس في الطقوس الدينية

حُدِّد لليهود نوع مختلف من الملابس حتى يُعفَوا من القواعد التي ينبغي على المسلمين اتباعها، وحتى يتحاكموا إلى القوانين الخاصة بأديانهم.

الروم الأرثوذكس: حَظِيت كنيسة الروم بمكانة أفضل من كل كنائس المسيحيين في الشرق؛ لأنها مؤسسة دينية بُنيت على الأُسس العقائدية لحواريّي سيدنا عيسى عليه السلام، وإن كان هذا التفوُّق قد قلّ عندما استولى الصليبيون على فِلِسْطين، إلا أنها استردّت مكانتها من جديد منذ قرنين

أو ثلاثـة، وتختلـف هذه الكنيسـة عن الكنيسـة الرومانية بشـكل أساسـيّ في عدم الاعتراف برئاسـة الكنيسـة البابوية، وعدم التوافق معها في نقطة أو اثنتيـن مـن أساسـيّات العقيـدة، يبلـغ عدد سـكان الـروم الأرثوذكس في القُدْس حوالي ثلاثين ألف نسمة، وكان للروم الأرثوذكس في القُدْس والمناطـق المحيطة مجالس باسـم "سـيوند (*Siyond*)" مُكوّنة من بَطارِكة ورُهْبان مُعينين بمرسوم سلطانيّ.

الأرمـن: يختلـف الأرمـن فـي عقائدهـم بشـكل كبيـر عـن الكنيسـة الكاثوليكية والكنيسـة الرومانية؛ لأنهم يتبعون طريقة البابا "جريجوريوس المنوِّر"، ويرجـع تاريخ الكنائس في القُدْس إلى خمس عشرة قرنًا تقريبًا، ويبلـغ عدد السـكان الإجمالـي فيها ألفًا وخمسـمائة نسـمة داخل اللواء فـي رأي الباحثيـن المحدثيـن، وتُـدار هـذه الكنائس مـن هيئـة البطارِكة والرهبان، وتُختار هذه الهيئة بمرسوم سلطانيّ.

السـريانيّون: يأتـي مذهب السـريانيّين فـي المرتبة الثانية حاليًا بسـبب التغييرات التي أُجريت في الكنائس، رَغْم أنه يُعد أفضل مذاهب المسيحيّين الأخرى في المنطقة، ويتبـع السـريانيّون عقائد الكنائس الأرمينية، ويُعرف السريانيّون كذلك باسم "السريانيّون اليعقوبيون"؛ لاقتدائهم بالبابا "يعقوب النُّصيْبِي"، ويبلـغ عدد السـكان في هذه المنطقة ٣٢٧ نسـمة تقريبًا، ولهم أسـاقفة فـي القُدْس يُعيَّنون مـن قِبَل البَطارِكة فـي "ماردين"، وتعترف بهم الدَّوْلة العثمانيّة.

الأقباط: كان فشـلُ الأقباط في اجتذاب روم الكنيسة المصرية القديمة إليهم سببًا في مخالفتهم لبعض أفكار هذه الكنيسة، وانفصلوا عنها وأصبح لهم مذهب مُستقلّ حاليًا، ولهذه الطائفة جماعات في القُدْس يبلـغ عددها مائة وخمسة وعشرين يترأسهم أساقفة نزحوا قديمًا من مصر.

الأحباش: أخذ الأحباش أُسس مذاهبهم عن الأقباط، حتى إن كِبار الرُّهبان في الحبشة كان يُعيَّنون من قِبل البَطْرِيَرْك القِبْطيّ في مصر باسم "قبطيّ الجنس"، ودَأَب الأحباش منذ القِدَم على تردُّدهم الجماعيّ إلى القُدْس ذهابًا وإيابًا، لكن ظلّت جماعة منهم عددها قريب من المائة مُقيمة هناك بشكل دائم، ولهم كنائس وأَدْيِرة خاصة بهم.

الروس: يمتلك الروس في القُدْس عددًا كبيرًا من الكنائس والمُؤسسات المستقلة عن الروم، رَغْم أنهم يتبعون الكنيسة الرومانية من الناحية المذهبية، وقد سعى الرُّهْبان الروس في القُدْس إلى ضمّ السكان من المذهب الأرثوذكسي الرومانيّ إلى الكنيسة الروسية.

البروتستانت: إن كان المذهب البروتستانتي قد انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية، وأسّس لوثر المذهب البروتستانتيّ، إلا أن هذا المذهب انقسم بعد ذلك إلى عدد كبير من الطُّرُق الدينية، وقد خدم هذا المذهبَ عددٌ من المبشرين الألمان والإنجليز والأمريكان الذين سعَوْا من أجل انتشاره في القُدْس، وعملوا منذ أواسط القرن الماضي على إقامة كثير من المؤسسات التعليمية والخيرية في فِلِسْطين، ورَغْم أن هؤلاء المبشرين قد تبنّوا دعوة اليهود إلى البروتستانتية، إلا أن عدد اليهود الذين تحوّلوا إلى هذا المذهب كان قليلًا جدًّا؛ لهذا بدؤوا في إنشاء عدد من المدارس والمؤسسات الأخرى لتحويل أتباع المذاهب المسيحية إلى المذهب البروتستانتي، وتُعد الكنيسة العليا والكنائس الإنجيلية وفرسان المعبد أكثر الطُّرُق الدينية البروتستانتية انتشارًا في هذه المناطق، إضافة إلى هذا هناك طريقتان أخريان تأتيان في المرتبة الثانية لرعايا أجانب يطلق عليهما اسم "إدفنست (*Edvenist*)" و"كِفجر (*Kveger*)"، وترتبط كل طريقة منهما ببعض العادات والتقاليد التي لا تَمُتُّ إلى الدين بصلة، وقد اعترفت الحكومة رسميًّا بهاتين الطريقتين.

اللاتينيون: يتبنى المذهب اللاتينيّ عقيدة الكنيسة الرومانية، وللاتينيين وجـود فـي القُـدْس منـذ عَهْـد الصليبيين، وهـم يخضعـون لإدارة رجال الديـن من رعايـا الدُّوَل الأجنبية، وقد اسـتمرّوا فـي أداء وظيفتهم الدينية فـي الأماكـن الكاثوليكيـة التـي يقصدهـا النـاس للزيـارة، ويُقيـم هؤلاء فـي القُـدْس، ولديهم رجـال دين يعملـون تحت إمرتهـم ويحملون لقب بَطْريرك، ورَغْم أن الدَّوْلة العثمانيّة لم تعترف بالبَطْرِيَرْكية إلا أن البَطْرِيَرْكية كان مُعترفًا بها بشكل شبه رسمي؛ لأن الدَّوْلة العثمانيّة كانت تحكم أتباع المذهب اللاتيني الذين هم من رعاياها.(١٦)

كان المسـلمون والمسـيحيون واليهـود يعيشـون فـي أحيـاء مختلفـة مـن القُـدْس، يحافـظ كل منهـم علـى حياته الدينيـة والاجتماعية بشـكل مختلف عن الآخر.

أُقيم حيّ المسلمين في شمال شرق المدينة القديمة، وكان يحمل صفة الحـيّ الأكبر، ثم توسّـع هذا الحيّ وأصبح على امتداد الحرم الشـريف، كمـا خضعت الطُرُق المؤدية إليه من الشـمال والغرب للمراقبة، وأخذت أعداد السـكان فى التزايـد عند أقرب الأبواب المؤدية للمسـجد، ومراكز التعليـم الدينـي، وأهـمّ المباني العامة على امتداد حيطان الحرم الشـريف مـن الشـمال والغـرب، وبالمقابل كلما ابتعـدْتَ عن هـذه الأماكن كانت أعداد السكان تتناقص.

يحيط الحيّ المسـيحيّ بأحد أجزاء المنطقة الشـمالية الغربية للمدينة، وقد قام المسيحيون في المنطقة المحيطة بدير مَرْقد عيسى عليه السلام -وهو من الأماكن المُقَدسة عند المسيحيين- بشراء منازل أو إقامتها في هذا المكان؛ فعندما نُقِلَ دير "فرانسيسـكان (*Fransisken*)" في أواسـط القرن السادس

(١٦) BOA, DH, EUM. ٤. Şb. ٢٢/٤٠

عشر من "جبل صهيون" إلى هذه المنطقة، تكوّن على إِثر ذلك مركز روحانيّ آخر جمَع المسيحيين حوله، وكان للمسيحيين في هذا الحيّ من المدينة القديمة عدد كبير من المؤسسات الدينية والأماكن المُقَدسة قديمها وحديثها، وضمّ كذلك ١٥ كنيسة لليونانيين، و١٨ ديرًا، وعددًا كبيرًا من الخانات التي كانت تقوم على استضافة الحجاج المحليّين، ولم يكن للسوريين الأرثوذوكس سوى كنيسة واحدة قديمة وبجانبها دير صغير.



منزل البَطْرِيَرْكية اللاتينية

(جامعة إسطنبول، مكتبة الآثار النادرة، ٩٠٥٠٤-٢٣)

ورَغْم ضعف الإمكانيات المادية للأقباط؛ لأنهم كانوا من أكثر الطوائف المسيحية فَقْرًا، إلا أنهم كانوا يملكون ديرًا باسم "سانت جورج (*Saint-Georges*)"، وكان لهم خاناتهم الخاصة، ورَغْم ذلك كانت هناك مباني البَطْرِيَرْكية اللاتينية الواسعة في الطرف الشمالي لباب يافا بداية من عام ١٨٦٨م، واستقرّت في بدايات عام ١٨٥٠م في الحيّ المسيحيّ اثنان من الطُّرُق الدينية النسائية الفرنسية، بالإضافة إلى الراهبتَيْن "نوتردام

دي سيون (*Notre Dame de Sion*)" و"سانت جوزيف (*Saint-Joseph*)"، وقاموا بافتتاح الأديرة والمدارس، وقام الإنجيلكان واللوثريون الألمانيّون من البروتستانت بإقامة مؤسسات في محيط أُسقُفياتهما المشتركة، وأقاموا آثارًا دينية ومِعْمارية مُقابل أنشطة الكاثوليك والأرثوذكس.

يقع الحيّ الأرمينيّ في الطرف الجنوبيّ الغربيّ من المدينة فوق "جبل صهيون"، ويُعدّ دير وكنيسة "عزيز يعقوب" من أهمّ الأماكن في هذا الحيّ، ويقعان في ساحة واسعة تُغلق أبوابها ليلًا، ومُحاطة بحائط أقامه بَطْريرك الأراضي المُقَدسة وقبرص الأرمينية.

وهناك حيّ المغاربة بين الحيّ اليهودي الواقع إلى الجنوب الشرقيّ من المدينة القديمة وحائط المَبْكى، وكان اليهود يقيمون في الأحياء الجنوبية مثل القُدْس الشريف والمسلة والريشة؛ لأنهم يفضلون الإقامة بالقرب من حائط المَبْكى، وترجع إقامتهم في هذه المنطقة إلى القرن الثالث عشر، ويُحيط الحرَم الشريف والأحياء المسلمة بهذه الساحة الضيقة، وهي أقرب إلى حائط المَبْكى من الشمال والشرق، ويُحيط بها من الغرب والشمال الغربيّ أحياء الأرمن والأحياء المسيحية.[١٧]

ولم يكن الفصل بين هذه الأحياء فصلًا رسميًّا يخضع لقواعد وضوابط صارمة، بل كان نوعًا من الانقسام المشروع تكوّن تلقائيًّا واعترف به الجميع؛ فقد كان لكل ذي ديانة الحرية في اختيار المكان الذي يريده والإقامة فيه، وعلى سبيل المثال كان هناك عشرة معابد يهودية داخل الحيّ المسلم في المدينة القديمة، ومُؤسسات تعليمية ومطبعة عِبْرية في نهاية القرن التاسع عشر.

(١٧) كُوشه، مصدر سابق، ص ١٠٣-١٠٤.

حدَث مثل ذلك تمامًا في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، فقد كانت هناك عائلات مُسلمة في الحيّ المسيحيّ، وخاصة في شارع داود، وبين كنيسة القيامة وموريستان، وأقيمت مآذن لمسجدين بقيا من القرن الخامس عشر بالقُرْب من مقام لسيدنا عيسى ﷺ.

وأُسندت مسألة حماية مقام سيدنا عيسى ﷺ من الخارج إلى المسلمين منذ فَتْح صلاح الدين الأيوبيّ للمدينة عام ١١٨٧م، وسُلِّمت مفاتيحه لعائلتين مُسلمتين في المدينة، وفي الوقت الذي قَبِل فيه المسيحيون بوجود المسلمين، كانوا يتصدّون في المقابل لأيّ محاولة من اليهود للدخول بينهم، وكان اليهود يتهرّبون كذلك من الذهاب إلى هذه المنطقة، وخاصة تلك المجاورة لكنيسة القيامة.

لَعِبت عوامل مختلفة -وخاصة الهجرات القادمة من أوربا- دورًا مهمًّا في تطوير المدينة القديمة في القرن التاسع عشر، كما فتحت الطريق أمام زيادة كبيرةٍ في عدد سكان المنطقة، وبدأ السكن يتوسّع خارج السُّوْر اعتبارًا من خمسينيات القرن التاسع عشر بعد أن كان مُنحصرًا داخله في القُدْس قبل ذلك.

قام "السيد موسى مونتيفيوري (*Sir Moses Montefiero*)"اليهودي البريطاني، و"جوده تورور (*Judah Touro*)" اليهودي الثري من "نيو أورلينز (*New Orleans*)" بتقديم تبرُّعات لإقامة أول حيّ استيطانيّ لليهود المحليّين خارج الأسوار، واستصدرا قرارًا خاصًّا من السلطان العثمانيّ عام ١٨٥٥م لشراء أرض من الممتلكات الشخصية عند طرَف جبل صهيون، بَيْد أن أعداد اليهود الراغبين في هذا المكان ظلّت قليلة جدًّا بسبب عدم رغبتهم في الابتعاد عن حائط المَبْكى والمعابد والمراكز التعليمية.

وأُسِسَ عددٌ كبير من الأحياء اليهودية خارج أسوار القُدْس اعتبارًا من عام ١٨٦٠م، كان أولها "ميشكنوت شاعنيم (*Mişkenot Şaanim*)"،

وفيما يلي عرض للمباني والإنشاءات التي أقيمت لليهود حتى عام ١٨٨١م:

في عام ١٨٦٦م "*Mahaneth İsrael*"، في عام ١٨٦٩م "*Nahalat Şiva*"، في عام ١٨٧٣م "*Beit David*"، في عام ١٨٧٤م *Mea Şearim*، في عام ١٨٨٠ *Beit Yaako*، وتقع على أطراف طريق يافا الأحياء المتبقية خارج *Mea Şearim* و *Kiryat Neemanah*، التي تمّ إقامتها على طريق النبي صموئيل، وعند باب الشام.(١٨)

ب- إدارة الفُسَيفُساء العِرقية والدينية بالتسامح

شكّلت معاملة المسلمين مع غيرهم من تسامح وعدل وإدارة في القُدْس منذ الأيام الأولى لفتح سيدنا عُمَر ﷺ أجملَ صفحات التاريخ الإسلاميّ.

كان عمرو بن العاص ﷺ الذي كُلِّف بفتح فِلِسْطين وما حولها يعمل على فتح القُدْس أيضًا، وتسلّم المسلمون القُدْس بقيادة عمرو بن العاص ﷺ بعد مُحاصرتها من دون إراقة دماء، وذلك بعدما فقَد شعبُ المدينة والجنود الأملَ في النجاة من الحصار الذي طالت مدته، ولكن الشعب اشترط أن يُوقّع الخليفة سيدنا عُمَر ﷺ شخصيًّا اتفاقية السلام، فأرسل إليه عمرو بن العاص وأخبره الخبر، فقَبِل سيدنا عُمَر ﷺ، ثم جاء الرسل فأعلنوا عن رغبتهم في السلام، وقرأ عليهم سيدنا عُمَر مُعاهدته الشهيرة:

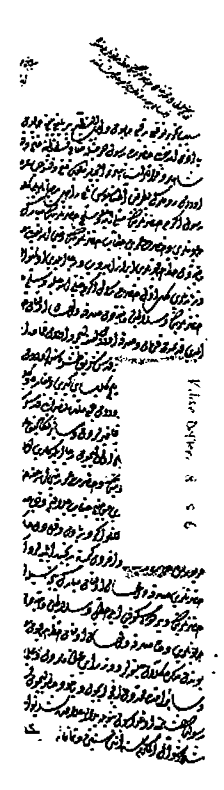
> "الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه محمد ﷺ، وهدانا من الضلالة، وجمعنا بعد الشتات، وألّف قلوبنا، ونصرنا على الأعداء، ومكّننا من البلاد، وجعلنا إخوانًا مُتحابّين، احمدوا الله عباد الله على هذه النعمة.
>
> هذا كتاب عُمَر بن الخطاب لعَهْد وميثاق أُعطي إلى البَطْرِيَرْك المُبجَّل صاحب الكرم، وهو صفرونبوس بطريرك الملّة الملكية في طور الزيتون بمقام القُدْس الشريف، يشمل الرّعايا والقساوسة

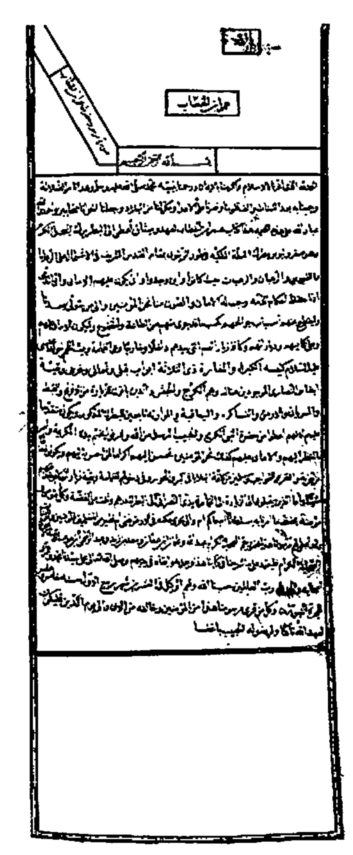
---

(١٨) كوسه، مصدر سابق، ص ١٠٥-١٠٧.

والرهبـان والراهبـات حيـث كانوا وأيـن وُجِـدوا، وأن يكون لهم الأمن، وأن الذميّ إذا حفظ أحكام الذّمة وجب له الأمان والصّون منا نحن المؤمنين ومن يتولى بعدنا.

وكل مـن قـرأ مرسـومنا هذا مـن المؤمنين وخالفـه من الآن إلى يوم الدين، فإنه يكون لعَهْد الله ناكثًا ولرسوله الحبيب باغضًا، (ربيـع الأول، السنة الخامسة عشرة للهجرة) ".(١٩)





عَهْد سيدنا عُمَر ﷺ

العَهْد الذي أعطاه عُمَر بن الخطاب للبطريرك صفرونيوس

(١٩) BOA, A. DVN. KLS. D.٠٨

توجّه سيدنا عُمَر بن الخطاب ﷺ بعد هذه الاتفاقية التي وُقّعت في العام الخامس عشر من الهجرة مُباشرة إلى القُدْس، ودخل كنيسة القيامة هناك، فحان وقت الصلاة، فسأل سيدنا عُمَر ﷺ عن مكان يؤدي فيه الصلاة، فأجابه البَطْرِيَرْك بأنه يُمكنكم إقامة الصلاة في الكنيسة، لكن سيدنا عُمَر ﷺ لم يرض أن يصلي داخل الكنيسة، ثم التفت إلى البَطْرِيَرْك بعد انتهى من صلاته خارج الكنيسة في مكان قريب من الباب، وقال له:

"أما إني لو صليت داخل الكنيسة لوثب المسلمون على المكان وقالوا: هنا صلى عمر".

وبناء على هذا أضيف إلى المعاهدة ألا يجتمع المسلمون في الكنيسة من أجل الصلاة، وألّا يُرفَع الأذان هناك، ثم أراد سيدنا عُمَر ﷺ أن يُرِيَ البَطْرِيَرْك المكان الذي يريد بناء المسجد فيه؛ فاختار الهضبة التي خاطب الله تعالى سيدنا يعقوب عندها، وعندما بدأ ينظف بيديه الرمال من فوقها، سارع المسلمون ففعلوا مثله، ولم يمرّ وقت طويل حتى أصبح المكان جاهزًا لبناء المسجد، وبعد أن أصدر الخليفة أمره ببناء مسجد في هذا المكان، رسَم الحدود بين الولايات في منطقة الشام وعيّن لها حُكّامًا، ثم عاد إلى المدينة.[٢٠]

وكذلك فعل صلاح الدين الأيوبيّ عندما حرّر القُدْس من أيدي الصليبيين عام ١١٨٧م بعد جهاد استمرّ زمنًا طويلًا؛ فقد أبدى كل أنواع اللين في المعاملة مع الصليبيين في المدينة، وخاصة الأطفال والنساء ورجال الدين المسيحيّ، وأطلق سراح عدد كبير منهم لينصرفوا حيث أرادوا دون أن يأخذ منهم الفِدْية؛ فكان صلاح الدين الأيوبيّ موضع تقدير وإطراء من المؤرخين الصليبيين أنفسهم.[٢١]

---

(٢٠) تاريخ الإسلام منذ الظهور وحتى اليوم، ج ٢، ج ٤، نشر دار جاغ، إسطنبول، ١٩٨٦م، المجلد الثاني ص ٩٣-٩٤.

(٢١) المرجع السابق، المجلد السادس ص ٣٣١.

واستمرّ تسامح الحُكّام المسلمين الأولين تُجاه غير المسلمين في عَهْد الدَّوْلة العثمانيّة كذلك، فمازالت اللوحة التي وضعها العثمانيّون على باب الخليل، وقد خُطَّ عليها عبارة "لا إله إلا الله، إبراهيم خليل الله"؛ ليعيش أهل الأديان الأخرى كاليهودية والمسيحية في سلام، ما زالت هذه اللوحة حتى يومنا الحاضر فوق باب الخليل، وهو من أبواب الدخول الرئيسة لمدينة القُدْس؛ لأن سيدنا إبراهيم ﷺ هو النبيّ الذي تتفق عليه الأديان الثلاثة (٢٢).

تقبّل أهالي البلاد التي فتحها المسلمون مبادئ العدل والتسامح التي جاء بها الإسلام واتخذوها دستورًا لهم، وتمسّك السلاطين العثمانيّون بعَهْد سيدنا عُمَر ﷺ أيضًا، وحكَموا هذه المنطقة التي تختلف كثيرًا في بنائها العِرْقي والديني بطمأنينة وسكون، وفي سِجلّ كنيسة القيامة في الأرشيف العثمانيّ نُسخة من معاهدة سيدنا عُمَر ﷺ، وخطّ هُمَايوني وفَرمان.

وعلى سبيل المثال، توجّه بطريرك الروم في القُدْس عام ١٤٥٨م إلى إسطنبول بصحبة رهبانه للتهنئة بفتحها، وطالبوا باستخدام المعابد المسيحية في القُدْس، وإعفائهم من الضرائب، وقاموا بإبراز خطّ الهُمَايون الذي عليه عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام، ثم عُمَر، ومَن بعده من السلاطين؛ وبناءً على هذا أوضح السلطان محمد الفاتح لبطريرك الروم: أنه استنادًا إلى العهود التي تفضّل بها حضرة الرسول الأكرم ﷺ وسيدنا عُمَر ﷺ، وجلالة السلاطين السابقين، فإنهم سيتمتّعون بنفس الحرية في أمور عباداتهم، ودُوْر العبادة الخاصة بهم، وسيُعْفون من دفع الضرائب، وهم آمنون على أرواحهم وأموالهم، وأصدر مرسومًا سلطانيًا بذلك.(٢٣)

وفيما يلي عرض لافتتاحية القرار الصادر من السلطان ياووز بتاريخ ١٥١٧م:

---

(٢٢) كريم بالجي، "القُدْس: المدينة الباحثة عن أيامها السعيدة"، مجلة فيزيون، آذار/مارس ٢٠٠٩، ص ٢٣٩.

(٢٣) BOA. A. DVN. KLS. D. KLS. D. ٠٨/ص٦



المرسوم الذي أصدره السلطان سليم الأول فاتح القُدْس

"أَمْـرُ عالـي الشـأن المعنون بالخـطّ الهُمايوني الـذي تفضّل به المرحوم حضرة السلطان سليم، فاتح القُدْس الشريف:

وغَضِـب الله تعالـى علـى كل من يُخـلّ بهذا الأمر الشـريف أو يتصرّف بشكل يتناقض مـع ما جاء فيه.

بمجـيء السـلطان سـليم إلـى القُـدْس الشـريف، وفتحه لها في الخامس والعشـرين من صفر الخير، حضر "أطاليا (*Atalya*)" بطريـرك الروم، ومعه جملة الرهبـان من الرعايا يُبايعونه، ويُعلنون السـمْعَ والطاعـة له، واسـتمروا يديرون كنائسـهم وأديرتهم على

نفس المِنْوال القديم، وقد أمر أن يقوم البَطْرِيَرْك السابق ذكره بالإدارة والتصرف وفْق العَهْد الصادر من سيدنا عُمَر ﷺ، وأوامر السلاطين السابقين...".

وينتهي الجزء الأخير منه على هذا النحو:

" اللهم أنزل غضبك على كل من يخلّ بهذا الأمر؛ وبناءً على ذلك أترك الأمر الهُمايوني في أيدي السابق ذكرهم؛ ليستند إليه كل واحد منهم.

(عام ١٥١٧م، القُدْس الشريف.) ".[٢٤]

لقد ضرب المسلمون في التعايش مع أهل الأديان الأخرى في فِلِسْطين -كما فعلوا في كنيسة القيامة- أروع الأمثلة في التاريخ الإسلامي خلال حُكْم الدَّوْلة العثمانيّة، وقد كَفِل هذا لأهل المذاهب المسيحية أن يتعبدوا مع بعضهم في ضوء مفهوم التسامح والعدالة في الإسلام.

وأكّد هذا "دِرور زيعوي" الذي قام في القرن السابع عشر بدارسات حول القُدْس واستند إلى أبحاث قام بها "عامون كوهين (*Amnon Cohen*)"، قال:

"لقد توحّدت الجماعات اليهودية والمسيحية في القُدْس في ظلّ نظام اقتصاديّ كما هو الحال في المُقاطعات الأُخرى من الدَّوْلة العثمانيّة، ولم تختلف معاملة الدَّوْلة العثمانيّة لهذه الأقليات كثيرًا عن سلوكها مع السكان المسلمين، ومن مُؤشرات ذلك رغبة المسيحيين واليهود في المثول بين يدي قاضي المحكمة الشرعية التي أُسِسَت حديثًا ثقةً منهم بها، رغم أنهم لم يكونوا مُضطرين لذلك".[٢٥]

وفضلًا عن الحرية والعدالة والتسامح الذي كَفِله الإسلام لغير المسلمين فقد حَظَر على غيرهم إقامة مبانٍ حول الأماكن المُقَدسة

(٢٤) BOA, A, DVN, KLS, D. ٠٨

(٢٥) درور زيعوي، القُدْس، دار نشر بورت، وَقْف التاريخ، إسطنبول ٢٠٠٠م، ص ٤.

التاريخية الخاصة بهم، وحمى لهم معابدهم، وحقوقهم الاجتماعية والثقافية، ويُمكننا من خلال مُطالعة كثير من وثائق الأرشيف أن نعرف كيف حكم العثمانيّون بالعدل دون أيّ تفرقة أو تمييز.

وعلى سبيل المثال، فقد جاء في الأمر المُرسل إلى ولاية بيروت بضرورة الاهتمام بالأماكن المُقَدسة عند اليهود والمسيحيين، مثل المعابد والقِلاع في مناطق الصفد وحيفا وطبَرية التي تُعدّ من الآثار القديمة، وبوجوب مَنْع الحِيَل التي يحاول الأجانب على وجه الخصوص القيام بها في تلك الأماكن، والعمل على المحافظة على هذه الأماكن كما هي؛ لِمَا تتمتّع به هذه الأماكن من قدسية وعناية خاصة من اليهود والمسيحيين، وعدم التصريح ببناء مبانٍ أُخرى حولها تنفيذًا للأوامر الخاصة بالآثار القديمة في هذا الشأن بتاريخ ١٣ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٩٨م.[٢٦]

وتحدثت وثيقة أخرى عن التصريح بإقامة مقابر خاصة في مدينة الطور؛ يدفن فيها من يُتوفّى من أبناء الجمعية البروتستانتيّة (*Evangelic*) الأمريكية في القُدْس، ولنقرأ من الوثيقة التالية القرار الصادر بهذا الشأن:

> "تقرّر أن يقوم مجلس شورى الدَّوْلة بدراسة الطلب المُقدم من ولاية القُدْس بإعطاء ترخيص لإقامة مقابر في قرية الطور للأموات من الجمعية البروتستانتيّة التي تتألف من رعايا أمريكا والدُّوَل الأُخرى الذين يقيمون في القُدْس؛ لأنه لا يمكن دَفْنهم في مقابر الأمم الأُخرى لاختلاف العقائد بينهم.
>
> (٢٤ أيار/مايو ١٩٠٠م)".[٢٧]

وورد في وثيقة أخرى قرار مُرسل من المركز إلى والي صيدا يحثّه على حسن مُعاملة السامريين في بريّة الشام ونابلُس على الشكل التالي:

---

(٢٦) BOA. DH. MKT, ٢١١٦/١٠٣

(٢٧) BOA. DH. MKT, ٢١١٦/١٠٣

"في الوقت الذي ينبغي فيه مُعاملة أفراد الطائفة السامرية التي تقطن برية الشام ونابلُس مثلهم في هذا مثل باقي رعايا الدَّوْلة العثمانيّة الآخرين؛ فقد نُقِل أنهم لا يعاملون مُعاملة لائقة من جانب موظفي الدَّوْلة المحليّين.

ينبغي عمل اللازم في هذا الخصوص؛ لأن مثل هذا الأمر لا يُرضي سلطاننا الذي لا تنقطع رحمته وفضله وإحسانه عن كل رعاياه، أطال الحقّ جلّ وعلا عُمَره ومدّ جاهه وسلطانه! سلطاننا وولي نعمتنا وسيدنا".[٢٨]

وجاء في وثيقة أخرى:

"كذلك إعلان مُفتش حفظ الصحة في الشام أنه سيُرسل طبيبين وعاملي نظافة لاتخاذ كل ما يلزم في أمور النظافة والصحة بسبب اقتراب عيد الفِصْح الذي سيتوافد الناس من أجله على القُدْس الشريف بكثرة.

(آذار/مارس عام ١٩٠٣م.) ".[٢٩]

وأوضحت وثيقة أخرى أن طقوس أعياد الميلاد التي أُقيمت في بيت لَحْم قد جرَتْ في جوّ من الطمأنينة، فقالت:

"أقام اللاتينيون بفضل سلطاننا طقوس أعياد الميلاد في كنيسة بيت لَحْم يوم الحادي عشر وحتى صباح ليلة الثاني عشر من شهر كانون الأول/ديسمبر في جوّ من الطمأنينة، وقد توجّه الحاضرون بالدعاء والشكر لسلطاننا.

(٢٧ كانون الأول/ديسمبر، عام ١٩٠٤م) ".[٣٠]

(٢٨) BOA. DH. MKT, ٩٧/٤٨

(٢٩) BOA, A, MKT, MHM, ٥٨٤/١٧

(٣٠) BOA. DH. MKT, ٩١٨/٧٥

ولكن روح الانتقام في العقلية الصليبية عكّرت صَفْو الطمأنينة والأمن الـذي حافظت الدَّوْلـة العثمانيّة عليه عدة عصور، ودُمّـر في أثناء الحرب العالميـة الأولـى للأسـف الميـراث التاريخي المُشـترك بيـن الأديان بعد أن حمته الدَّوْلة العثمانيّة بكل دقة وعناية، ورَغْم أن ثماني طائرات حربية للعدو قد أطلقت أكثر من عشـرين قذيفـة على مقرّ قيادة الجيش، وأحيانًا على الأماكن التي فيها مُؤسسات دينية، إلا أنها لم تُحدث خسائر جسمية، لكن هذا الأمر جعل المُنتسبين إلى الأديان كافة يشعرون بحُزْن عميق:

"أحيط علم سيادتكم بأن الأهالي قد اشمأزّوا من هذا التجاوز الـذي يُناقـض اهتمام الحكومـة في المحافظـة علـى دُوْر العبادة الخاصة بالمذاهب المختلفة، والمحافظة على المؤسسات الدينية.

(٢٦ حزيران/يونيو ١٩١٧م) الحاكم/المتصرف عزت".[٣١]

لقـد بُنيـتْ الأرضية المناسـبة -سـواء فـي عَهْـد السـلاجقَة أو الدَّوْلة العثمانيّـة- لحريـة العقيـدة والاعتـراف بـكل الحقـوق الثقافيـة والدينيـة الضروريـة؛ ليعيـش النـاس فـي هـذا الوقـت حيـاة إنسـانية دون التقيـد بـأيّ تصنيـف، ويُمكن إدراك هذا الأمر من ملابـس الناس وتنوع المعمار فـي البنـاء؛ فإضافة إلى قلاع الناقوس المُمَيّزة لموسـكو التي تأخذ شـكل القُبّـة والمئذنـة والبصلة، نجد أن الملابس الدينية قد تجاورت مـع بعضها فـي الشـوارع، فـلا مـكان سـوى القُدْس يمكـن أن نـرى فيه شـيئًا كهذا، "الدومينيكان" بلباسـهم الفاتح اللون، والمنتسبون لطريقة "الفرانسيسكان" بردائهـم بُنيّ اللـون، و"الأثيوبيون" و"الرومان" بلباسـهم الداكن، والعلماء اليهـود المتدينـون والحاخامـات بردائهـم وعمامتهـم الملونـة، واليهـود الشـرقيّون بدُرَّاعاتهم اللامعة، والأشـكيناز بالمِعْطف والسـروال الأسـود والقبعة ذات الفِرَاء.[٣٢]

---

(٣١) BOA. DH. EUM,٤. Şb. ١١/٣٢

(٣٢) كوسه، مصدر سابق، ص ٥٨.



ملابس فِلِسْطين المحلية

ولكن ما لبث أن فسد هذا التناسب والطمأنينة في آخر حُكْم الدَّوْلة العثمانيّة؛ بسبب محاولة الدُّوَل الكُبرى -التي تمثّل المذاهب المسيحية الأربعة- التدخُّل في شؤون الدَّوْلة العثمانيّة تحت زَعْم ترميم كنيسة القيامة أو حماية أصحاب مذاهبها، ومما قاله السلطان عبد الحميد للصدر الأعظم سعيد باشا في ذلك الخصوص ما يلي:

"قال: لا تقلق يا باشا! لن يدخلوا في صدام فِعلي معنا بسبب كنيسة القيامة أو أي موضوع آخر يتعلق بالمسيحية؛ لأننا نقوم بدور الحارس المُحايد في كنيسة القيامة، فمن أين لهم أن يجدوا مُحافظًا مثلنا؟! الغرم علينا والغنم لهم! كن على ثقة من أننا لو انسحبنا من هذه الساحات فستتحول إلى ساحة للفوضى والاضطراب أبد الدهر، لا تقلق! إنهم يُثيرون ضَجّة ليحصُلوا على أكبر منفعة؛ فالمعركة الحقيقية هي بينهم هم".[٣٣]

(٣٣) جمال قوتاي، التاريخ يتحدّث، ج. ٧، العدد ٣٥، كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦م، ص ٢٩١٢-٢٩١٧.

٤- العُرْبان باعتبارهم عنصراً اجتماعيًّا

أ- ثقافة العُرْبان والحُكْم العثمانيّ

فـي التاريخ الإسـلاميّ قبائل عُرفت بالعُرْبـان، واتخذت من الصحراء موطنًـا لهـا عـدّة عصور، واحتفظـت بعـادات المجتمـع الجاهلـي ونمَط معيشته؛ فقد كانوا يحملون على إبلهم آلات بسيطة تلزمهم في الصحراء، ويجولـون بيـن الواحـات بحثًا عن المـاء ومعهم الحيوانات من الماشـية والماعـز، وكمـا عُرف عن بعض هـذه القبائل أدبهـم وصدقهم المتناهي، فقـد كان منهـم مَـنْ يرتكبون أنواع الجرائـم بما فيها الإغـارة على القبيلة التي يُناصبونها العِداء، والسرقة والنَّهب.

كان البـدو لا يضربـون خِيامهـم فـي أيّ مـكان لانعدام الأمن بشـكل كامـل، وعاشـوا في خيامهم حيـاة الرحالة يُغيِّرون أماكنهـم كلما اقتضت الضرورة ذلك بحثًا عن الماء والطعام لقُطْعانهم.

عاشـت هـذه القبائل فـي بلدة العريش على سـاحل البحر المتوسـط، وفي منطقة "قلاة" النحل الواقعة على الطريق بين مصر وفِلِسْطين، وانتشر عـدد كبير من عشـائر العُرْبان حول صولطا ومعـان وبلقا والقُدْس وصولًا إلى حدود مصر، وتُرشـدنا بعض وثائق الأرشـيف إلـى معلومات مُفصَّلة عـن أعداد البدو ومقدار قوتهم المُسـلحة؛ فقـد بلغت أعدادهم في بعض الوثائـق ٥٩٨٦٠ يسـكنون ٢٠٥٨٥ دارًا، وبلـغ عـدد فرسـانهم ٤٦٠٢ والمشاة ٧٦٥٠.[٣٤]

(٣٤) BOA. Y. A. RES. ٢٤/٣٨

استمرّ جزء من القبائل البدوية على عاداتهم التي دأبوا عليها مثل الإغارة على القُرى والقيام بأعمال السَّلْب والنَّهْب، رَغْم دخول فِلِسْطين تحت حكم الدَّوْلة العثمانيّة، بينما التحق قسم آخر بالقوات المُسلحة التابعة للحُكّام المحليّين وأصبحوا من جنودهم، حتى إن مُقاطعة لجُون قد تُركت أمانة لعائلة طورباي، وفي عام ١٥٨٤م تمّ توسيع الأراضي التي مُنِحت للشيخ البدوي أبي أويس مُقابل حمايته الطريق الساحليّ المُؤدّي إلى رأس العين، حتى أصبحت على شكل تِيمار يبلغ إيراده السنويّ ٢٠٠٠٠ أقجة، وكما هو معروف كانت إدارة الولاية تستفيد من البدو للحفاظ على الطريق المُؤدي إلى الحجّ، وقد كان للبدو مع خِدْماتهم إسهامات اقتصادية أخرى، مثل تربية الخيول والأبقار والماشية، وتوفير الإبل للنقل.[٣٥]



إبل النقل

[(١٩١٥) Kong. Ktp. Lc-DIG- ppmsca- ١٣٧٠٩- ٠٠٠١٤]

(٣٥) درور زيعوي، **القُدس**، ص ١٠٨، ١١٢، ١١٨.

تحـوّل البدو الذين عُرِفوا بالعُرْبان المُسـلحين إلـى عنصر هدّد الأمن والطمانينـة فـي الوقـت الـذي ضَعُفت فيـه الدَّوْلـة العثمانيّـة، وبلغت فيه الأزمـات الاقتصادية في كل مكان حدًّا لا يُطاق، وتذكر وثائق الأرشـيف المعـارك التـي جـرَت مـع العُرْبـان؛ فعلى سـبيل المثال طُلِبَ فـي القرار المُرسل إلى أمير أمراء الشام ما يلي:

"يُقْبـض على "بركات" والأشـخاص الآخرين ممن ثبَت أنهم دبّروا معه إثارة الفتنة، ويُقتصّ منهم؛ نظرًا للنزاع الدائر بين قبيلتي قيسـي ويُمنى منذ القِدَم، وهم مـن أهالي خليل الرحمن، حتى إن النـاس لـم يسـتطعوا أداء صلاة الجمعـة من الخـوف، وقد أعلن أهـل المنطقة عن نيتهم ترك أوطانهم إذا لم يُقْضَ على الشـخص المسؤول عن تلك الفتنة، وهو "بركات" الذي سبَق ذِكْره".(٣٦)

لـم تكتـفِ الإدارة المركزيـة بإصـدار قرار لأمـراء المُقاطعـة في هذا الشأن، بل قدمت الدَّعْم للحُكّام المحليّين وكافأتهم على نجاحهم، وعلى سبيل المثال حدَثتْ مشكلات كبيرة في عام ١٦٠٥م، ونجح أمراء مناطق لجُون والصفَد وعجلون في السـيطرة على قُطّاع الطريق الذين كانوا سـببًا فـي نشـوب تلـك الأحـداث؛ فنـال أمـراء هـذه المنطقـة رضا السـلطان وإحسـانه،(٣٧) وجـاء فـي وثيقـة أخرى قيام مناوشـات كبيرة بيـن العُرْبان والقَرَوِيّيـن عـام ١٨٥٩م، وأن حاكم القُدْس ثريّا باشـا بـذل جُهْده لتهدئة الأمور، وعاش الأهالي في طُمَأْنينة وأمان؛ فنال ثريا باشـا رضا السـلطان وإحسانه أيضًا.(٣٨)

كان طريـق الحـج يمرّ من منطقـة قبائل العُرْبان في أراضي فِلِسْـطين، وهذا يُمثل مصدرًا للرزق عندهم؛ فكانوا يُحصِّلون من الدَّوْلة خراجًا سنويًّا

(٣٦) - BOA دفاتر المُهمات ٥: ٢٤٨.
(٣٧) BOA. A. DVN. MHM. ٧٥/٥٤٨
(٣٨) BOA. I. DH. ٤٤٢/٢٩١٧٤

باسم "صُرَّة العُرْبان"؛ لئلا تتعرّض قوافل الحجّ للهجوم، وإن تخلّفت الدَّوْلة عن دَفْع صُرَّة العُرْبان أو رأى العُرْبان ما دفعته غير كافٍ، قام قُطَّاع الطُّرُق منهم بهجوم دمويّ على قوافل الحجّ، وقتلوا الحجيج، وسلَبوا ما معهم من أموال وأغراض، وبعد انتهاء موسم الحجّ كانوا يقضون أوقاتهم في الإغارة على أعدائهم، ويُطلقون على الإغارة اسم الغزوة، وكانوا ينظرون إلى هذه الهجَمات على أنها مصدر شرَف وعِزّة لرجال القبيلة.

لقد أرهق العُرْبانُ الدَّوْلة العثمانيّة كثيرًا من ناحية الأمن والنظام العام؛ لهذا قامت الدَّوْلة في الأوقات التي يختلّ فيها الأمن العام بإنشاء مخافر للشرطة، وعلى سبيل المثال جاء في وثيقة بتاريخ ١٥ آذار/مارس١٩٠٦م أن قبيلة رميلان قد تعرّضت لسرية عسكرية أُرسلت لاستطلاع أراضي الرفاه وأم الكلاب وجيسي، وهي من أراضي السلطان في منطقة القُدْس، وأسفر هذا البحث عن ردّ أبناء هذه القبيلة -وتتكون من مائتين وخمسين خيمة وقد تعدَّوْا على حدود الأراضي- إلى أماكنهم القديمة، ومع ذلك طلَب حاكم القُدْس إنشاء مخافر الشرطة والسجون وزيادة أعداد الجنود؛ لازدياد شغب قطاع الطُّرُق.(٣٩)

قام رجال الإدارة في الدَّوْلة العثمانيّة باتخاذ تدابير خاصة من الناحيتين الاجتماعية والإدارية في موضوع العُرْبان، فقاموا بحلّ النِّزاعات التي نشبَت بين العُرْبان في منطقة القُدْس عمومًا بواسطة من يرتضونه حكَمًا بينهم أو عن طريق التصالح، دون أن يذهبوا بشكواهم إلى المحاكم.(٤٠)

ومن أهمّ الخِدْمات التي بذلَتْها الحكومة العثمانيّة من أجل العُرْبان في فِلِسْطين جهودها في تحقيق تقدُّمهم من الناحية التعليمية والاقتصادية والاجتماعية، ومنحت العُرْبان الأراضي حتى يتحوّلوا لحياة الاستقرار بديلًا من التِّرْحال، وبذلت الجهود لنهوضهم بالزراعة وتربية الحيوان.

---

(٣٩) BOA. I. HUS ١٣٩- ١٣٢٤ M/٥٤

(٤٠) BOA. HR. SYS. ٤١/٣

وبناءً على رغبة السلطان أرسلت الحكومة العثمانيّة عام ١٨٩١م خمسة من كبار المسؤولين في الدَّوْلة إلى غزة مع موظف دائرة تسجيل الأراضي؛ لتعيين حدود أراضي كل قبيلة من القبائل وتحريرها في عقود ملكية، وإذا ما وافقت الهيئة العسكرية هنالك تُقسَّم خمسة ملايين دونُم من الأراضي التي تتجاوز مساحتها عشرة ملايين دونُم بين المالك أو المتصرف الأول والعُرْبان وتُحرّر في عقود أو صكوك ملكية، (٤١) ومن الجهود التي بذَلتها الدَّوْلة العثمانيّة لتحويل العُرْبان من حياة التّرْحال إلى الاستقرار أنها منعت دخولهم تحت سيطرة الإنجليز وتأثيرهم.

والجهود التي بُذلت من أجل تطوير الزراعة وتربية الحيوانات هي من أهمّ الخدمات التي قدمتها الدَّوْلة العثمانيّة من أجل العُرْبان، بل من أجل الشعب بأكمله في فِلِسْطين في ظلّ الأزمة الاقتصادية.

على سبيل المثال كانت الدَّوْلة العثمانيّة تُشجّع على تربية الخيول؛ وذلك بتنظيم سباق للخيل في موسمي الربيع والخريف بين العُرْبان رغبةً منها في تحسين الخيول العربية وزيادة أعدادها.(٤٢)

وكان الأهالي يُعانون من أجل محاصيلهم في أوقات الجفاف في القُدْس وما حولها، وقد شجّعت الدَّوْلة العثمانيّة على زراعة البطاطا؛ لأنها من المحاصيل التي لا تتأثّر كثيرًا بالجفاف وهجوم الجراد، وقامت بإعفاء هذا المحصول من العشور مدة خمس سنوات.(٤٣)

لقد حقّقت الدَّوْلة العثمانيّة كثيرًا من الدَّعْم الاقتصاديّ والاجتماعيّ، مثل تحويل العُرْبان في منطقة فِلِسْطين من حياة الترحال إلى الاستقرار، وتوزيع الأراضي عليهم لتحسين وَضْعهم المالي، بيد أن طائفة العُرْبان

(٤١) BOA. I. MMS, ١٢٢/٥٢٢٩

(٤٢) BOA. DH. MKT, ١٠٣٠/٣٣

(٤٣) BOA. DH. MKT, ٢٠٧/١

كانت سببًا في تكدير الدَّوْلة من الناحية الأمنية في كثير من الأوقات؛ فقد أصبح بعضٌ منهم آلةً بيد الإنجليز أثناء الحرب العالمية الأولى.

ب- الإنجليز والعُرْبان

أصبح العُرْبان بعد أن استقرّوا في وضع يُشجّع الآخرين على استخدامهم في الأحداث السياسية، وكان الإنجليز قد حسّنوا علاقاتهم نوعًا ما مع شيوخ العُرْبان في آخر عَهْد الدَّوْلة العثمانيّة، وكانت إنجلترا تُرسل وفودًا خاصة إلى المنطقة في أوقات مختلفة من كل عام؛ لبسط نفوذها على قناة السويس والمناطق المُجاورة، وتقوم بتوزيع الهدايا والهِبات على العُرْبان والأهالي والمشايخ الذين يسكنون المنطقة لكسب وُدّهم،(٤٤) وكان العُمَلاء من العسكريّين الذين قدموا إلى المنطقة بصفة وفد علميّ يقومون بأبحاث خاصة عن الآثار، ويُخرجون خرائط صحراء سيناء ومنطقة فِلِسْطين، ويُغدقون الأموال على القبائل، كما كانوا يخصّصون راتب تقاعُد لمشايخ البدو، وبهذا الشكل كانوا يُسيطرون على شيوخ البدو.

كان السبب في محاولات توطين العُرْبان هو دخولهم تحت سيطرة الإنجليز، وكانت الإدارة في آخر عَهْد الدَّوْلة العثمانيّة قد أوشكت أن تؤول لرُؤَساء القبائل في المناطق الممتدة من العريش، وتُمثّل بداية حدود ساحل البحر المتوسط من مصر، وصولًا إلى ساحل البحر الأحمر وحدود مدينتي نابلُس وصالط؛ والسبب في ذلك هو أن الدَّوْلة العثمانيّة لم تُعيّن شخصًا من جانبها في تلك المناطق، وتزايدت أهمية وضع هذه الأماكن تحت سيطرتهم بعدما تباحث الأجانب مع العُرْبان على مسألة الحدود المصرية.(٤٥)

---

(٤٤) BOA. Y. PRK. UM, ٢٣/٦٦

(٤٥) BOA. Y. a. RES, ٢٤/٣٨

اتخذت الدَّوْلة تدابير سريعة في مُواجهة التحرُّكات الإنجليزية، وحقّقت بعض النجاح كذلك، وفي عام ١٨٨٣م التقى الإنجليزيّ "لارينس أوليفنت (*Larence Oliphant*) " برئيسٍ بدويّ عند زيارته للمنطقة، وأخبر الرئيس البدوي أولبفنت "أنهم فعلوا كل شيء طلب منهم من قبل، وبإمكانهم إدارة جماعة مُكوّنة من ٣٠٠٠- ٤٠٠٠ شخص، لكنهم رَغْم هذا يتعرّضون للضغوط، وأصبحوا مُضطرين إلى الانصياع لتعليمات أصغر مُوظفي الدَّوْلة"، لكن أجمع الرحّالة الذين جالوا المنطقة على أن تهديد البدو ضعُف ما بين عامي ١٨٧٢ و١٨٩٠م تدريجيًا، وأن الدَّوْلة العثمانيّة أصبحت أكثر قوة، واستطاعت أن تُسيطر على البَدْو المُعتدين، وأن تُحصّل الضرائب من أكثر العشائر عِصيانًا، ووجدت هذه العشائر نفسها مُضْطرة إلى الاستسلام للدولة، ولاحظ "أوسيس خان (*Usis Khaine*) " عام ١٨٩١م أن الطريق إلى القُدْس لم يَعُد يحتاج إلى من يقوم فيه على حفظ الأمن، وأن هذه الطُّرُق لم تَعُد خطيرة حتى في ساعات الليل المُتأخّرة كما كان من قبل، وتمّ مُعالجة تدنّي وَضْع الأمن الاجتماعيّ تدريجيًّا اعتبارًا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتحقّق الأمن في فِلِسْطين.(٤٦)

ورَغْم كل هذا استمرّ الإنجليز في تطوير علاقاتهم مع العُرْبان كلما سنَحت لهم فُرْصة، وفي الوقت الذي كانوا يُطوّرون فيه علاقاتهم مع قبائل العُرْبان قبل الحرب العالمية، كانوا يبحثون كذلك عن سُبُل للتعاون مع الشريف حسين الذي خضع للإقامة الجبرية في عاصمة الدَّوْلة العثمانيّة، كانت سياسة الإنجليز ترمي إلى انتزاع الخلافة من السلالة العثمانيّة، وتتحيّن الفُرَص كي تمنحها لعائلة تخضع لسياستها في شِبْه الجزيرة العربية ومصر، ولمّا أقنع الإنجليز الشريف حسين بأنهم

(٤٦) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٨٩.

سيجعلونه مَلِكًا على العرب، ونجحت سياستهم معه ومع قبائل العُرْبان الذين تُرِكوا في ظلمات التاريخ، عندئذٍ ظهر مشروع "العِصيان العربيّ".

كان الإنجليز سببًا رئيسيًّا في قيام الحرب العالمية، وظلّوا قبل الحرب وبعدها يُدافعون بقوة عن هذا المشروع، وظلّوا يخدعون البدو قبل الحرب بأنهم سيُخرجونهم لملاقاة الجيش العثمانيّ، وأن الخلافة ستؤول للعرب؛ فكان من مصلحتهم أن يُظهر العرب العِصيان حتى يُغذّوا فكرة الانفصال بين المسلمين، وإذا ما أُضيف إلى ذلك الفكر التركيّ الحديث، فلا بُدّ أن يُصبح العرب من العُصاة قطعًا، وما حدث هو أن الأحداث التاريخية لم تؤيد هذه الادعاءات لعدم مِصداقيتها؛[٤٧]

"لأن التاريخ لم يُسجّل يومًا ما عداوة أو حربًا بين العرب والترك، بل على العكس من ذلك كانوا يُقاتلون معًا ضدّ العدوّ الخارجيّ"[٤٨].

(٤٧) رمضان بالجي، فِلِسطين: الجبهة التي هدمت الدّوْلة العثمانيّة، نشر نيل، إسطنبول، ٢٠٠٦م، ص ٧٢-٧٥.

(٤٨) كمال قاربات، نظرة عامة على العلاقات العربية-التركية: ماضيا، وحاضرا، ومستقبلا، بحوث المؤتمر العالمي الأول، ١٨-٢٢ تموز/يوليو ١٩٧٩م، جامعة حاجت تبه، أنقرة.

الفصل الثاني

الأماكن المُقَدسة والتاريخية في القُدْس وإدارتها

١- الأماكن المقدسة والتاريخية في فِلِسْطين

تضمّ منطقة فِلِسْطين أهمّ الأماكن التاريخية والمقدسة، مثل مِحْراب سيدنا زكريا عليه السلام، ومَعْبد سيدنا سليمان عليه السلام، ومولد فيه سيدنا عيسى عليه السلام، والمكان الذي رُفِع منه إلى السماء، وقُبّة الصخرة، وتضمّ كذلك الميراث المشترك بين الأديان، وأهمّ آثار تاريخ الإنسانية والحضارة؛ وكثير من الأماكن المُقَدسة عند المسيحيين واليهود في القُدْس هي أماكن مُقَدسة عند المسلمين أيضًا؛ لأن آثار الأنبياء السابقين مُقَدسة لدى المسلمين كذلك، وفيما يلي عرض لأهمّ الأماكن في القُدْس عند المسلمين:

١- المسجد الأقصى أو بيت المقدس

المسجد الأقصى هو المسجد الذي ورد ذكره في القرآن الكريم (سُورَةُ الإِسْرَاءِ : ١/١٧)، وقد بُني في مكان مَعْبد سيدنا سليمان عليه السلام القديم، وقد أمر سيدنا عُمَر رضي الله عنه بمجرد تسلُّمه مفاتح القُدْس بتنظيف المسجد الأقصى (مَعْبد سليمان) الذي ظلّ تحت الأنقاض طِيْلة العَهْد المسيحيّ، وشاركهم بنفسه في هذا الأمر أيضًا، وصلى بالناس جماعة على أرض مُستوية جنوب الصحراء، ثم أمر أن يُقام فيها مسجد، وقد أنبأنا رسول الله ﷺ أن المسجد الأقصى أحد ثلاثة مساجد تُشدّ إليها الرِّحال (والآخران هما المسجد الحرام والمسجد النبوي) من أجل التعبُّد والزيارة، وأن الصلاة في هذه المساجد تفوق صلاة المرء في بيته بخمسين ألف ضِعْف،[٤٩] يُضاف إلى ذلك أن المسجد الأقصى كان أولى القِبْلتين سِتّة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وتذكر التوراة أن مَعْبد سليمان في الأقصى كان أول مَعْبد لليهود في القُدْس، لهذا يُعرف كذلك بأنه المَعْبد الأول.

---

(٤٩) - البخاري، "فضائل الصلاة في مسجدي مكة و المدينة"، ١، ١٦؛ ابن ماجة، "الإقامة"، ١٩٨.



المسجد الأقصى

(مكتبة الآثار النادرة بجامعة إسطنبول، ٩٠٤٨٢- ١٦)

ويُطلق عليه في اللغة العربية "بيت المقدس"، وكذلك يُطلق عليه في اللغة الآراميّة "*Beth makdeşa*" والعِبْرية "*Beth hamikdaş*"، وقد أُطلق هذا الاسم ليشمل المدينة كلها، وقد اشتُقّ اسم القُدْس الذي يُطلقه المسلمون على المدينة من الأصل نفسه، وهو يُعبّر في الأصل عن المَعْبد لا عن المدينة.

يتفق علماء الإسلام على أن بيت المقدس الذي أقامه سيدنا سليمان ﷺ هو نفس المكان الذي بارك الله حوله كما ورد في القرآن الكريم، ويُطلق عليه "الأقصى" في اللغة العربية لبُعْد المَعْبد عن مكة، وورد في الحديث أن هذا المكان هو ثاني مسجد بعد المسجد الحرام أُقيم للناس كي يتعبدوا الله تعالى فيه، وقد زادت قيمة المسجد الأقصى عندما أسرى الله تعالى برسوله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله يوم "الإسراء"، ومنه كان "المعراج" بعد ذلك.

وكما يُطلق المسجد الحرام اليوم على الكعبة وما حولها، يُطلق الحرم الشريف على المسجد الأقصى وما حوله أيضًا، ويُقصد به المكان المقدس الذي فيه قُبّة الصخرة، وتُحيط به أسوار يبلغ ارتفاعها في بعض الأماكن ما بين ٣٠-٤٠ مترا، ويبلغ طولها من الناحية الشمالية نحو ٣٢١ مترًا، ومن الجنوب ٢٨٣ مترًا، ومن الشرق ٤٧٤ مترًا، أما الطرف الغربيّ منه فيصل طوله إلى ٤٩٠ مترًا، كان سيدنا دواد عليه السلام هو الذي اختار مكان المسجد، وخطّط لبنائه، ولكن سيدنا داود عليه السلام أخبر ابنه سليمان عليه السلام أن الله جل جلاله قد أمره ببناء المَعْبد، ومن ثمّ سلَّم إليه كل مُستلزمات بناء المَعْبد وموادّه، وتمّ تدبير الأحجار والأخشاب الضرورية لبناء المَعْبد من جبال لبنان، واعتمد "حيرام" ملك "سور" على رجاله والعمال الذين أرسلهم سيدنا سليمان عليه السلام، وأعدَّهم للعمل فى أعمال البناء، ثم أرسلهم إلى القُدْس.[٥٠]

تعرّض بيت المقدس الغنيّ بالأشياء الثمينة بعد وفاة سيدنا سليمان عليه السلام إلى السَّلْب والنَّهْب من قِبَل المُحتلّين، وتعرَّض لأكبر عملية تخريب إبان الاحتلال الثالث له من قِبل بختنصر الثاني حاكم بابل، وساق بختنصر الذي دمَّر المدينة عددًا كبيرًا من أهل القُدْس إلى بابل مع ما جمعه من المدينة من غنائم، بالإضافة إلى الحِلَى الذهبية التي انتزعها من أبواب المَعْبد وحوائطه بعد أن تهدّم.

أما حائط المَبْكى الذي يقصده اليهود ظنًّا منهم أنه جزء من مَعْبد سليمان في وقتنا الحاضر، فهو من بقايا الجزء الغربيّ من السُّوْر المحيط بهذا المَعْبد، وفي هذا البناء الحُجُرات التي كان سيدنا زكريا عليه السلام والسيدة مريم عليها السلام يتعبّدان فيها كما ورد في القرآن الكريم.[٥١]

(٥٠) نبي بوزقورت، "المسجد الأقصى"، موسوعة وزارة الشؤون الدينية الإسلامية، ج ٢٩، نشر وَقْف الشؤون الدينية، ص ٢٦٨-٢٧١.

(٥١) بوزقورت، مصدر سابق.

٢- حرم المسجد الأقصى:

ويُقصد به المنطقة والمباني بين قُبّة الصخرة والمسجد الأقصى.

٣- قُبّة الصخرة:

هي القُبّة التي بُنِيت فوق حجَر يُقال له صَخْرة الله أو حجَر الصخرة، وتقع بجوار المسجد الأقصى، وهي التي تحولت إلى مسجد بعد ذلك، وتحتها مغارة تحوي الأمانات المُقَدسة مثل أثَر قدَم سيدنا جبريل ورسول الله ﷺ، ورايات سيدنا رسول الله ﷺ وسيدنا عُمَر، وتُرْس حمزة، والمسامير الذهبية التي دقّها رسول الله ﷺ.

وقُبّة الصخرة مكان شُيِّد على صخرة مُقَدسة، وهي بناء ثُمانيّ الأضلاع له قُبّة في وسَطه، وكان الخليفة الأُموي عبد الملك بن مروان أولَ من أمر ببنائه، وهذا المكان من أوائل الآثار المِعْمارية الإسلامية ذات القِبَاب، وقد أُطلق على هذا المسجد جامع عُمَر؛ لأنه أُقيم في موضع المسجد الذي بناه سيدنا عُمَر، وتذكر إحدى الروايات أن الصخرة فوق المَبْنى هي قِبْلة موسى عليه السلام، وأنها المكان الذي توجّه إليه الرسول الأكرم ﷺ في صلاته حتى نزلت آيات تحويل القِبْلة (سُورَةُ البَقَرَةِ : ٢/١٤٤، ١٤٩، ١٥٠).

وورد في بعض الروايات أن عبد الملك أمر ببناء قُبّة الصخرة وزَخْرفتها بما يفوق المباني المسيحية الأُخرى مثل كنيسة القيامة في بهائها وعظمتها، ليصرفهم عن الانبهار بمبانيهم، وكان الهدف من بناء قُبّة الصخرة هو إثبات وجود الأمويين، وترسيخ الإسلام في القُدْس الذي يضمّ كثيرًا من المعالم اليهودية والمسيحية.

لقد تعرّضت قُبّة الصَّخْرة لتغييرات مُتعددة أثناء الاحتلال الصليبيّ، وتحولت إلى كنيسة عرفت بكنيسة أقدس المقدسات أو (مَعْبد الرب)، وأقام الصليبيّون مَذْبحًا فوق الصخرة، ووضعوا الأيقونات داخل المَبْنى

في المغارة أسفل الصخرة، ونصَبوا صليبًا ضَخْمًا بدلًا من العَلَم الذي كان فوق الصخرة؛ وألحقوا بالقسم الشمالي من المَبْنى غُرَفًا للوُعَّاظ المسيحيّين، لقد احترم الصليبيّون قُبّة الصخرة احترامًا شديدًا، فكانوا أحيانًا يقتطعون جزءًا منها ويُرسلونه إلى بلادهم، وقاموا بحفظها داخل كنائسهم باعتبارها أثرًا مقدسًا، وكان رجال الدين يقتطعون منها أيضًا ويبيعونها بوزنها ذهبًا، وزيَّن ملوك الصليبيّين الصخرة من الأعلى بالرُّخام لمنع هذا، ثم أتى صلاح الدين الأيوبيّ الذي فتح القُدْس فأزال كل شيء أقامه الصليبيون عدا هذا المَرْمر، والسياج الحديديّ الذي وضعوه حول الصخرة.

لقد نالت قُبّة الصخرة على امتداد تاريخها احترامًا وعنايةً كبيرةً من قِبَل حُكّام هذه المنطقة، فكانوا يأمرون بترميمها بعناية، وعلى الأخص سلاطين الأيوبيّين الذين كانوا يمسحون التراب من فوق قُبّة الصخرة بأيديهم، ويَكْنِسون المسجد ويغسلونه بماء الورد، ومن هؤلاء الملك العزيز عثمان الذي أقام سُورًا خشبيًّا حول الصخرة، وبيبرس الأول الذي قام بترميم الأجزاء المُهدَّمة عام ١٢٧٠م، وجدَّد فُسَيْفُساء السُّوْر الخارجيّ، وفي عام ١٣١٨م قام محمد بن قلاون بإعادة تزيين القُبّة من الداخل بماء الذهب والفُسَيْفُساء، وقام بطِلائها من الخارج بالرصاص، وأمر برقوق بإقامة محفَلٍ يُبهر الأعين عند الدخول من الباب الجنوبيّ، كما قام الملك الظاهر بإصدار أوامره لإصلاح القُبّة التي احترقت بعد سقوط الصاعق عليها، أما قايتباي فأمر بتزيين الأبواب باللوحات النُّحاسية المُزينة بزخارف بارزة.

خضعت قُبّة الصخرة لإصلاحات وترميمات شاملة قام بها السلطان سليمان القانونيّ في عَهْد الدَّوْلة العثمانيّة، ووُضِعت نوافذ من الجصّ على النوافذ التي استُبدل غطاؤها الفُسَيْفُسائيّ الخارجيّ بعد أن تعرّض للتخريب بالقاشاني.

وخضعت قُبّة الصخرة في العَهْد العثمانيّ لإصلاحات جِذْرية من قِبَل السلطان سليمان القانونيّ؛ إذ قام بتغيير الفُسَيْفُساء الخارجية بالقاشاني، وترميم النوافذ بالجصّ، ثم قام السلاطين مراد الثالث وعبد الحميد الاول ومراد الثاني وعبد المجيد وعبد العزيز وعبد الحميد الثاني ببعض الترميمات لقُبّة الصخرة في عَهْد كل واحد منهم، لا سيما عبد الحميد الثاني الذي أنفق أموالًا طائلة على فَرْش الأرضية بالسجاد العجَميّ القيّم من إيران، وقام بتعليق نَجَفة رائعة في وسَطه، وجدّد القاشاني القديم.(٥٢)

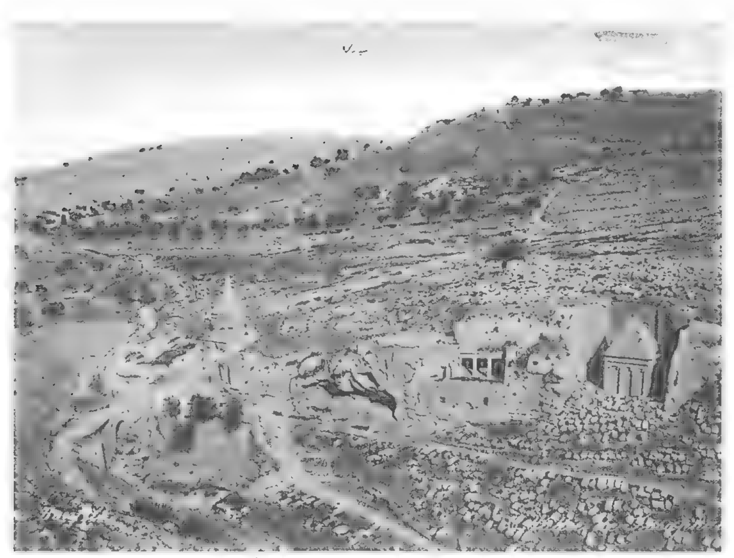
٤- المقابر:

وهي المكان الذي يُقال: إنه يضمّ مَقابر سيدنا إسحاق ﷺ، وسيدنا يعقوب ﷺ، وسيدنا يوسف ﷺ، وما يقرُب من ٢٠٠ نبيّ غيرهم.

٥- مسجد سيدنا عُمَر ﷺ:

هو المسجد الذي أَمر بإنشائه سيدنا عُمَر بن الخطاب ﷺ في الموضع الذي أقام فيه صلاة الجماعة عند تسلّمه مفاتح القُدْس.

(٥٢) بوزقورت، مصدر سابق، ص ٣٠٥-٣٠٧.



مَعْبد سيدنا زكريا عليه السلام في القُدْس



قُبّة الصخرة

(مكتبة إسطنبول، مكتبة الآثار النادرة. ٩٠٧٥٠-١)

حائط المَبْكى:

هـو أهـمّ الأماكن المُقَدسـة فـي القُدْس عنـد اليهود، وحائـط المَبْكى هو جزء من الحائط المتبقي من المَعْبد الثاني بشرق المسجد الأقصى، وهو أكثر الأماكن قدسيةً عند اليهود؛ فقد هدم الرومان مَعْبد سيدنا سليمان ﷺ في القُدْس للمرة الثانية، وكان ذلك عام ٧٠م، وقتلوا عددًا كبيرًا من اليهود في المدينة آنذاك، ونَفَوْا من تبقّى منهم، ولم ينجُ من المَعْبد سـوى حائط واحد فقط حُوِّلَ إلى حائط للمَبْكى تخليدًا لذِكْرى عملية التدمير تلك.

لقـد كُوِّنت لجنة بأمر من السـلطان بناءً على طلَبات فرنسـية، وكُلِّفت بمَهمّة تحديد المعابد والأماكن المُهمّة عند المسيحيّين، وفيما يلي عرض للأماكن المُقَدّسة عند المسيحيين كما ذكرتها الوثيقة:

١- كنيسـة قَامَامـة: يُطلـق عليها أيضًا "كنيسـة القيامة"، وهي الكنيسـة التي أمر الإمبراطور البيزنطيّ قسْطَنْطين بإقامتها عام ٣٢٦م في مكان يُدّعى أنه قبر سـيدنا عيسـى ﷺ، ويُطلق باب القَامامة على المكان الذي يحجّ إليـه المسـيحيّون واليهود، وكلمـة قَامَامة هي تعبير اسـتخدمه المُؤرّخون المسـلمون، وأُعيـد ترميـم المـكان خـلال الحمَـلات الصليبيـة مـا بيـن (١١٣٠ - ١١٤٩م)، وممـا فَهِمنـاه مـن المصـادر العثمانيّـة أن الوافديـن مـن كافـة أنحـاء العالم مـن الفرنسـيّين والإنجليـز والـروم والجورجيين والحبس وغيرهم، كانوا يأتون إلى القُدْس بسـهولة ويسـر، وكانت كنيسـة قَامامة عبارة عن مَعْبد أجمعت الطوائف المسيحية كلها على قدسيته.

٢- قُبّـة كنيسـة قَامَامة الكبيرة، والقُبّة الصغيـرة فوق ما يزعمون أنه قبر لسيدنا عيسى، وهو مكان تشترك فيه المذاهب المسيحية جميعها.

٣- الأحزمـة السـبعة الحجَريّـة، ويُطلـق عليهـا سِـتي مريـم، وهـو مكان مشترك.

٤- الأحزمة الأربعة الحجَريّة أسفل منطقة جَلجَلة؛ ونصفها للرومان والنصف الآخر للاتينيين.

٥- الساحة حول حجَر المُغتسل.

٦- قبر السيدة مريم والحديقة المحيطة بها.

٧- الكنيسة الكبيرة في قرية بيت لحم، وفيها مغارة يُدّعى أن سيدنا عيسى عليه السلام وُلِد فيها، ويُطلق عليها مغارة المَهْد، وتُجْمِع الطوائف المسيحية كلها على قدسية المفاتيح الثلاثة لأبواب هذه المغارة الشمالية والجنوبية والقبلية، وقد كانت هذه المغارة سببًا في خِلافات عميقة بين الروم واللاتينيين والأرمن، ويزور مغارة المَهْد كافة الطوائف المسيحية؛ ومن أجل هذا كانت مفاتيح الأبواب تُعطى للاتينيين أحيانًا، وللروم أحيانًا أُخرى.

٨- الحديقتان الملاصقتان لدير الإفرنج في بيت لحم.

٩- السراديب في ساحة طاحون العتيق.

١٠- المكان الذي يزعمون أنه قبر سيدنا عيسى عليه السلام.

١١- مغارة الرُعاة والأراضي المحيطة بها.



كنيسة القَامَامة و كنائس الأرثوذكس في القُدْس

١٢- حجَر المُغتسل، وهو مكان يعترف بقدسيته المسيحيّون جميعهم.

١٣- مغارة المهد، وهي المغارة التي يُدّعى أن سيدنا عيسى عليه السلام وُلد فيها، ويُطلق على الكنيسة المُقامة في هذه المغارة الكنيسة الكبيرة.

١٤- كنيسة مار يوحنا، وتقع في ساحة القَامامة، وفي الخارج كنيسة مار يعقوب، ودير الزيتون، ودير جورجو، والعديد من المعابد الأخرى المُشابهة.(٥٣)

(٥٣) رقم التسجيل بالمكتبة: ٤٢٧٠ (المزارات الخاصة بالمسيحيين في القُدْس وتحقيقات اللجان الخاصة بالمعابد).



حُـدّدت الأماكـن التاريخية في ذلك المـكان، ووُضعت في قائمة عام ١٩٠٥م؛ حتى لا تكون الأراضي التي اشتراها الأجانب للبناء فوقها قريبة مـن المسـاجد والجوامـع والمقابر والآثـار الخيرية والقـلاع، وفيما يلي عرض للأماكن الدينية والأماكن التاريخية في هذه القائمة:

الأماكن الدينية والتاريخية في القُدْس الشريف:

١- الحرم القُدْسي الشريف، ويُقصد به المسجد الأقصى.

٢- زاوية بني داود والمقام الشريف.

٣- مقام سيدنا العُزَير عليه السلام في قرية العزيزية.

٤- زاوية ومقام الشيخ محمد العلَمي في الطور.

٥- قبر رابعة العدوية في الطور.

٦- قبر سلمان الفارسيّ في الطور.

٧- مقابر الأدهمية والساحرة.

٨- جهة البراق في الحرم الشريف في حيّ منارية.

٩- قبر سيدنا عُكّاشة.

١٠- مدرستا الجافالية والجثية.

١١- تَكية النقشبنديّ.

١٢- مقام بني شموئيل الشريف.

١٣- جامع وسبيل أبي مدين الغوث في عين كريم.

١٤- تَكيّة الصلاحية.

١٥- الجامع العُمَري الملاصق لكنيسة القيامة.

١٦- جامع اليعقوبية القريب من بني داود.

١٧- الجامع الملاصق للكنيسة الإنجليزية والمُواجه للقلعة.

١٨- جامع سلوان وسبيله.

١٩- جامع في قرية العيسوية.

٢٠- جامع المولوية.

٢١- المنارة الحمراء.

٢٢- جامع عُمَر في حيّ اليهود.

٢٣- قبر منسي بالقرب من بني داود.

٢٤- الجامع الشريف في قرية آرطاس وبرك السليمانية.

٢٥- الجامع الشريف في قرية الطيبة.

٢٦- الجامع الشريف في قرية "بَبره".

٢٧- الجامع الشريف في قرية بيطا.

٢٨- الجامع الشريف في قرية عبود.

الأماكن التاريخية في الضفة الغربية:

٢٩- الحرم الإبراهيميّ الشريف، وهو المكان الذي فيه قبر سيدنا ابراهيم عليه السلام وعائلته، وترقد في هذا المكان السيدة سارة زوجة سيدنا ابراهيم عليه السلام، وسيدنا إسحاق عليه السلام وزوجته، وسيدنا يعقوب عليه السلام وزوجته، ويُقدّس هذا المكان كلُّ أهل الأديان السماوية؛ ولهذا يمكن رؤية آثار كل الأديان السماوية في جوار هذا المكان.

الأماكن التاريخية في الرملة:

٣٠- جامع الأبيض ومِئْذنته.

٣١- مقام سيدنا الفضل بن العباس.

٣٢- مقام الشيخ رَسْلَان.

٣٣- مقام الشيخ رَيْحَان.

٣٤- مقام حذيفة بن اليمان.

٣٥- مقام بني رُوبيل عليه السلام ويقع بالقرب من الرملة.

٣٦- الجامع العُمَري في بيت لَحْم.

٣٧- مقام يهوذا عليه السلام في قرية اليهودية التابعة لمدينة يافا.

٣٨- مقام سيدنا هاشم في منطقة غزة.[٥٤]

لقد بذلت الدَّوْلة العثمانيّة جهودًا عظيمة لحماية الأماكن التاريخية والمحافظة عليها، وكانت تتحمل نفقات ترميم الأماكن التاريخية والعناية بها من أموال الوَقْف في ذلك المكان التاريخيّ إن وُجِد، أو من خزينة أوقاف السلطان، أو من الخزينة المالية.[٥٥]

---

(٥٤) BOA. ŞD. .٢٣٠١/١٦

(٥٥) BOA. İ. EV. ١٣٢٥. S/ ٢١

هـذه هـي الأماكـن المُهمّـة التـي اسـتطعنا أن نُحصيها فقـط، وعندما نُضيف إلى هذه الأماكن الجوامع والمسـاجد والمدارس الدينية والزوايا التي بُنيت خلال ١٤٠٠ عام، وعلى رأسها مقابر سيدنا لوط ﵇، وسيدنا إسـحاق ﵇، وسـيدنا داود ﵇، وسـيدنا إبراهيم ﵇، وسـيدنا يعقوب ﵇، وسـيدنا يوسـف ﵇، ومقـام شـموئيل، وسـيدنا سـليمان ﵇، لو أضفنا كل هذا لأدركنا تمامًا قُدسية بلدة القُدْس عالية الشأن.



مقام سيدنا داود ﵇ في القُدْس

٢- العناية بالمباني المُقَدسة والمباني التاريخية

أ- راعي دور العبادة: الأوقاف

تضم القُدْس والأماكن المحيطة بها كثيرًا من الأماكن التاريخية والمساجد والمدارس الدينية والتكايا والمقابر وغيرها، وأُقيم عددٌ كبيرٌ من الأوقاف للعناية بهذه الآثار والمحافظة عليها، وتوفير المأوى للفقراء والمُعدَمين وتيسير سُبُل المعيشة لهم، أُقيم بعض هذه الأوقاف في عصور الدُّوَل الإسلامية السابقة، فحافظت مائدة الخليل إبراهيم الشهيرة على وجودها مئات السنين في هيبرون جنوب القُدْس، ولم تمسّ الدَّوْلة العثمانيّة أيًا من أوقاف عصر المماليك، بل أضافت إليها أوقافًا جديدة ؛ فخُصّصَ لوارد الأوقاف في القُدْس جزء كبير من الأراضي الزراعية يبلغ ٦٠٪ من مساحتها.(٥٦)

يحكي أوليا جلبي الذي زار المدينة في القرن السابع عشر عن وجود سبعمائة وَقْف في القُدْس، وأن أُمناء هذه الأوقاف كانوا على أهبة الاستعداد في دواوين المحاكم، وكان وقف السلطان حاسكي من أكبر الأوقاف التي أَقامها العثمانيّون وأهمها، وقد أسّست هذا الوَقْف خُرَّم سلطان زوجة السلطان سليمان القانونيّ ما بين عامي ١٥٥١- ١٥٥٢م، ولم يمضِ وقت طويل حتى أصبح من أكثر المؤسّسات التي تدعم الفقراء في فِلِسْطين، والوَقْف هو مجموعة واسعة تتكوّن من جامع وخان ومدرسة دينية وإمارة، وكانت الإمارة -ولا زالت قائمة إلى الآن- غير قادرة على مُمارسة مهامّها، وكانت تُوزّع الطعام الساخن على الضيوف

(٥٦) درور زيعوي، القُدْس، ص ٣.

والصوفيّة والطلاب والفقراء الذين يتوافدون لزيارة التَكية كل يوم، وكان من مهامّ القاضي تحديد من يستحقّون الحصول على الطعام.

كان للأوقاف دور مُهمّ في اقتصاد المدينة، فهي تُوفّر وظائف لمئات الأشخاص، وكان مسؤولو الوَقْف يُشرفون على عمل الطواحين، وماكينات زيت الزيتون والسمسم، والأفران، وكان عدد كبير من النقابات يقوم ببيع معظم المحصول لهذه الأوقاف، وكان موظفو الوَقْف يشترون كميات ضَخْمة من الطعام والحطَب من القرى المُجاورة، وكانت الأموال تُدفع لبعض القَرَويّين من أجل قيامهم بجمع التبرّعات لصالح الوَقْف، وشراء البضائع، وكان القَرَويّون يُؤَمِّنون سُبُل معيشتهم عن طريق القانون أو الامتيازات، ولكن لم يحصل أحد منهم على مساعدات اجتماعية ألبتة، وقد مُنِحَ هذا الحقّ إلى سكان المدن، وبذلك قام الوَقْف بوظيفة الوسيط بين القرية والمدينة من ناحية، والحدّ الواضح بينهما من ناحية أُخرى تمامًا مثل السوق.(٥٧)

لم يكن بالأمر الهين جَمْع موارد الوَقْف الذي كانت له إسهاماته من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية في القدس، وقد جاء في مُحررات الأرشيف أمر بتحصيل الديون من أهالي صيدا والمزارعين في كل من كنيس وخاليف مُقابل الماء والزيت إلى إمارة الأوقاف التابعة لخُرّم سلطان في القُدْس الشريف، وجاء في وثيقة أُخرى رسالة كُتِبَت إلى أمير أمراء الشام، فيها أمر من الديوان بتعيين سبعة من إنكشارية الشام وعشرة من وجهاء قلعة القُدْس الشريف؛ لإجراء تفتيش وتحصيل أموال الأوقاف من عامل خواص الهُمايون مصطفى الذي استولى على تركة قرية السافرية التابعة لإمارة الأوقاف في القُدْس الشريف، وهي تتبع خُرّم سلطان.(٥٨)

---

(٥٧) كوسه، مصدر سابق، ص ٨٩.

(٥٨) BOA، دفتر المهمة ٦: ٥٣-٥٧.

وَقْف السلطان حاسكي من الأوقاف المهمة التي أدارتها الدَّوْلة العثمانيّة، مثل وَقْف الأماكن المُقَدسة التابعة لخليل الرحمن، ووَقْف النبي موسى عليه السلام بالقرب من أريحا، لقد خضعت الأوقاف المُهمة في إدارتها إلى رقابة الدَّوْلة تمامًا؛ لهذا كانت رقابة الدَّوْلة المستمرّة موضوعًا لا يقبل الجدَل دائمًا، وقد توجّه عبد القادر مبعوث السرايا عام ١٥٥٥م من إسطنبول إلى القُدْس للتفتيش والرقابة على هذا الوَقْف، وكتب التقرير التالي:

"وصلتُ إلى القُدْس الشريف في وقت الظهيرة، وتوجهتُ إلى الإمارة مباشرة، ولم يكن أحد يعلم بهذا قطعًا، فوجدتُ طعامها وخبزها مُعدًا، انتظرتُ حتى انتهيت من صلاة الظهر، وتوجّهت بعد ذلك إلى هناك، يعلم الله تعالى أنه لم ينقص ذرّة من الطعام ووزن الخبز، وقد أمرت بأن يُوزن أكثر من عشرين رغيفًا من الخبز؛ فوجدت جملتها تسعين، وبعد أن ثبت أنها مائة وفْق عَقْد الوَقْف لم يكن هناك بُدّ من توزيعها وفْق القانون؛ فوضعت في البداية أواني من جاؤوا لأجل المأكل، وبعد أن امتلأت تلاهم الموجودون في البيوت؛ ثم خدمهم، ثم أهل العلم ممن ليس لديهم سَعَة من الطعام، ثم سائر الفقراء، وأخيرًا النساء.

ولكن الفقراء في هذه الديار كثيرون يا سلطاني صاحب السعادة! فقد كان الطعام يُوزّع من المرة الأولى، وبدأ الطاهي يطهو الطعام مرتين أكثر من مرة، ولم يصل الخبز والطعام إلى هؤلاء الأشخاص، لقد شعرت بالحَيْرة من الصيحات والجلَبة التي أحدثها الأشخاص، وهم يقولون: نحن جَوْعى".[٥٩]

لقد أولت الدَّوْلة العثمانيّة -وقد حكمت القُدْس ما بين عامي ١٥١٦-١٩١٧م أي مدة ٤٠١ عام- أهمية كبيرة لهذه الأماكن، وقامت من خلال الأوقاف بحماية الآثار الموجودة وترميمها وبناء الآثار الدينية والمعمارية الجديدة على حدٍّ سواء.

(٥٩) آمي سينغر، البر في الدَّوْلة العثمانيّة، عمارة حسكي سلطان بالقُدْس، TVYY، إسطنبول، ٢٠٠٤م، ص ١١٧-١١٨.

ب- ترميم الآثار مثل الجوامع والكنائس والمدارس الدينية والأسواق والحمامات

جرَتْ عمليات الترميم والإصلاح في عصر السلطان سليمان القانونيّ بشكل مُكثّف، وشملت الأماكن التاريخية والمُقَدسة وذات الاهتمام الاجتماعي في القُدْس، واستمرّت هذه الأعمال في الفترات التالية لذلك أيضًا.

أرسل السلطان سليمان القانونيّ المعمار سِنَان إلى القُدْس، واستدعى لَالَه مصطفى من ولاية مصر، وكلَّفه بأعمال الترميم والإصلاح في القُدْس، واستقدمَ المِعْماريّين والعُمّال المهَرة والنقَّاشين من مصر والشام وحلب لترميم قُبَة الصخرة، فأُزِيل الطِّلاء الفُسَيْفُسائيّ عن الحائط الخارجيّ؛ لأنه بدا في حالة يحتاج معها إلى كثير من الإصلاح، ووُضِعَت لوحات من القاشاني بديلًا عنه، وزُيِّن السطح الخارجي للمبنى بـ ٤٥٠٠٠ لوحة من القاشاني، وأحيط هذا القاشاني بسورة يس خطَّها عليه قَرَه حصار أحمد، وخُطَّت الآية ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ (سورة يس: ٥٨/٣٦) من هذه السُّورة بخطٍّ جليّ في كل ركن من أركان المَبْنى، ووُضِعَ في الطَّرَف العُلْويّ من الكتابة فوق القاشاني مِيزاب مخلوط بالقصدير والرصاص خُصِّص من أجل جرَيان ماء المطر، وأعلى هذا الجزء حوافّ القُبّة المُغطّاة بالرصاص.

وُضِعَ المَرْمر في الجزء السُّفْلي من الجدران الخارجية بديلًا عن الفُسَيْفُساء، ورُكِّبَ الزجاج الملون على النوافذ داخل تجاويف من الجِصّ، وخُطَّت الآية الكريمة ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (سورة طه: ٧٦/٢٠) فوق الباب الشمالي لقُبّة الصخرة، وحملت توقيع عبد الله التبريزي، وخُطّت الكتابة على القاشاني ناحية قُبّة السلسلة باسم السلطان القانونيّ، وحملت

تاريخ ٩٦٩ هـ/١٥٦١م، وكان السلطان سليمان القانونيّ قد أمر قبل وفاته أن يُغطّى مِصْراعا الباب الشرقيّ والغربيّ لقُبّة الصخرة بلوحات من البرونز.

يضمّ المتحف الإنجليزيّ في لندن حاليًّا القنديل "السراج" المصنوع من القاشاني الذي أوقفه السلطان سليمان القانونيّ لقُبّة الصخرة، ويُفهم من هذا أن القنديل الذي حمَل تاريخ ٩٥٦هـ (١٥٤٩م) قد خُصّص في الإصلاحات التي أُمِرَ بتنفيذها هنا، وقد كُتِبَ عليه اسم إزنيك، وهو اسم المكان الذي صُنِعَ فيه.[٦٠]

استمرّت عمليات الإصلاح والترميم لقُبّة الصخرة في عصر السلطان العثمانيّ مراد الثالث، كما استمرّت عمليات الإصلاح من الداخل والخارج بعد ذلك بأمر من السلاطين عبد الحميد الأول عام ١٧٨٠م، ومحمود الثاني عام ١٨١٧م، وعبد المجيد عام ١٨٥٣م، وعبد العزيز عام ١٨٧٤م، وعبد الحميد الثاني عام ١٨٧٦م، وتنصّ الكتابات على أن الإصلاحات التي أمر السلطان عبد العزيز بتنفيذها كانت ما بين عامي ١٨٧٠-١٨٧٥م، وأن طُغْراء السلطان وُضِعَ بشكل منتظم على شريط الكتابة الذي يعود إلى القرن السادس عشر.

خضَع المسجد الأقصى كذلك لأعمال الإصلاح والتجديد خلال الفترة التي أمر فيها السلطان سليمان القانوني بترميم المباني في القُدْس على اختلافها، واكتست حوائط المَبْنى بلوحات من المَرْمر الملوّن المُزيَّن بأشكال هندسية مُنتظمة من الأسفل إلى الأعلى بمحاذاة النوافذ العُلْوية، وغُطّي الطرَف العُلويّ لهذا المرمر بالقاشاني أيضًا، كما زُيّن عُنق القُبّة المركزية بالقاشاني من الخارج، بَيْد أنه مع نهاية عصر الدَّوْلة العثمانيّة

(٦٠) كوسه، مصدر سابق، ص ١٢٧-١٣٠.

لم يتبقَ من القاشـاني سـوى قِطَـع قليلة العدد، وزُوِّد جزء كبير من النوافذ المصنوعة من الجِصّ بالقاشـاني وزخارف مُرصّعة بالقاشـاني، وكُسـيت العقـود الحجَريّة في الفناء الداخليّ للمبنى بالمَرْمر، ودُعّم المَبْنى لضمان سلامته بوضـع أربـع زوايا حديدية للنافذة بديلًا عن نظيرتها الخشبية.(٦١)

وفي عام ١٧٤٤ و١٨٤٢م تكرّرت الزيارة إلى المسجد الأقصى لإجراء ترميمات أخرى بعد أن حدثت تشقُّقات في بعض الأماكن بسبب الزلزال.

أُقيـم فـي عَهْـد الدَّوْلـة العثمانيّة عـددٌ كبير من المسـاجد والأسـواق داخـل الأسـوار، وتـمّ إصـلاح المبانـي القائمـة، وفيما يلي ذكـر لجانب من هذه المباني: مسجد عُمَر الصغير، ومسجد أبي بكر الصديق، ومسجد شُـوزبَجِي العثمانـيّ، ومســجد مُصعب بـن عُمير، ومســجد الروصاصي، وأسواق القطّانين والقصّابين والنحّاسين والعطّارين، وباب العمود.

أُقيم بالإضافة إلى هذا عددٌ كبيرٌ من الحمامات والسُـبُل والمُصلّيات، مثـل حمـام السـلطان، وتَكيّـة السـلطان حاسـكي، وسـبيل قاسـم باشـا وبـاب السلسـلة وطريـق الوعـد والأتـم والسـلطان سـليمان القانونـي، وكان هذا السبيل الأخير داخل المسجد الأقصى.(٦٢)

---

(٦١) كوسه، مصدر سابق، ص ١٣٠-١٣١.

(٦٢) محمد تميرجي، الآثار العثمانيّة في القُدس، مجلة "كولتور"، العدد: ١٥، إسطنبول، ٢٠٠٩م.



حمام السلطان في القُدْس

وفيما يلي عرض لبعض الأماكن الدينية والتاريخية التي أمرت الدَّوْلة العثمانيّة ببنائها أو ترميمها، سواء كانت للمسلمين أو غيرهم من غير فَرْق بينها في هذا:

- ترميم مراقد الأنبياء موسى ويونس ولوط (عليهم السلام) من موارد الوَقْف.(٦٣)
- ترميم مدرسة ديوانجي في القُدْس عام (١٨٧٤م).
- تجديد غطاء صندوق الميراث المبارك لسيدنا داود عليه السلام عام (١٨٤٦م).
- ترميم مقبرة سيدنا موسى عليه السلام عام (١٨٩١م).
- تجديد كنيسة وجامع شموئيل عليه السلام المدفون في القُدْس في عامي (١٨٨٢ و١٩٠٣م).
- بناء مدرسة الرشدية الإعدادية الأولى في القُدْس عام ١٨٦٨م، والثانية عام ١٨٨٩م.
- بناء مدرسة يهودية للإناث عام ١٨٩١م.

(٦٣) BOA، دفتر المهمة ١٢: ١١٣٣.

يُضاف إلى هذا أيضًا ترميم بعض المقامات المباركة في المدينة، وترميم مقبرة سيدنا موسى عام ١٨٥٥م، وترميم مقامات الأنبياء ما بين عامي (١٨٧٧- ١٨٩٢م).(٦٤)

فيما يلي عرض لعمليات إنشاء المباني الاجتماعية والإدارية وإصلاحها:

شُمح في عام ١٨٥٥م لـ"*Moiz Monte Fiyor*" اليهوديّ بإقامة مستشفى بجوار القُدْس، وفي عام ١٨٦٨م أُنشئت ثكنة عسكرية وقصر حكوميّ، وفي عام ١٨٧٣م أُنشئت ثكنة عسكرية أخرى، كما رُمّم المسجد داخل السجن عام ١٨٧٧م، ورُمّم القصر الحكوميّ عام ١٨٩٨م، ويقع دير "مارياكوب (*Mariakob*)" في القُدْس، ويوجد فيه بَطْرِيَرْك الأرمن والروم، وفي عام ١٨٤٩م أُنشئت مدرسة ودار للطباعة من أجل مارياكوب.

يضمّ القُدْس سفارات كثير من الدُّوَل؛ وذلك لكون القُدْس مركز تجارة من ناحية، ومدينة مُقَدسة من ناحية أخرى، ومن هنا كانت إقامة الكنائس في القُدْس من أجل المقيمين في المدينة من مواطني الدُّوَل المختلفة، ويمكن عرض هذه المباني على النحو التالي:

سُمِحَ في عام ١٨٠٣م بترميم كنيسة القيامة التي كان يُديرها الرهبان الفرنسيون، وفي عام ١٨٤٥م أُقيمت كنيسة بروتستانتية داخل مبنى القنصل الإنجليزي، وقُدّم كل ما يلزم من موافقات للسفارة الفرنسية من أجل ترميم دير وكنيسة القيامة، وطُرُق المياه الخاصة بها، وأُقيم عام ١٨٥٥م كنيس من أجل اليهود، وأُقيمت عام ١٨٥٦م كنيسة رومانية في قرية "بينَ الجاجه"، وكنيسة رومانية أُطلق عليها "مار إلياس (*Mar İlias*)" في مركز البلدة، كما أُقيمت كنيسة "أيا يورجي" في بلدة لوم، وفي عام (١٨٦٩) أُقيم دير الرهبان الفرنسيين، وجرى ترميم دير الرهبان الفرنسيين بداخل

(٦٤) بارس توغلاجي، القُدْس: المدن العثمانيّة، إسطنبول، ١٩٨٥م، ص ٣٦٨-٣٦٩.

كنيسة قامامة، وشُيّدت أيضًا كنيسة داخل دار المغتربين عام (١٨٨٥م)، وبُنيت كنيسة رومانية باسم "آيا كاتريتَ" بدلًا من الكنيسة التي تهدّمت في حيّ نارحا، وأُقيمت كنيسة الأساقفة والرهبان البروتستانت الإنجليز عام (١٨٩٤م)، وأُقيمت أيضًا عام ١٨٩٤م كنيسة في حي عاقِبة "أُسُّبَاغْ (*Üssübağ*)" (١٨٨٦م)، وشُيّدت كنيسة لاتينية في حديقة دير عامواس في قرية قوبيدة، ومنزل يُقيم فيه الرهبان البروتستانت، ومدرستان داخل المَعْبد، وأُنشئت كنيسة في قرية "عين كَرْم" عام (١٨٨٠م).(٦٥)

ج- ترميم أسوار وأبراج القُدْس

أمر السلطان سليمان القانونيّ بإعادة بناء الأسوار المحيطة بمساحة تبلغ ٨٦٨ دُنُمًا -وهي المنطقة التي يُطلق عليها "المدينة القديمة- فوق الأساسات المتبقية من العصر البِيْزَنْطيّ والصليبيّ؛ رغبةً منه في الحفاظ على الأماكن المُقَدسة، وحماية المدينة من هجَمات المُستعْمرين الأجانب ومن هجَمات البدو.

كانت الأسوار على شكل مُربع، وترتفع عن الأرض بما يُوازي ١٢ مترًا تقريبًا، وطول ٣,٢١٨ كيلومترًا، وكان لهذا البناء أربعة وثلاثون بُرْجًا، وسبعة أبواب للخروج، أُطلق على هذه الأبواب باب العمود والخليل والمغاربة والأسباط والساهرة والنبيّ داود ومريم (ﷺ).

يُعرف باب العمود كذلك باسم باب دمشق وباب النصر، وهو أشهر أبواب القُدس، وأكثر أبواب الدخول ازدحامًا، يتألف هذا الباب من مَدْخل وعِقْد حجَريّ، وكُتب بين المَدْخل والحزام الحجَريّ اسم السلطان العثمانيّ ولقَبُه وتاريخ بناء الباب، دُعّم مَدْخل الباب بالنحاس، وغُطّي بمِصْراعين صُنِعا من الشجَر، ويحتوي هذا الباب على غُرْفة للتهوية،

(٦٥) بارس توغلاجي، القُدْس، ص ٣٦٨-٣٦٩.

وتُذكِّر طريقة بنائه بالمِعْمار العسكريّ، ويُعدّ هذا الباب أثرًا فنيًّا مُهمًّا.(٦٦)

يُطلق الفرنسيّون على باب الساهرة باب "هيرودوتس (*Herodos*)" أو "ماديللين (*Madellin*)"، ويتكوّن الباب من مَدْخل وحزام حجَريّ كتب بينهما اسم السلطان ولقَبه وتاريخ بناء الباب، ويُغطّي المَدْخل مِصْراعان كبيران من الخشَب المُصفَّح بالنحاس مثل باب العامود، وفيه غُرْفة لتجديد الهواء كذلك.

يُعرف باب الخليل باسم باب "يافا" أيضًا، ويتكوّن هذا الباب من مَدْخل وحِزام حجَريّ كبير، وبينهما نَقْش حجَريّ عليه اسم السلطان العثمانيّ ولقبه وتاريخ بناء الباب، ويُشبه مصراعا هذا الباب نظيريهما في باب العامود والساهرة، وفيه غُرْفة للتهوية أيضًا.



باب الخليل أحد أبواب الحرم الشريف في القُدْس

سُمّي بابُ النبيّ داوود ﷺ بابَ صهيون أيضًا، وقد جُدّدت عمارته سنة ١٥٤١م، ويتكوّن هذا الباب من مَدْخَل كبير، وحِزام حجَريّ مُدبّب،

(٦٦) كوسه، مصدر سابق، ص ١٢٦.

وفوقه بُرْج حجَريّ صغير، وفيه نقش حجَريّ بين المَدْخل والحِزام، عليه اسم السلطان ولقبُه وسنة البناء، ويُغطّي المَدْخَل مِصْراعان من الخشب المُصفّح بالنحاس، ويُمكن الوصول إلى الأسوار من جهة اليمين بعد المَدْخَل، وتظهر صورة من العِمَارة العسكرية في هذا الباب، وله من الارتفاع ما يجعله مُهمًّا من الناحية العسكرية؛ إذ كان يُستعمل البُرْج الحجَريّ للمراقبة، كما أنه مُهِمّ من حيث مواضع رَمْي السهام وصبّ الزيت المَغْليّ على الأعداء المُهاجمين.

سُمّي باب المغاربة باب سلوان أيضًا، وأَطلق عليه الفرنسيون باب قامامة، ثم جُدّد هذا الباب عام ١٥٤٠م، ويختلف هذا الباب عن أبواب أسوار القُدْس الأخرى من ناحية الحَجْم والخصائص المِعْمارية؛ إذ هو بسيط من الناحية المِعْمارية، وحَجْمه أصغر من حَجْم الأبواب الأخرى، يشترك هذا الباب مع الأبواب الأخرى من ناحية العُمْق، ويتكون هذا الباب من مَدْخَل رُباعيّ الشكل، فوقه عتبتان، وفيه حِزام حجَريّ صغير فوق العتبة الأولى خارج السُّوْر، ويستقرّ هذا الحِزام الحجَريّ مُتوسط الحَجْم على قطعتين من حجَر مُربع الشكل، وفيه بين العتَبة والعِقْد الحجَريّ نقش كتابيّ عليه اسم السلطان ولقَبه وتاريخ الإنشاء، أما العتَبة الثانية فمساحتها أكثر طولًا وحَجْمًا من الأخرى.

يُعرَف باب الأسباط بباب القِدّيس "إسيفانوس (*Stefanos*)" أو باب "ستّي (*Sitti*)" مريم أيضًا، ويمتد من شرق الحرم الشريف إلى شماله، يتكوّن الباب من مَدْخَل كبير، وعِقْد حجَريّ مُدبّب بينهما نَقْش كتابيّ باللغة العربية عليه اسم السلطان وتاريخ ترميم الباب، ونُقش عليه في موضع آخر اسم المرحوم الحاج حسن بك الذي بذَل جُهْدًا في تشييد المَبْنى، ويُغطّي مَدْخَل الباب مِصْراعان من الخشب مُدعّمان بالبُرونز، وفي أعلى الحزام بُرْج حجَريّ صغير، ومنه كان يُصبّ الزيت المَغلِيّ وتُرمى السهام على الأعداء.

تضمُّ الأسوار عددًا من الأبراج والقِباب المُختلفة، ويَتألّف البُرْج من طابقَيْن يتصلان بمَدْخَل صغير من جهة الغرب، وللبُرْج ثلاثة حوائط يُلاصق كل مِنها أسوار القُدْس، تقعُ هذه الحوائط ناحية الشمال والجنوب والشرق، وفي البُرْج مساحات لرَمْي السهام، وفي الجدار الغربيّ منه غُرْفة صغيرة تُشبه السِرْداب، يتألف الطابق الثاني من البُرْج من ساحة مفتوحة، ويُمكن الوصولُ إليها من البُرْج الغربيّ عن طريق السلالِم، وفي هذا الجزء بُنيت ساحة واسعة لمُراقَبة جيش الأعداء الذي يُحاصِر المدينة.

يقع بُرْج "الكِبْريت" إلى جنوب الأسوار، وتظهر فيه خصائص العمَارة العسكرية، وقد كان الهدف من إنشائه حماية أسوار المدينة وتقويتها، يختلف هذا البُرْج عن غيره بامتلاكه عناصر مِعْمارية على شكل مُربّع ومُستطيل وأُسْطوانة، ويعود بناء هذا البُرْج -وفقًا لما هو مكتوب في وسَط السطح الخارجيّ له- إلى عام ١٥٤٠م، يتألف البُرْج من مَبْنى على شكل مُربع، ويمتاز هذا المَبْنى المكون من ثلاثة طوابق باتّساع غُرَفه، وفي كل غُرْفة من الغُرَف الشرقية والغربية والجنوبية نوافذ خَفيّة لرَمْي السهام لا تُرى من الخارج، ويُمكن الوصول إلى الطابقين الأول والثاني من داخل السُّوْر عن طريق مَدْخل صغير يقع ناحية الشمال، ويتألف الطابق الثالث من ساحةٍ واسعةٍ مفتوحة على شكل مُستطيل.

تُعرف قُبّة النبيّ أيضًا بمِحْراب النبيّ، ويُكوِّن المِحْراب القسم الأول من الأثَر الذي بُني ما بين عامي ١٥٣٨-١٥٣٩م، ويستقرّ داخل أعمدة القُبّة، تُوضّح الكتابة أن محمد بك الذي بنى القُبّة قد عُرِف بلقب "صاحب لواء غزّة والقُدْس الشريف"، أما جزء القُبّة الذي يتألّف منه القسم الثاني من المَبْنى فقد بُنِي عام ١٨٤٥م خلال حكم عبد المجيد الثاني، ويتكوّن من ثمانية أعمدة دائرية وحِزام حجَريّ مُدبّب يربط بينها، كُتِبَ عليه باللغتين العربية والتُّركية، وتُشير الكتابة إلى تاريخ إنشاء الأثر والخبير الذي أنشأه.

بُنيت هذه الأسـوار وما عليها من أبراج وقِباب، ورُمّمت ما بين عامي ١٥٣٦-١٥٤٠م، وكلّف هذا الأمر أموالًا كثيرة، وقد نُظِم عدد من الدعايات لتدبير المصروفات اللازمة للترميم في مناطق فِلِسْطين المُختلفة.

ومع إعادة إنشاء هذه الأسوار ظلّت مناطق المقابر اليهودية ووادي "كِدرون (*Kidron*)" وبعض الأماكن المسيحية المُقَدسة خارجَ الأسوار.

وتُشير الكتابة على باب المَدْخَل الرئيسيّ لقلعة "القُدْس" أنها قد خضَعت للترميم قبل ترميم الأسوار بعِدّة سنوات.(٦٧)

د- بناء وإصلاح طرق مياه البُرك في القُدْس

يُعدّ الجفَاف من أهمّ مُشكلات القُدْس، وكان الناس يُوفّرون احتياجاتهم من الماء من الأمطار التي تتجمّع في الوديان والبُرَك، بَيْد أن هذه المياه المُتجمّعة لم تكن تكفي حاجة الناس في فصل الصيف، ولفَتتْ مُشكلةُ المياه التي يُعانيها القُدْس بشكل مُتكرّر انتباهَ السلطان سليمان القانونيّ؛ فقام بتخصيص أموال كثيرة لإنشاء خطوط المياه -وهي القَنَوات والخزّانات والسُّبُل والحمّامات- وإصلاحها والعناية بها، وأصبحت المياه التي جلَبها لهم القانونيّ من مسافات بعيدة جدًّا نِعْمة كبيرة من أجل أهل القُدْس، وعلى سبيل المثال ورد في وثيقة مُؤرّخة بعام ١٥٦٤م قرار من الديوان يسمح بإعطاء مِقْدار من الماء بناءً على طلَبٍ من وَقْف صخرة الله الشريفة في القُدْس الشريف؛ لتدبير أمورهم مدة شهرين من مياه الآبار التي تجمع مياه الشتاء للحمّام، ويُطلق عليه حمّام سيدنا داود عليه الصلاة والسلام، والسماح بالحصول على مقدار من الماء في الشهور المتبقية من العام من مياه القُدْس الشريف.(٦٨)

---

(٦٧) كرسه، مصدر سابق، ص ١٢٦-١٣٠.

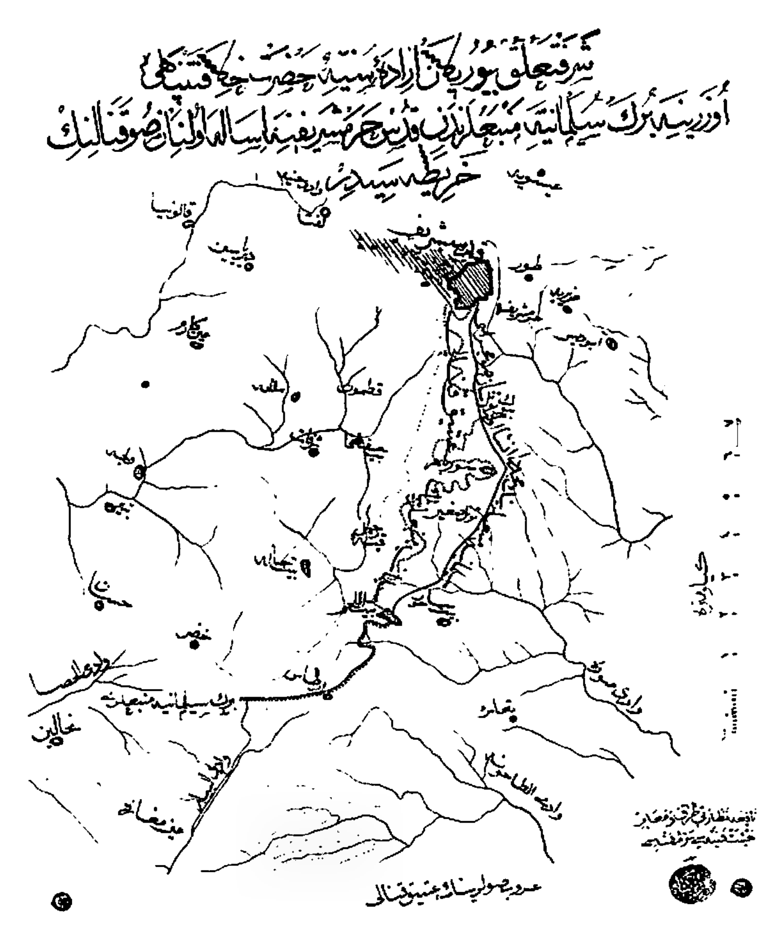
(٦٨) ، دفتر المهمة ٦: ١١٣.

وأمـا النهـر الـذي قَصَـده أوليـا جلبي فـي قوله: "السـلطان سـليمان القانونيّ أجرى نهرًا في القُدْس التي كانت تُلبي حاجاتها المائية قبل ذلك من الخزّانات"، فهو قناة مائية آتية من مسافة بعيدة جدًّا.

وفيما يلي عَرْض لبعض الإنشـاءات التي شُيّدت من أجل حلّ مُشكلة المياه في القُدْس:

- إصلاح القنوات التي تمدّ القُدْس بالمياه، وهي قناة السبيل الواقعة بين بيت لَحْم وخليل الرحمن.
- ترميم السبيل خارج باب يافا المعروف بـ"بُرْكة السبيل".
- تجديـد السـبيل المملوكـيّ من الطـرَف الداخليّ للحرم الشـريف -ويُعرف بـ"سبيل شَعْلان"- عام ١٦٢٧م.
- إصلاح قناة السبيل ما بين عامي ١٦٥٦ - ١٦٦٦م.(٦٩)

(٦٩) كوسه، مصدر سابق، ص ١٣١-١٣٢.



خريطة طرق المياة التي أقامها القانوني من أجل القُدْس/ خريطة قناة الماء التي تسيل من منبعها في "بركة السليمانية" لتصل حتى الحرم القُدْسي الشريف

(جامعة إسطنبول، مكتبة الآثار النادرة، ٩٠٥٧٥- ١٥)



البركة، أحواض المياه

(جامعة إسطنبول، مكتبة الآثار النادرة، ٩٠٥٧٦- ٢٤)

قام السلطان سليمان القانونيّ -إلى جانب المياه التي جَلبها إلى القُدْس بواسطة القنَوات- ببناء عدد كبير من أحواض المياه التي أُطلق عليها البُرَك، وخَضَعت هذه الأحواض بمرور الزمن للإصلاح والترميم.

وورد في وثيقة مُؤرّخة بعام ١٨٤٨م بيان من حاكم القُدْس مصطفى باشا، يخبر فيه أن الناس باتت تدعو للسلطان سليمان القانونيّ جعل الله الجنّة مَثواه، خلال مراسم افتتاح وتسيير المياه إلى حوض المسجد الأقصى، بعد إصلاح السلطان للمجاري والأحواض غير الصالحة التي أقامها على مسافة أربع ساعات من القُدْس الشريف.(٧٠)

(٧٠) BOA. I. DH, ١٦٨/٨٨٦٨.



ومع حلول القرن العشرين بلغ عددُ سُكان القُدْس مئات الآلاف، وازدادت حاجة المدينة الشديدة للماء مع سُرعة تزايد أعداد السُكّان والهجْرات، وفى عام ١٩٠٤م طلب حاكم القُدْس من الإدارة المركزية أن تُنقل المياه إلى القُدْس من المنبع فى "خاروب" التي تقع على مسافة ٢٤ كم منه؛ لأنّهم اضّطروا لشُرب المياه الآسنة المُتبقّية في الخزانات من فصل الشتاء، ولكَثْرة عدد الذين يزورون القُدْس، وكذا ما تتمتّع به المدينة من أهمية في نظر أوربا،(٧١) وفي عام ١٩٠٩م أصبح الموضوع مجالاً للحديث من جديد؛ فإعطاء الناس جلود وأمعاء الحيوانات المذْبوحة إلى البلديّة مَجّانًا سَيُدِرّ مبلغًا قُدِّر بمليوني فرنك ومائتي ألف، وصدر قرار مجلس الدَّوْلة إلى وزارة التجارة والإسكان كي تقوم بِتوفير المياه بناءً على أمر صادر من السلطان(٧٢) إلى المجلس، ومُحوَّل منه إلى السرايا.

(٧١) BOA. Y. MTV, ٢٦٤/ ١١٩

(٧٢) BOA. İ. DH, ١٣٢٧ .N. /١

الفصل الثالث

الاستيطان اليهودي في فِلِسْطين: أسبابه وعوامله

١- هجرة اليهود إلى فِلِسْطين

يَعود الوجود اليهوديّ في القُدْس إلى ما قبل ٣٠٠٠ عام، فقد بدأ وجودهم منذ الألف الأول قبل الميلاد، رَغْم تهجيرهم عنها ونفيهم خارج البلاد في العصرَيْن البابليّ والرومانيّ، ثم زادت أعدادهم في المنطقة مع فتح المسلمين لها في عام ٦٣٤م، ورَفْع المحاذير التي طُبِّقت عليهم من قبل.

كانت أراضي الدَّوْلة العثمانيّة ملاذًا آمنًا بالنسبة لليهود الذين عاشوا أيامًا عصيبةً في غرب أوربا، وزادت أعدادهم في الدَّوْلة العثمانيّة زيادة هائلة، واستقرّ كثير من اليهود الذين أُخرِجوا من إسبانيا في الرُبْع الأخير من القرن الخامس عشر في مدن كبيرة مثل إسطنبول وأدرنه وسالانيك، وإذا كانت أعداد اليهود الذين تعرّضوا للإبعاد من روسيا ولِتْوانيا والبُرتغال وصقلية ورودوس وإسبانيا وغيرها من وسَط أوروبا وشرقها، إذا كانت أعدادهم قليلة، فإن الذين قَدِموا منهم إلى الدَّوْلة العثمانيّة استقرّوا في أراضي البَلْقان على وجه الخصوص، واستقرّ البعض الآخر في مُدن مُهمّة من فِلِسْطين مثل القُدْس وخليل الرحمن والصفَّد وطبَرية، واستمرّت هجرة اليهود إلى الدَّوْلة العثمانيّة على فترات من الزمن، وكان هناك مُستوطِنون يهود في القُدْس والمناطق المجاورة لها عندما آلت فِلِسْطين إلى حكم الدَّوْلة العثمانيّة عام ١٥١٧م.

وما بين عامي ١٦٤٨-١٦٦٠م تعرّض اليهود في بولونيا وأوكرانيا لضغوط شديدة، فهاجر بعضهم على إِثْر ذلك إلى أراضي الدَّوْلة العثمانيّة، واستقرّ بعضهم في أحياء "بلاط (*Balat*)" و"خاصكوي (*Hasköy*)" في إسطنبول، واختلطوا مع يهود القَرَّائية[٧٣] هناك.

(٧٣) القَرَّائية: مذهب يهوديّ نشأ في بغداد في القرن الثامن وقوامه رفض التمسك بسنة التلمود. (المترجم).

هاجرت أعداد من اليهود إلى أراضي الدَّوْلة العثمانيّة لِمَا عانَوْه من صعوبات جديدة في الأماكن التي كانوا يعيشون بها؛ وذلك عندما بدأت الدَّوْلة العثمانيّة تفقِد تأثيرها في وسَط أوربا مع بدايات القرن السابع عشر، وكان لهم مَعْبد في إزمير يقصده من هاجر من أوربا في القرن السابع عشر.(٧٤)

ورَغْم هذا لا تجد الدَّوْلة العثمانيّة حتى نهايات القرن التاسع عشر مشكلة بوجود اليهود في فِلِسْطين، فقد عاش اليهود في هذه الفترة أقلية مُطمئنةً في مناطق الدَّوْلة العثمانيّة خارج أراضي فِلِسْطين حتى انهيار الدَّوْلة العثمانيّة، ولم تحدُث أيّة مُشكلة حقيقية مع اليهود الذين أصبحوا من رعايا الدَّوْلة العثمانيّة؛ وذلك لأنهم لم يُكوِّنوا أغلبية في منطقة بعينها داخل حدود الدَّوْلة العثمانيّة، كما أنهم لم يتبنَّوْا حركة انفصاليةً.

قام اليهود بأوّل هجرة عملية إلى فِلِسْطين عام ١٨٣٧م، وأقام "*Mosha Montvior*" أوّل مُستوطنة لهم في نهاية حُكْم محمد علي باشا؛ إذ أخذ اليهود بعض الامتيازات وحقّ الحماية من الدَّوْلة العثمانيّة، ووصلت أعدادهم عام ١٨٣٧م إلى ١٥٠٠ نسمة، واستمرّت في التزايد بدءًا من هذا التاريخ، فوَصل عدد الذين سكنوا فِلِسْطين إلى ١٥ ألفًا عام ١٨٦٠م و٢٢ ألفًا في عام ١٨٨١م، وكانت القُدْس أكثر المدن التي استقرّوا فيها، ويُعتبر حيّ "*Jamin Mosha*" الذي أُقيمَ خارج أسوار القُدْس عام ١٨٥٩م هو أولى محاولات اليهود للاستيطان في القُدْس.(٧٥)

تعرّض قيصر الرّوس ألكسندر الثاني للقتل نتيجة مؤامرة، وتزامن ذلك مع الفترة التي اشتدّت فيها المُعارضة اليهودية في أوربا وروسيا؛

(٧٤) علي أرسلان، الهجرة اليهودية الثانية من أوروبا إلى تركيا، دار نشر تروو، إسطنبول، ٢٠٠٦م، ص ١٨-٢١.

(٧٥) رياض ميشال، التطور السكاني في الأردن وإسرائيل منذ النشأة وحتى اليوم، وتحليله البنيوي (رسالة ماجستير)، جامعة إسطنبول، إسطنبول، ١٩٩٧م، ص ٥٩-٦٠.

فاعتبرت السلطات الروسية اليهود مسؤولين عن هذه المؤامرة، وتحوّلت سياسة الضغط التي اتبعتْها روسيا حتى ذلك الوقت مع اليهود إلى هجوم بعد وقوع هذا الحادث، فبدأ اليهود الذين لم يتحمّلوا ذلك الهجوم بهجرة جماعية تركوا فيها المدن التي كانوا يعيشون فيها من روسيا وبولونيا، فبدأت الهجرة الأُولى ما بين عامي ١٨٨١-١٨٩١، ترك خلالها ١٤٥٠٠٠ يهوديًّا روسيا، وهاجروا إلى غرب أوربا وأمريكا، ووصل إلى فِلِسْطين كذلك ما يُقارب ٣٠٠٠ يهوديّ حفّزتهم على ذلك جمعية "مُحبّي صهيون" وموّلتهم.

وفي عام ١٨٨٢م أقام المهَجَّرون اليهود أوّل مستوطنة يهودية بعد مستوطنة "مِكفيه إسرائيل (*Mikveh Israel*)" بالقرب من يافا، وأطلقوا عليها اسم "ريشون ليتسيون (*Rishon Le-Zion*)" أي الأُولى في صهيون، ولم يَلبثوا أن أعقَبوها بمستوطنات أُخرى صغيرة مثل "زيخرون يعقوب (*Zikhron Ya'akub*)" أي ذكريات يعقوب، و"روش بينا (*Rosh Pinah*)" التي تُرجمت بالمعنى حجَر الزاوية، و"تاح تِكوا (*Petah Tikva*)" وتَعني باب الأمل، وشَعر المُهجَّرون الذين سكنوا هذه المُستوطنات بالمُعاناة في تعلّم أصول الزراعة؛ لأنّهم لم يكن لأحد منهم معلومات عن منطقة فِلِسْطين التي يعيشون فيها، وفَقدوا أعدادًا منهم بسبب وباء الملاريا، وقدّم الثريّ اليهوديّ الشهير البارون "أدموند دي روتشيلد (*Edmond de Rothschild*)" يدَ العون للمُهجَّرين تخفيفًا لمُعاناتهم، وأنفق عليهم مبلغ ٥-٦ ملايين جنيهٍ إسترليني، ويأتي الثريّ اليهوديّ "البارون موريس دي هيرش (*Baron Maurice de Hirsch*)" في المرتبة الثانية بعد روتشيلد، وهما من أكثر الذين دَعمُوا الاستيطان اليهوديّ، وبذلك استطاعت المُستوطنات اليهودية أن تُلملم من أشتاتها.[٧٦]

(٧٦) بوستانجي، مصدر سابق، ص ٩٥-٩٦.

بدأ اليهود يَتوافدون على فِلِسْطين بشكل جماعيّ تزامُنًا مع نشر كُتب "تيودور هرتزل (*Theodor Herzl*)"، لا سيما كتابه "الدَّوْلة اليهودية"، وبدأت جميعات مثل "مُحبّي صهيون" و"بني موشي" و"راشيل شركة الاستيطان اليهوديّ"، تُموّل عمليات الهجرة والاستيطان، ونجحَت هذه المُؤسَسات الثلاث ما بين عامي ١٨٨٢-١٩٠٣م في إقامة ثلاث مُستوطنات جديدة هي "ريشون ليتسيون وبني موشي وزيخرون يعقوف"، وزاد تيّار الهجرة عام ١٨٦٠م ثلاثة أضعاف مُعدّله في هذه الفترة.[٧٧]

شعر اليهود الذين لَجؤوا إلى الدَّوْلة العثمانيّة تاركين بلادهم التي كانوا فيها؛ بسبب عداء أوربا وروسيا لهم، شَعروا بسعادة عظيمة إزاء تقبُّل حُكّام الدَّوْلة العثمانيّة لهم من الناحية الإنسانية، والإحسان إليهم، وفي عام ١٨٩٢م تقدّم "موشي ليفي (*Moşe Levi*)" أفندي رئيس الحاخامية في إسطنبول بشكر إلى السلطان عبد الحميد الثاني، عبّر فيه عن أحاسيس اليهود، وتضمّن خطاب الشُكر هذا أبيات الشعر التالية:

"أطال الله عمرك وأبقاك أيها السلطان

فظلال كرمك لكل المتزينين أمان

وبلطفك سَعِد اليهود في كل مكان

وأصدقاؤك يذكرون أعمالك في كل أوان

فأنت نعمة الدنيا، وأنت السلطان عالي الشان."[٧٨]

لكن يبدو أن حسن النية لم يأت بثمار طيبة، فلم يحلّ عام ١٨٩٢م إلا وأُقيمت ١٦ مُستوطنة في فِلِسْطين؛ فبدأت الدَّوْلة العثمانيّة باتخاذ تدابير مُشدّدة في موضوع استيطانهم في فِلِسْطين، وأخذت في توطين الأثرياء والمهاجرين منهم والذين يُساعدونهم في الهجرة والمنظمات اليهودية

(٧٧) رياض ميشال، مصدر سابق، ص ٦٠-٦٢.

(٧٨) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٧٢-٧٣.

في بيروت وسوريا خارج فِلِسْطين؛ لأنّه لم يكن ثَمّة عوائق حقيقية أمام شراء الأراضي خارجها، وسمَحت لهم وزارة الداخليّة بشراء الأراضي خارجها بشروط معلومة في آب/أغسطس عام ١٨٩٣م، ولم يُضيِّع المهجَّرون اليهود هذه الفُرْصة وبدؤوا بشراء الأراضي من بيروت وسوريا للاستقرار فيها، وقد بلغت الأراضي التي اشتراها اليهود حدًّا أزعج الحُكّام المحليّين؛ فقد اشتروا في شهور آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر من عام ١٨٩٣م في منطقة "كَفْر (*Kafr*)" وحدها من بيروت ١٨,٣٢٩ دُونُمًا من الأراضي، و١٤١٠ دُنُمًا من الأراضي الصالحة للبناء، و١١٩ منزلًا وحظيرة... إلخ[٧٩]

استمرّت الهجرات اليهودية تتوافد إلى فِلِسْطين وسوريا وبيروت، وساعدتها على ذلك المُنظمات الصهيونية والدُّوَل الأوروبية، لكنها توقّفت تمامًا مع بداية الحرب العالمية الأُولى، وأُعيد بعض المهجَّرين اليهود مرّة أُخرى؛ لأنّهم من رَعايا الدُّوَل التي تُحارب الدَّوْلة العثمانيّة.

---

(٧٩) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٩٦-٩٧.

٢- بيع الأراضي لليهود وإقامة المستوطنات

لـم يتضمّن قانـون الأراضي في الدّولـة العثمانيّة مـع بداية الهجرات اليهودية المُؤرَّخ عام ١٨٦٧م أيّ بنود من شأنها مَنْع شراء اليهود للأراضي في فِلِسْطين وتملُّكها، كان اليهود يُراجعون قُنصليات الدُّوَل الغربية استنادًا إلـى هـذا القانون، ويقومـون تحت رعايتها بشـراء الأراضـي منها بأموال تزيد عن قيمة نظيرتها في منطقة فِلِسْـطين، تحرّك اليهود لبناء دولة يهودية في فِلِسْـطين، ومن خلال الزراعـة والصناعة والتجارة صنعوا ما لا يُصنـع بالمِدْفع والبندقية.

اتّبـع اليهـود طريقـة لشـراء الأراضـي مـن أيدي الشـعب عـن طريق إقراضهـم وأَخْـذ الأرض رَهْنًـا بعـد ذلـك، حتـى إنهـم أسّسـوا مَصْرِفًـا فـي إنجلتـرا لإقراض الأموال؛ مـن أجل رَهْن أراضي الشـعب وأملاكهم بعد أن انشـغلوا بالزراعة، وصاروا مدينين للتجار والمُرابين بفوائد عالية، وكانـت الأراضـي أو الأمـلاك تُؤخـذ بواسـطة بعـض التجـار والصيارفة الأجانب الذين ليس لهم صفة رسمية في سندات الدَّين، مُستفيدين بذلك مـن جهل الشـعب الذي عجَز عن سـداد ديونـه، كان القَرَويّـون عاجزين عن سداد ديونهم، وقد قُيّدوا بفوائد دَين عالية جدًّا، وفي ٢٩ كانون الثاني /يناير عام ١٨٨١م قام أحمد حمدي بإخطار "سري" طلب فيه من الإدارة المركزية ألا تقبل الحكومة برَهْن الأراضي من دون تصديق منها.[٨٠]

فـي عـام ١٨٨٣م صدر قانـون بَقْصْر حقّ شـراء الأملاك علـى اليهود العثمانيّيـن فقـط، واشـترط أن يحصـل الأجانب والذين غيّروا جنسـيتهم علـى إذنٍ مـن الحكومة العثمانيّة قبل شـراء الأراضي، واتخذت الحكومة

(٨٠) BOA. ŞD. TNZ, ٢٢٧٦/٨٦

العثمانيّة إضافة إلى هذا مجموعة من التدابير الأُخرى، مثل إغلاق سواحل سوريا في وَجْه اليهود جميعهم، وتوقيع العقوبة على الذين يجيئون للزيارة ثم يتخلّفون عن العودة، وإعادة إرسالهم مرّة أخرى على الفور أو إسكانهم في أماكن مُناسبة، وإعطائهم الجنسية العثمانيّة، وإخضاع المدارس كلها لإشراف وزارة المعارف.

تبين أن القانون الذي صدر عام ١٨٩١م في عَهْد السلطان عبد الحميد الثاني لن يُتيح الفرصة لأيِّ يهوديّ للحصول على الجنسية، ولن يتيح الفُرْصة أمام اليهود للاستقرار في الأراضي العثمانيّة، ثمّ صدر بعد ذلك أمر يحظُر بيع الأراضي والأملاك العثمانيّة كلها بما فيها فِلِسْطين إلى اليهود، بالإضافة إلى هذا بُذِلَت جهود كبيرة لإعاقة طريق اليهود عن شراء الأراضي؛ وذلك من خلال قيام السلطان عبد الحميد الثانى بشراء الأراضي العربية الفِلِسْطينية التي يضطرّ صاحبها لبيعها باسم "الخزانة الخاصة"، وقام اليهود الذين مُنِعوا من شراء الأراضي في فِلِسْطين بدعاية مُضادة للدولة العثمانيّة، وأسّسوا جمعية سِرّية في إسطنبول أطلقوا عليها "جمعية الانتقام"، وورد في مذكرة صدَرت عن المُفوَّضية الإنجليزية أن حماية العائلات اليهودية الرُّوسية في فِلِسْطين وسوريا إنما تعود إلى إنجلترا؛ وبذلك اختُرقت المحاذير، وتعذّر تطبيق قرار حظْر الشراء نتيجة لتدخُّلات الدُّوَل الأوروبية وعلى رأسها إنجلترا.(٨١)

وفي الوقت الذي حاولت فيه الدَّوْلة العثمانيّة مَنْع اليهود من شراء الأراضي من ناحية، فقد بدأت من ناحية أُخرى بمَنْح عقود الملكية التي تمّ شراؤها بالطُّرُق الشرعية قبل ذلك؛ وذلك بناءً على قرار اتخذته عام ١٨٩٣م نتيجة لضغوط القُنْصليات الأجانب، فهناك من اليهود من لم يشترِ الأراضي والضياع في منطقة فِلِسْطين لغرض سياسيّ فقط،

(٨١) بوستانجي، مصدر سابق، ص ٩٨-١٠٠.

وإنما كان رغبة منهم في قضاء أيامهم الأخيرة في التعبُّد، وسُمِحَ لكل صاحب حقّ بالحصول على عقود الملكية المشروعة بناءً على وثائق حصلوا عليها من القُنصليات، تنصّ على أنه لا علاقة لهم بالصهيونية؛ لئلا يتعرّض هؤلاء الأشخاص للظلم، لكن هذا القرار أوجب التصديق على الأراضي التي حصل عليها الصهاينة بطُرُق غير شرعية حتى ١٨٩٣م؛ لأن القنصليات لم تكتشف أيّ صهيونيّ فيمن تقدموا بالطلبات، ومَنحت الجميع الأوراق اللازمة.(٨٢)

على سبيل المثال كانوا يُحوّلون مُلكية الأراضي في فِلِسْطين المقيد منها في مستندات وغير المقيد برفع دعاوى أمام المحاكم تحت زَعْم بيعها بسعر أعلى، وكانت المباني تُقام رَغْمًا عن إرادة السلطان؛ لذلك اتُّخذ قرار في مجلس الشورى بوجوب حضور موظفي الدفتر الحقّاني في هذا النوع من الدعاوى في المحاكم، وضرورة دقة التحرّي الشديد في هذا، وإنزال العقاب بأولئك الذين لا يُراعون القوانين، من خلال رسالة بعَث بها الصدر الأعظم يافري جواد عام ١٨٩٤م.(٨٣)

استخدم اليهود أنواع الحِيَل للاستقرار في فِلِسْطين، واستخدموا أسماءً مُزيّفة باعتبارها وسيلة لشراء الأراضي، كما قدموا الرشاوي للموظفين المحليّين مُستخدمين في ذلك سطوة المال، وطلبوا العَوْن من اليهود الذين كانوا يقيمون في فلسطين من قبل، وقد وصل تقرير بهذا الخصوص في خطاب رسميّ أُرسِلَ بتاريخ ١٨٩٤م من ولاية سوريا إلى مديريات وزارة الداخلية، على النحو التالي:

"لم يتردّد اليهود الذين اشتروا الأراضي بسندات واليهود غير الروس في استقدام المُهجّرين اليهود وتوطينهم، فرَغم أنه قد

(٨٢) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٠٢-١٠٣.
(٨٣) BOA. DH. MKT. ١٩٦/٦٢

حُـدِّدت مُدَّة الزيارة والإقامة لليهود الزائرين في يافا، إلا أن بعض هؤلاء قد تخلّفوا هناك بطريقة الحِيَل وتقديم الرشاوي للموظفين المحليين، وفرّ بعضهم واستقرّ مع اليهود المُقيمين في منطقة عكّا التابعة لولاية بيروت، وتخطّت أعداد اليهود وفْق تصريح للقُنْصل الفرنسيّ في الشام أربعين ألفًا، وأنه سيصِل هذا العدد إلى الضِّعْف خلال أربع سنوات، ومما لاشك فيه أن زيادة أعداد اليهود بهذا الشكل مُضِرّ، وسوف تتزايد أعداد اليهود في القُدْس وبيروت، وسيتحوّل اليهود تدريجيًّا إلى الاستقرار في الأراضي التي اشتروها بأسماء مُزيّفة، أرجو اتخاذ اللازم في هذا الخصوص".[٨٤]

وورد في وثيقة أخرى تقرير ينصُّ على قيام الجمعية الصهيونية بشراء مساحات واسعة من الأراضي الفِلِسْطينية بأسماء مُزيّفة، وإعطاء أموال لأصحابها تُعادل أضعاف ثمنها، وعن قيامها باستقدام أعداد ضَخْمة من السكان وتوطينهم هناك، وتقديم تسهيلات لهم في أعمالهم، وأن هذه الجمعية تقوم ببعض الأعمال، مثل إنشاء طريق مُرصَّفٌ بالحصى داخل منطقة طبَرية التابعة لعكّا، وتسيير سُفُن في بحيرة طبَرية.

لقد حمل هذا التقرير بتوقيع خليل إبراهيم ادّعاءات جادة للغاية؛ فقد اشتُريت قبل شهر مساحة من الأراضي بلغت عشرين ألف دُونُم باسم سالومون ريناك، وهو من رعايا فرنسا، ويُقيم في يافا مخالفًا للبيان الرسمي الصادر من رئيس مُقاطعة طبَرية وحاكم مقاطعة عكّا ومُوظّفي الدفتر الحقّانيّ، وقد ورد نبأ مفاده أن الشراء تمّ باسم مُزيف، وأن هذا الأمر له علاقة بهذه الجمعية، ١١ آذار/مارس ١٩٠٥م.[٨٥]

إن هجرة اليهود لفِلِسْطين وبيع الأراضي هو نتاج للضغوط السياسية التي مارسها الغرب على الإدراة العثمانيّة، وتأثير القوى الاقتصادية

(٨٤) BOA.Y. PRK. DH. ٧/٢٩

(٨٥) BOA. Y.PRK.AZJ ٥٠/٨٦

لليهود، فقد كان من الصعب جدًّا صدّ أشخاص مثل هرتزل وروتشيلد اللذين تمتّعا بقدرة هائلة في مجال التمويل على وجه الخصوص، وحتى لو بُذِلَت الجهود لتحجيم أنشطتهم فلن تُكلَّل هذه الجهود بالنجاح.

وفي عام ١٨٩٦م عرَض هرتزل عن طريق نيولنسكي القيام بدعاية لصالح السلطان العثمانيّ في الإعلام الأوروبيّ، وأن تُسدّد الديون المُستحقّة لدُوَل أوربا من الدَّوْلة العثمانيّة مُقابل فتح الباب أمام الهجرة اليهودية، وأن يتولى إدارتها اليهود، فردّ عليه السلطان عبد الحميد الثاني قائلًا:

> "لا أستطيع أن أتخلى عن شبرٍ واحد من أرض فِلِسْطين؛ فهي ليست مُلْكي بل هي مُلْك الأمة الإسلامية، لقد جاهد شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، ونحن أيضًا سنرويها بدمائنا دون أن تنفصل أو تبتعد عنا".[٨٦]

ورَغْم عدم قبول السلطان عبد الحميد الثاني ببيع فِلِسْطين للصهاينة مُقابل سداد ديون الدَّوْلة العثمانيّة، إلا أنه لم يكن هناك حلٌّ يَقِف في وجه النشاطات الصهيونية المُكثفة في فِلِسْطين، وفي عام ١٨٩٨م اتُّخذ قرار في المؤتمر الصهيونيّ الثاني في "باسيل" بإنشاء بنك في لندن، وبدأ نشاطه باسم "وَقْف المُستعَمَرة اليهودية"، وفي عام ١٩٠٣م قام هذا البنك الذي بلغ رأس ماله ١٠٠٠٠٠ إسترليني بإنشاء شركة إنجليزية- فِلِسْطينية، وقامت هذه الشركة بفتح فروع لها في حيفا ويافا والقُدْس وهيبرون وبيروت والصفَد وطبَرية وغزة، وبدأت تُولي اهتمامها ببيع وشراء كل أنواع الأراضي للمستعمَرين اليهود، وكان الأثرياء أمثال روتشيلد قد بدؤوا بشراء أراضٍ من أجل اليهود المهاجرين، واستمرّوا على هذا النهج، وبذلك وجد الصهاينة -بعد أن فشلوا في اقتطاع الأراضي

(٨٦) ميم كمال أوكه، قضية فِلِسْطين من الصُّهيونية إلى صراع الحضارات، مكتبة أُفُق، إسطنبول، ٢٠٠٢م، ص ٤١-٤٢.

من السلطان عبد الحميد الثاني مُباشرةً- طريقًا غير مُباشر للحصول عليها، واستمرّوا في شراء الأراضي.(٨٧)

وصل عدد المُستوطنات التي أقامها اليهود فى أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني إلى ٣٣ مستوطنة أُقيمت على مساحة واسعة من الأراضي، فمثلًا وصلت مساحة الأراضي التي اشتراها *JCA* في عشر سنوات إلى ٧٥٠٠٠ دُونُمًا، وارتفعت مساحة الأراضي التي حصل عليها اليهود في فِلِسْطين بشكل فاقَ الأراضي المُقيدة هناك؛ لأن كل أراضي القرية كانت مُلكية عامة عدا تلك التي يملكها أفراد "الملكية الخاصة"، ومع الزمن آلت فى حكمها لسيد القرية، وصارت عملية شراء الأراضي التي يقوم بها الصهاينة عن طريق الشركة الفِلِسْطينية- الإنجليزية وبالًا على أهل القُرى الفِلِسْطينية، وفى الوقت الذي توجّه فيه سادة القُرى لبيع أراضيهم الخاصة، آلت ملكية الأراضي العامة إلى يد اليهود؛ لأن أصحاب الأرض الجُدُد لم يسمحوا لأهل القُرى الفِلِسْطينين أن يزرعوا في هذه الأراضي، وأعطوا الأولوية لليهود المُهاجرين.

وفيما يلي عرض للوحدات الاستيطانية التي أُقيمت في فِلِسْطين حتى عام ١٩٠٨م حسب التسلسل التاريخيّ لبنائها:

- "مَكْفيه إسرائيل" (١٨٧٠م) في الضفة الغربية.
- "تتاك تِكوا (*Tetak Tikva*)" في الضفة الغربية عام (١٨٧٨م)، وجددتها جمعية مُحبّي صهيون ما بين عامي ١٨٨٣-١٨٨٤م.
- "روش بينا (*Roş Pinah*)" في الجليل عام (١٨٨٢م).
- "ريشون ليتسيون (*Rişon le Siyon*)" في الضفة الغربية عام (١٨٨٢م).
- "زيخرون يعقوف" في الضفة الغربية عام (١٨٨٢م).

(٨٧) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ١٠٧.

- "يشُود حماليه (*Yessad Hamaleh*)" في الجليل عام (١٨٨٣م).
- "مشمار هايردين (*Mismar Hayarden*)" في الجليل عام (١٨٨٤).

وتولت جمعية محبي صهيون إقامة المستوطنات الخمس الأخيرة.

- "عقرون (*Ekron*)" في الضفة الغربية عام (١٨٨٤م).
- "قاطوراه (*Katrah*)" في الضفة الغربية عام (١٨٨٤م).
- "بينا يهودا (*Bene Yehudah*)" في الأردن عام (١٨٨٦م).
- "باتح شلومو (*Bath Şolomo*)" في الضفة الغربية عام (١٨٨٩م).
- " رحوبوت (*Rehoboth*)" في الضفة الغربية عام (١٨٩٠م).
- "موزاح (*Mozah*)" في الضفة الغربية عام (١٨٩١م).
- "شفيا (*Şeveya*)" في الضفة الغربية عام (١٨١٩م).
- "جديراه (*Gederah*)" في الضفة الغربية عام (١٨١٩م).
- "عين الزيتون (*Ayn Zeytun*)" في الجليل عام (١٨١٩م).
- "كاستينيه (*Castinieh*)" في الضفة الغربية عام (١٨٩٥م).
- "أرطوف (*Artuf*)" في الضفة الغربية عام (١٨٩٦م).
- "مطولة (*Metula*)" في الجليل عام (١٨٩٦م).
- "نس سيوناه (*Nes Siyonah*)" في الضفة الغربية عام (١٨٩٧م).
- "محانيم (*Mehanim*)" في الجليل عام (١٨٩٩م).
- "سجرا (*Secera*)" في الجليل عام (١٨٩٩م).
- "جمّا (*Cemma*)" في الجليل عام (١٩٠٢م).
- "مشا (*Meşa*)" في الجليل عام (١٩٠٢م).

- "محلاميه (*Mehlamiyeh*)" في الجليل عام (١٩٠٢م).
- "كفر سابا (*Kafir Seba*)" في الضفة الغربية عام (١٩٠٤م).
- "بديين (*Bedeen*)" في الجليل عام (١٩٠٥م).
- "شفزيباه (*Şefzibah*)" في الضفة الغربية عام (١٩٠٥م).
- "مراح (*Marah*)" في الضفة الغربية عام (١٩٠٧م).
- "بئر يعقوب (*Bi'r Yakob*)" في الضفة الغربية عام (١٩٠٧م).
- "عتليت (*Atlit*)" في الضفة الغربية عام (١٩٠٧م).
- "مِزباح (*Mizpah*)" في الجليل عام (١٩٠٨م).
- "كنيرت (*Kinnereth*)" في الجليل عام (١٩٠٨م).

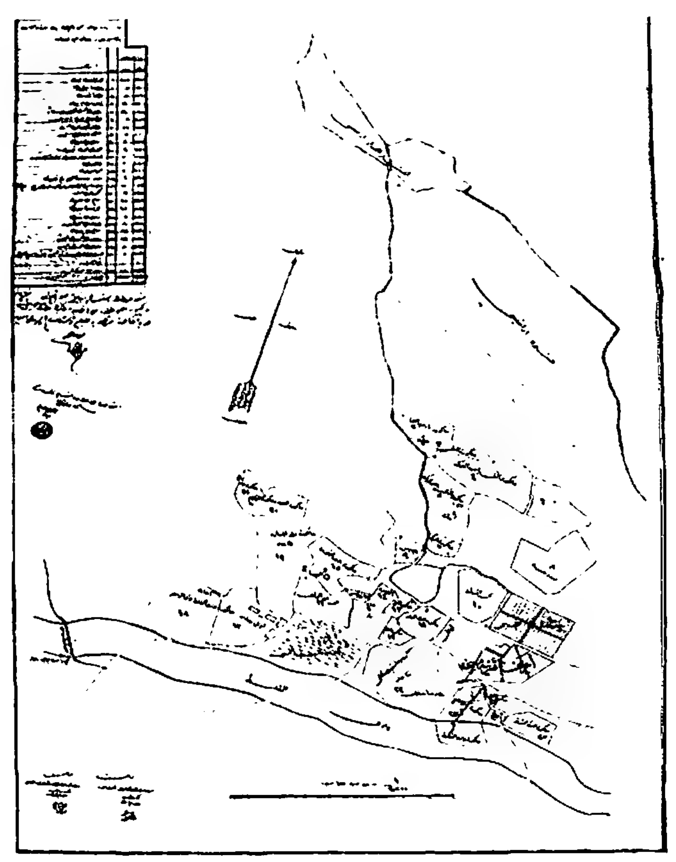
كان السلطان عبد الحميد الثاني على عِلْم أن اليهود قد استقرّوا في فِلِسْطين من خلال مستوطنات أقاموها؛ لأن الإمبراطور الألمانيّ ويلهام الثاني عندما قَدِمَ إلى فِلِسْطين عام ١٨٩٨م تجوّل بِرُفقة وزير الخارجية توفيق باشا في المستوطنات اليهودية في فِلِسْطين، فأخبره توفيق باشا "أن السلطان لا يؤيد الصهيونية أو قيام مملكة يهودية مستقلة"، وأخبر السلطان عبد الحميد الثاني طبيبه السيد عاطف حسين أثناء إقامته بسلانيك -بعد أن عُزل عن الخلافة- أن المستوطنات التي أُقيمت هي بداية لدولة صهيونية في المستقبل.[88]

وكان كلما أُجري إحصاء للمستوطنات والأراضي التي تُباع ظهر جدول مغاير تمامًا، وعلى سبيل المثال عند دراسة خريطة الأراضي التي اشتراها الأجانب من أريحا في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٩٤م، ظهرت الحقيقة التالية:

(٨٨) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ١٥٠-١٥٥.

جدول مساحات الأراضي والحدائق وأصحابها الأجانب في أريحا

الأسماء	الرقم	مقدار الدُونُمات	
		الدُونُم	المتر المربع
جورجي أفندي تبريدي	١	٢٠٧	٢٩٠,٥
أديرة الروم	٢	٥	٦٩٠
المطران أنتيموس	٣	٥	٠٣٧
راغب أفندي حسين	٤	١٦	٣٢٠
رئيس جمعية فِلِسْطين الروسية	٥	١٤	٠٤٥
عبد الفتاح أفندي داودي	٦	٨	٣٥٩
مصطفى مخلص أفندي حسيني	٧	١٦	١٢٣
الحاج رشيد عريكات	٨	٢	٥٢١
دير الروم	٩	٢	٧٢٣
جورجي أفندي تبريدي	١٠	٩	٦٤١
فندق وحديقة جورجي أفندي تبريدي	١١	٥	٧٩٢,٥
عائلة جاؤني	١٢	٢	٤٩٢
أبو الفِلات	١٣	٢	٣٤١
سيدة أفطوميا من رعايا روسيا	١٤	٤	٤٩٢
كنيسة درعون التابعة لدير الروم	١٥	١١	٠٨٣
محمود عريكات	١٦	٩	٥٣٣
دير الروم	١٧	١٥	٣٦٣
الدير اللاتيني	١٩	٤٢	٨٩٩
دير الروم	٢٠	٧	٢٧٠
عبد السلام أفندي	٢١	٢	٨٦٢
دير الروم	٢٢	٢٣	١٥٩
جمعية فِلِسْطين التابعة لروسيا	٢٣	١٤	٦٤٧
جمعية فِلِسْطين التابعة لروسيا	٢٤	٠٠	٥١٣
عَودي جارام للجمعية البروتستانتية	٢٥	٠٥	٢١٩
دير الروم	١٨	١٨	٨٩٩



خريطة الأراضي التي بيعَت لغير المسلمين من قرية أريحا

(BOA. HH.THR, ٢٧/٢)

قُدّمت نسخة من هذه الخريطة إلى "الخزينة السلطانية الخاصة".(٨٩)

اعتقد اليهود بأنّ لديهم فُرْصة ذهبية بعد الإعلان الدستوري واتساع مناخ الحُرّيات، فبدؤوا بالهجرة بشكل مُكثّف إلى فِلِسْطين، وواصلوا شراء الأراضي، لكن تصدّى لهم أعضاء جمعية الاتّحاد والترقّي، واتّخذوا قرارًا بحظر هجرة اليهود إلى فِلِسْطين مرّة أُخرى.

(٨٩) BOA. HH.THR, ٢٧/٢

تقدّمت جمعية الاتّحاد والترقّي في فِلِسطين بطلب إلى الحُكومة من أجل وقف هجرة اليهود، بناءً على كتابات ضدّ الصهيونية في إسطنبول، وعلى رأسها للسيّد كاظم نامي، وقد طلب حسين حلمي باشا إعداد تقرير بهذا الشأن، وكان نتيجة ذلك أن قرّرت الحكومة العثمانيّة في ٢٠ حزيران/يونيو عام ١٩٠٩م حَظْر بيع الأراضي إلى الأجانب في فِلِسطين، وشمل ذلك مُقاطعة القُدْس، بعد أن لفتت الأنظار إلى وجود ٥٠ ألف يهوديّ أجنبيّ في فِلِسطين.

واستنادًا إلى قرار مجلس الشُورى الذي اتُّخذ من قِبَل طلعت بك وزير الداخليّة في ٢٨ أيلول/سبتمبر عام ١٩٠٩م بتنفيذ الحظر والتقييد السابقين أثناء حُكْم السلطان عبد الحميد الثاني -مُشيرًا إلى تلك المسألة بأنها عاجلة جدًّا- وبمنْع شراء اليهود الذين يحملون الهوية العثمانيّة للأراضي والأملاك في فِلِسطين؛ اتّخذت جمعية الاتّحاد والترقّي هذه الإجراءات الصارمة عندما بدأ تأثيرُها يظهر في نظام الحُكْم، وهو ما أدّى إلى صَدْمة الصهاينة الذين كانوا يُعلّقون آمالًا في مسألة فِلِسطين مع الإعلان الدستوري الثاني.(٩٠)

أثناء ذلك قام السُلطان العثمانيّ بتسجيل بعض الأراضي التي اشتراها بثمن معلوم باسمه، فعلى سبيل المثال قُدّم طلب بتاريخ ٤ نيسان/أبريل عام ١٩٠٩م من وزارة "الخزينة الخاصة" بإدراج أراضي "ماسفارا" في القُدْس ضمن الأملاك الخاصة بالسلطان مُقابل سعر معيّن، وجاء في هذا الطلب أنّ هذه الأرض اشتُريت بمعرفة حاكم القُدْس وتنفيذًا لإرادة السُلطان العثمانيّ.(٩١)

---

(٩٠) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ١٠٢-١١٦.

(٩١) BOA. Y. MTV. ٣١٣/١٦٢

في بداية الأمر كان الصهاينة قد علّقوا كثيرًا من الآمال على السُلطان عبد الحميد الثاني، حتى إنّ الوفد الذي كان يضُمّ عم "إيمانويل قراصو (*Emanuel Karaso*)" أفندي النائب السلانيكي -صديق جمعية الاتّحاد والترقّي وعُضو الهيئة البرلمانية-، كان قد طلب من عبد الحميد أن يبيعهم أرضًا كبيرة في القُدْس من "خزينته الخاصة" -وتقع بين مزارع الإمبراطورية الواسعة- بأغلى من قيمتها الحقيقية مُقابل مقدار كبير من الذهب، لكنه أجابهم:

"لن أُعطيكم ولو شبرًا واحدًا من الأراضي التي دخلت ضمن دولتنا العلية ودفع أجدادنا دماءهم ثمنًا لها، ولن أبيعها لكم ولو دفعتم ملء الأرض ذهبًا".(٩٢)

وكان قد رفض قبل ذلك عَرْض هرتزل بدفع ديون الدَّوْلة العثمانيّة مُقابل الأراضي التي يطلبونها في فِلِسْطين قائلًا:

"لن أبيع ولو شبرًا واحدًا من الأرض؛ لأن هذا الوطن ليس مُلكي، إنّه ملك لأُمّتي، ولقد حصلتْ أُمّتي على هذا الوطن بدمائهم".

رَغْم مُعارضة السُلطان عبد الحميد الشديدة للطلبات التي قدّمها الصهاينة من أجل الحصول على الأراضي في فليسطين، ورَغْم إصداره عدّة قوانين تحظُر هجرة اليهود وبيع الأراضي، إلاّ أنّ أيادي الصهاينة الخفيّة كانت موجودة دائمًا وتتحرّك باستمرار، وبدأ بيع أراضي فِلِسْطين في عَهْد السُلطان عبد الحميد الثاني، واستمرّ في فترة جمعية الاتّحاد والترقّي، وهو ما كان حجَر الأساس في إنشاء دولة يهودية؛ وذلك لعدم القوة والوَعْي الكافي لدى الشعب والإداريّين المحليّين في مُقاومة ذلك.

(٩٢) جمال قونتاي، التاريخ يتحدّث، ج. ٧، العدد ٣٥، كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦م، ص ٢٩١٣-٢٩١٤.

٣- أول مشروع لإقامة دولة يهودية في فِلِسْطين

كان اليهود الذين يُؤمنون بأنّ الله سيُرسل مَسيحًا يلمّ شَتات اليهود في القُـدْس، ينتظرون ذلك اليوم بفارغ الصبر، غير أنّ الحاخام "يهوذا ألكالي (*Judah Alkalai*)" البلغـرادي (١٧٨٩-١٨٧٨م) أطلـق فكـرة وَقْـف أداء اليهـود لكفارتهم، واقترح عودة اليهود إلى فِلِسْـطين على أيدي الإنسـان، وسـعى لنشـر فكرته من خلال قيامه بجولات في أوروبا، واسـتقرّ هو في فِلِسْطين أيضًا؛ لكي يضرب بنفسه مثلًا يُحتذى به.

لـم يكتـفِ البريطانـيّ "مُوسـى مونتيفيـوري (*Moses Montefiore*)" ذو الأصل اليهوديّ بإطلاق فكرة شراء القُدْس، وتجلّى اهتمامُه بفِلِسْطين منذ عام ١٨٣٥م، ورسـم خِطة لإقامة مُستوطنة خارج الأسوار التي تُحيط بالقُـدْس، حقّـق مونتيفيوري غايتَـه هذه مـع القرار الـذي حصل عليه من السُـلطان العثمانيّ عام ١٨٥٥م، وأقام مركزًا أُطْلق عليه حيّ "ميشـكينوت شاعانايم (*Mişkonet Şaananim*)" (مساكن الهدوء) ما بين عامي (١٨٥٧-١٨٦٠م) فـي الأراضـي التي حصل عليها غَرْب القُدْس عند سـفوح جبل "صهيون".

كان الطبيـب يهوذا "ليـو بينسـكر (*Leib Pinsker*)" (١٨٢١-١٨٩١م) -وهو من مدينة أوديسا بأوكرانيا- أحدَ الزُعماء المُؤثّرين في توجيه هجرة اليهود إلى صهيون، أي إلى فِلِسْـطين إبّان تعرّض اليهود للظُلم والعُدوان فـي روسـيا، كافـح بينسـكر سـابقًا من أجـل أن يحصـل اليهـود الروس علـى حُقوقهـم وحُريّتهـم، وكتـب كتابه "الإعتـاق الذّاتي" عـام ١٨٨٢م؛ بسـبب الظُلـم والقهـر لليهـود فـي روسـيا ابتـداء مـن عـام ١٨٨١م،

وأشــار فيــه إلــى أنّ مُعارضــة اليهــود ومُعاداتهــم ما هي إلاّ مرض نفســيّ لا علاج له في الشرْق والغرْب، ووضّح أن حلّ هذه المسألة هو في تأسيس دولـة لليهـود حتـى يكونوا على قَدَم المُسـاواة مـع باقي الـدُّوَل الأُخرى، وعـلاوة علـى ذلـك صرّح بينسـكر بأنّـه يجب علـى اليهـود أن يَحصلوا على اسْتقلالهم من خلال جُهودهم المُشتركة لا عن طريق مُبادرات الدُّوَل الأوروبيـة، تبنّـى المُجتمـع اليهـوديّ هذه الأفكار وأنشـأ جمعيات مُحبيّ صهيون (هوفيفه زيون/*Hoveve Zion*) في كثير من الأماكن، وتجاوز عدد جمعيات محبيّ صهيون المُنشـأة في روسـيا وأوروبا الشرقيّة الاثني عشر خلال عام تقريبًا، وازداد هذا العدد بسُرعة لاحقًا، ثم عقد بينسكر مُؤتمرًا في "كاتوفيتش (*Katoviç*)" في ٦ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٨٨٤م، وناقش فيه طُرُق مساعدة اليهود المستعمَرين في فِلِسْطين.[٩٣]

كان يهوذا ألكالي، وزوي هيرش كاليشر، وموسى هيس من الحاخامات الذيـن سـاروا علـى دَرْب الصِّرْب والمَجَـر والطُّلْيان، وطلبـوا إقامة دولة لليهـود في فِلِسْـطين؛ وذلك من خـلال كُتُبهم المنْشـورة كـ"اقتراح يهوذا" لألكالـي عـام ١٨٤٨م، و"نظـرة نحو الصهيونية" لكاليشـر عـام ١٨٦٢م، و" روما والقُدْس" لهيس عام ١٨٦٢م.[٩٤]

لكـن أوّل مـن سـعى لفكرة إنشـاء دولة يهوديـة في فِلِسْـطين وتنفيذها على أرض الواقـع هو الحاخام "كاليشــه (*Kalische*)"، فكان يُؤمن بضرورة توحيد زُعماء المُجتمـع اليهوديّ في أوروبا؛ ليُؤسّسـوا جمعية تسـعى إلى هيمنة اليهود في فِلِسْـطين حتّى يتمكّنوا من التجمّـع فيها تحت لواء واحد، وكان كاليشــه قد طلب في عام ١٨٣٦م من عائلة روتستشـيلد القيام بشـراء القُدْس من محمد علي باشـا والي مصر وفِلِسْـطين، ثمّ عاوَدتْه نفس الفكرة

(٩٣) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٢٩-٣٩.

(٩٤) بوستانجي، مصدر سابق، ص ٩١.

مُجدّدًا عندما التقى بموسى مونتيفيوري، فوافقت "مُنظّمة التحالُف العالميّ لبني إسرائيل" التي أُنشئت لمساعدة اليهود على إنشاء مدرسة زراعية ومنطقة سكنيّة باسم "أمل إسرائيل" (مكفيه إسرائيل) في يافا عام ١٨٧٠م.(٩٥)

كان رئيس وزراء بريطانيا ذو الأصل اليهوديّ "بينجامين دزرائيلي (*Benjamin D'İsraeli*)" من أصحاب فكرة إقامة دولة يهوديّة في فِلسْطين، وأثناء تجوّل رئيس الوزراء دزرائيلي برُفقة صديقيه لورد ستانلي ولورد كورينجتون في الحديقة بـ"هاي ويومبي" عام ١٨٥١م، ذكر للورد ستانلي أنّ فِلسْطين غَنيّة بالخيرات الطبيعيّة التي لا حدّ لها، وأنّها تحتاج إلى مُزارعين يعملون فيها مع توفير الحِماية لهم فقط، وأنّه ينتظر موضوع المُواطنة حتى يتمكّن اليهود من شِراء الأرض من الدَّوْلة العثمانيّة بأموال التبرّع من عائلة روتسشيلد والرأسماليين العِبْرانيين البارزين، وسوف تُوافق الدَّوْلة العثمانيّة التي باتت على شَفا الإفلاس على كلّ شيء كي توفّر دَخْلًا لها، وما ينبغي القيامُ به بعد ذلك هو إنشاء المُستعمَرات على هذه الأرض التي امتلكوها وتأمينها، واستطرد بأنّ هذه المواضيع تتردّد كثيرًا في الأحاديث اليوميّة للشعب اليهوديّ وأنّ المسيح الجديد الذي سيُحقّق هذا سيكون المُنقِذ الحقيقيّ للأُمّة، إلاّ أنّه لم تكُن هناك مُبادرة فوريّة لتنفيذ أفكار بينجامين دزرائيلي رئيس وزراء بريطانيا.(٩٦)

إنّ الأزَمات الاقتصادية والسياسيّة التي عاشتْها الدَّوْلة العثمانيّة منذ نهاية عام ١٨٧٠م، رسّخت عند اليهود الأوروبيّين وغيرهم من المُهتمّين بفِلسْطين اعتقادًا بأنّه إذا توفرّت قُروض هائلة للدولة العثمانيّة فسوف تفتح أبواب فِلسْطين أمام هجرة اليهود، حتى إنّه نُوقش هذا الموضوع في بريطانيا عام ١٨٧٨م في الجرائد والمجلّات؛ فقد اقترح رجل الأعمال

(٩٥) ميم كمال أوكه، مصدر سابق، ص ٢٥.

(٩٦) بوستانجي، مصدر سابق، ص ٩٢.

"إدوارد جـزال (*Edward Cezal*)" -وهو ممـن يَعرفون المنْطقة عن كثَب في مقاله "قضية الشرق" عام ١٨٧٨م فكرة إنشاء دولة يهوديّة تحت حماية بريطانيّة آخذًا في الاعتبار مصالح دولته، وكذلك اسـتغلّ "تشـارلز وارين (*Charles Warren*)" الناشط في موضوع فِلسْطين فُرْصة المشاكل الماديّة التي تعيشُـها الدَّوْلة العثمانيّة، واقترح إنشاء شركة في فِلسْطين تُشبه شركة الهند الشـرقية، وضمّ الأراضي المُقَدّسـة في فِلسْـطين إليها، ومُقابل هذا تدفـع الشـركة مبلغًـا يُعادل دخل الدَّوْلـة العثمانيّة من فِلسْـطين، وتتكفّلُ بدَفْع جُزْء من الفائدة للدائنين الأوربييّن، وفي نفس التوقيت نُوقشت هذه المسـألة في البرلمان المجَريّ، وقام نائـب في البرلمان بعَرْض فكرة فتح أبـواب فِلسْـطين أمام هجرة اليهـود، وأن تتحوّل إلى ولايـة مُنفصلة تتْبع الدَّوْلـة العثمانيّـة أو دولة يهوديّة مسـتقلّة، وكل من كان فـي مؤتمر برلين يأملون أنّ هزيمة الدَّوْلة العثمانيّة في روسيا سوف تُيسّر لهم الأمر؛ لذلك سـعَوا لاتّخاذ قرار يَسـمح بهجرة اليهود إلى فِلسْـطين، ولكنّ هذه الفكرة لم تُدْرج في جدول أعمال المُؤتمر بسبب عدم رغبة بعض الدُّوَل -وعلى رأْسها ألمانيا- في التدخُّل رسميًّا في هذه المسألة في تلك الفترة.[٩٧]

نوقشـت هـذه الأفكار فـي أنحاء مُختلفة مـن العالم، وبمُـرور الوقت اتّخذت هذه المسـألة مَنْحىً خطيرًا، وبدأت تتوالى الطلبات والالتماسات على الدَّوْلة العثمانيّة بطُرُق مختلفة.

أوّل مُبـادرة فـي اسـتيطان اليهـود لفِلسْـطين تحقّقت هي التـي قدّمها "لورنس أوليفانت" إلى الدَّوْلة العثمانيّة عام ١٨٧٩م، وجاء فيها ما يلي:

> سوف يُنشأ مركز هجرة يهود الأناضول ورومليا في فِلسْطين، وتُخصّص الأراضي الواسـعة الخصْبة في فِلسْـطين للزراعة، ويتمّ

(٩٧) ش. طوفان بوزبينار، قضية الهجرة اليهودية إلى فِلسْطين في عصر السـلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٨-١٩٠٨م)، موسوعة الأتراك، ج ١٣، ص ٧٨-٨٥.

توسيع مجالات الزراعة وإضفاء روح التحضّر على القبائل البدويّة في تلك الأنحاء، وتوفير الأمن والأمان بها، وإحياء الصناعات المحليّة بواسطة اليهود الذين يُريدون العودة إلى فِلِسْطين بأدوات وأساليب الزراعة الحديثة التي سيحصولون عليها عن طريق الشُعوب المسيحيّة، بالإضافة إلى الأموال التي تُدفع على الفور مُقابل الأراضي التي سوف يَستوطنُها المُهاجرون، ويُستفاد أيضًا من ضرائب بعض الولايات لدعْم الشركة التي سوف تُؤسّس لإدارة مُجتمع المُهاجرين بشكل مُستمرّ، ويخضع هذا العمل للتجربة بعد مُوافقة السُلطان والدُّوَل الأوروبيّة بواسطة رؤوس الأموال الأجنبيّة، وبعد نجاح تلك التجربة من المُمكن القيام بإصلاحات مماثلة في الولايات الأُخرى.

تُمنح السُلطة اللّازمة لصاحب الامتياز من أجل إنشاء شركة لإعمار المنطقة بعد استيطان المُهاجرين اليهود في فِلِسْطين، ويُطلق عليها الشركة العثمانيّة لإسكان المُهاجرين، وتكون تحت حماية السُلطان وإشراف الحُكومة، وتُعيّن الحُكومة مُديرًا ومُساعد مُدير يُراعيان تنفيذ القوانين وأحكام اللّوائح طبقًا للشروط الأساسيّة لهذا الامتياز، كما ستقوم الحُكومة بتشكيل هيئة إداريّة مُنفصلة ترتبط مُباشرة بولاية سُوريًا لئلا يَلْحق الهيئة الإداريّة في ولاية بيروت مكروه.

ويكون مقرّ الشركة في إسطنبول، ولها الصلاحيّة في فتح فَرْع أو أكثر في مقرّ الحُكومة إذا رأته مُناسبًا، ويُخصّص لها في المُستقبل أرض بين وادي إيرون وحربولحاج؛ من أجل الامتياز الذي منحتْه الحُكومة للشركة، وتتعَهّد الحُكومة ببيعها إلى الشركة مُقابل مبلغ يُدفع على أقساط طبقًا لشروط معينة، لكن لا تُمنح مدينة "سالت" ولا الأراضي المُلحقة بها للشركة، وتكون مساحة الأرض التي تبيعُها الحُكومة للشركة في سَنْجق بيروت أربعة ملايين وثلاثمائة وستة آلاف دُونم، وفي ظرف ثلاثة سنوات

من التاريخ الذي يصدر فيه قرار الامتياز للشركة يُقام خطّ سكة حديد يمتدُّ من حيفا إلى طبَرية، ومن هناك إلى بحيرة "لوه" مارًّا بوادي إيرون، وكل الأراضي الخالية أو التي لا زراعة فيها أو التي تعود إلى الحكومة وخزينة الدَّوْلة تُباع للشركة بنفس السعر الذي سبَق أن بيعت به أراضي القُرى على الطُّرُقات التي سيمُرّ بها خط السكة الحديد، ويتمّ التنازل عن قِطْعة أرض بمساحة كيلومتر من طرفي هذا الطريق من أراضي خزينة الدَّوْلة مجّانًا.

تتعَهْد الحُكومة بأن لا تتنازل عن أيّ قِطْعة أرض في فِلِسْطين لأيّ شركة أُخرى، وبأن لا تُعطي أعمال العُمْران لأيّ شركة أُخرى قبل أن تعرض ذلك أولًا على شركة إسكان المُهاجرين، وبأن تضع الحكومةُ الشركةَ في مُقدمة اهتماماتها لزيادة الأملاك والعقارات في السَّنْجق الجديد، وتسمح لهذه الشركة بإنشاء صندوق تمويل للزراعة في السنجق الآنِف الذِّكْر، ويكون في مَقرّ الهجرة مركز الشركة وصندوق التمويل الزراعي، وتستطيع أن تفتح فروعًا أُخرى في كل مكان من فِلِسْطين، وسيتمّ اختيار مُدير وأمين ومُشرفين على أملاك هذا الصندوق من قِبَل المُهاجرين، وتُصدّق الحُكومة على من تمّ اختيارُهم، ويكون هُناك مُمثّل للشركة في مَقرّ سنجق بيروت؛ ليقوم بالتواصل مع الحاكم القانونيّ، ويُعتبر المُهاجرون من رعايا الدَّوْلة العثمانيّة مهما كانت جنسيتهُم، ويخضعون للمحكمة المُعيّنة بالقوانين والاتفاقيّات السارية، ولن يُواجهوا تمييزًا في الدعاوي القضائيّة.

تمتلك الشركة حقّ التصرّف دائمًا في الأراضي التي اشترتها، كما تستطيع بيع أو مُبادلة الأراضي التي اشترتها بسندات مشروعة، ويختصّ مركز "قلم ليفه" بتسجيل ومبادلة السندات، وأيضًا تستطيع الشركة إقْصاء المُهاجرين عن هذا المكان، وإبعاد كل من يُخالف اللوائح الموضوعة بعد تفتيشه؛ وذاك بعد أن يدفع التأمين المُتفق عليه، ويتمّ استرضاء الشعب في تلك الأنحاء بعد

تسليم الأرض للشركة ليتقبّل إدارة الشركة ومُوظّفيها، ويُشارك هذا الشعب في التعهدات والامتيازات الممنوحة والوظائف المُعطاة للمُهاجرين، وتتعهد الشركة بدفع أموال وفقًا لنِسبة الدَخل الذي تحصل عليه لمُدة اثنتي عشرة سنة؛ وذلك مُقابل الضرائب التي كانت تحصُل عليها الحُكومة من الأراضي التي باعَتْها للشركة.

تُعِدّ الحُكومة سِجلًا للأرض المُخصّصة لجمعية المُهاجرين، وتُحدّد ضريبة مُمتلكات على هذه الأراضي لا تتجاوز قيمة العُشْر، ويحصل المُهاجرون على عفْو من أداء الخِدمة العسكريّة لمُدة سنتين، وتتّخذُ الشركة قرارات إصلاح الأراضي التي تُسكّنُها جمعية المُهاجرين بإشراف مُهندس من قبل الحُكومة، وتُقدّم الشركة سجلّات مُدير الشركة ومُساعديه إلى الحُكومة لمعرفة الأعمال التي أُنجزت، ويتعهّد السُلطان بالعِناية بالأوضاع الضرورية في المستقبل، ويمكِن للمُهاجرين أن يختاروا قوّة منهم من المُشاة والفُرسان لضمان أمْن جمعيّتهم ونظامها، ويقوم من يعرفون اللّغتَين الإنجليزية والفرنسية بالاتصالات بين الشركة ومُوظّفي الدّوْلة، وتشكّل الشركة خلال سنة ابتداء من تاريخ إصدار قرار الامتياز، ويُصدّق عليه، ثم تبدأُ عملها في فِلسْطين، وإذا حدث خلاف بين الحُكومة والشركة تُشكّل لجنة من الطرفين لبحث المُشكلة، ويكون قرارها هو الفاصل.

نُوقش طلب مسيو أوليفانت من إسكان المُهاجرين اليهود في سَنْجق "بلقاء (*Belka*)" في مجلس الوكلاء، وأُجيب على طلَبه بعدم قبول طلب الامتياز الذي يتضمّن بيع أراضي بمساحة ألف دونم إلى هذه الشركة، وذلك بسبب بعض المحاذير والصُعوبات.(٩٨)

مُبادرة أوليفانت في استيطان اليهود في فِلسْطين هي أولًا لخدمة المصالح البريطانيّة، ومن أجل إنقاذ اليهود من مِحَن وظُروف صعبة

(٩٨) BOA. Y.a. Res. ٥/٥٨

فـي أوروبـا، هـذه المبادرة لفَتـتِ انتبـاه الدَّوْلـة العثمانيّة إلـى أنّ التوازُن السُّـكّانيّ في هذه المنطقة سـيتغيّر لصالح اليهود، وخلّفت اعتقادًا سـلبيًّا علـى السُّـلطة والإدارة فـي المنطقـة؛ لأنّه رَغْـم أنّ الأغلبيّـة العُظمى من سُـكّان المُسـلمين إلاّ أن هنـاك توازُنًـا دقيقًا بين الطوائـف الدينيّة، إضافة إلى أنّ النشـاطات التبشيريّة ازدادت بمُرور الوقت من بداية القرْن التاسـع عشـر، وأُنشـئت كنائس ومدارس دينيّة وجمعيات في المنطقة تحت إدارة روسـية وبريطانيـة وفرنسـية وألمانيّـة وإيطاليّـة مُشـتركة، أدرك السُـلطان عبـد الحميـد الثانـي أنّ الإخلال بالتوازن بيـن الطوائف سـيكون له تأثير سلبيّ على إدارة الدَّوْلة العثمانيّة ووضـع القُدْس؛ لذلك كان موقفُهُ شديدًا تجـاه اسـتيطان اليهود فـي فِلِسْـطين، وفي هذا السـياق أُجيـب أوليفانت بـأنّ اليهـود القادميـن مـن الخـارج لـن يسـتوطنوا فـي فِلِسْـطين أبـدًا، ولكن يُمكنهم الإقامة في منطقة بلاد الرافدين أو الأناضول أو رُومَأَلِي.(٩٩)

مسـيو "نيولينسـكي (*Newlinski*)" الصحفـي كان أيضًـا مـن أهـمّ الشـخصيّات التـي سـعت لتخصيص مـكان لليهود في فِلِسْـطين، ولأجل ذلك قَدّم طلبه للسُلطان العثمانيّ على هذا النحو:

> "لقـد قُـدّم أكثر مـن عَـرْض لفخامَة السُـلطان باسـم اليهود، ولا أعلم ما إذا كان عزّت بك قد أوصَل طلبي إلى السُلطان المعظّم أم لا؟! إلاّ أنّ التطـورات السياسـيّة التـي شـهِدهَا العالـم جعلـت الوقت مُناسبًا أكثر لقَبول العُروض التي قدّمْتُها، ولا يُمكن إصلاح الحالة الماليّة في الدَّوْلة العثمانيّة دون مُساعدة المُستثمرين الكبار، وهؤلاء المُستثمرون لا يُريدون سِوى تخصيص جُزْء من الأراضي الفِلِسْـطينية تحت إشـراف العثمانيّين، وكان جناب السُلطان سليم سـمَح في خلافتـه بمجيء اليهـود من البـلاد الغربيّة إلـى الدَّوْلة العثمانيّة، لو تكرّم سُـلطانُنا بتلبية رغبة اليهود هذه المرّة فلن يجد

(٩٩) بوستانجي، مصدر سابق، ص ٩٢-٩٣.

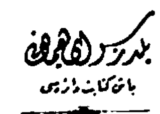
أيّ ضـرَر مـن جـراء ذلك؛ لأنّ اليهـود لا يعملون بالسياسـة أبدًا، ومن ناحية أُخرى إذا لم تُلبِّ الحُكومة العثمانيّة هذا الطلب فسوف يصل اليهود إلى مقاصدهم بوسـيلة أُخرى، والمعروف عن اليهود أنّهـم أذكياء وأصحـاب ثـروات ويُمكنُهم القيام بأعمـال إعلامية إذا لـزِم الأمـر، ومـع أنّ البريطانيّيـن الذيـن لديهـم أمـلاك فـي الأناضـول بإمكانهم أن يُقدّموا هـذا العرض لليهود، ولكن اليهود يُفضّلون في هذه المسألة أن يكونوا تحت حماية السُلطان العثمانيّ ورعايته مُباشـرة، وفي حالة قبُول الدّوْلـة العثمانيّة عروض اليهود فسوف يحصُلون على المُساعدات الماليّة من كبار المُستثمرين في العالم، وكذلك الدَّعْم المعنويّ من أكبر جرائد اليهود في أوروبا، هذه مسألة لا يُمكن تَجاهُلها في هذا الوَضْـع وفي هذا الوقت.

(فيينا، ٤ نيسان/أبريل ١٨٨١م) نيولينسكي".[١٠٠]

---

(١٠٠) BOA. Y PRK. TKM, ٣٨/٥١

(أ)



كان هذا هو طلب الصحفي مسيو نيولينسكي للسلطان العثمانيّ من أجل تخصيص أراض لليهود في فِلسطين

(ب)

يلدز سراى همايونى

باش كتابت دائره سى

[illegible]

وثيقة نيولينسكي

٤- هرتزل والأنشطة الصهيونية

إنّ فكـرة الصهيونية التـي ظهرت على يد هرتزل شـهدت تطوّرًا كبيرًا علـى مـدار القرن التاسـع عشـر الميـلادي، وتهـدُف إلى توطيـن اليهود فـي فِلِسـطين، وإنشـاء دولـة يهوديّـة مُسـتقلّة، والنُّهـوض بها عـن طريق المُنظمـات اليهوديّـة، ولم يَكُن لهرتزل السَّـبْق في هذه الفكرة، بل سـبقَهُ إليهـا "كالتشـر" و"هـس (*Hess*)" و"ألـكالاي"، وكذلـك "بـاروخ متراني (*Baruh Mitrani*)" -وكان يُدافـع عـن فكرة توطيـن اليهود في الأراضي المُقَدّسـة وإحياء اللّغُة العبريّة لتُصبح لُغة مُسـتخدمة- كان ينتمي إلى هذا التيّار؛ وقد اقترح هرتزل تأسيس مُنظّمتيْن إلى حين إقامة الدّوْلة اليهوديّة، أولهـا الجمعية اليهوديّة التي تتولّى القيام بالعمل السياسـيّ، وفَتْح قنوات الاتصـال مـع الـدُّوَل الأوروبيّة، وخَـوْض المعارك الدُبلوماسـيّة، وتكون بمنزلـة حُكومـة مُمثّلة من قبل اليهود، وثانيها شـركة تجاريّة تتولّى تهجير اليهود إلى فِلِسْطين وتوطينهم بها.[١٠١]

كان هرتـزل يُؤمـن بأنّـه من الضـروريّ اتّخـاذ تدابير وقواعـد جديدة فـي السياسـة الدُّوَليّـة وسياسـة الشـرق الأوسـط؛ لإقامـة دولـة يهوديّـة في فِلِسْطين، وكان يعتقدُ بأنّ أهم عُنصر في العلاقات الدُّوَليّة هو القوّة.

وقبـل المُسـاومات والمُفاوضات الدُبلوماسـيّة مـع الدَّوْلـة العثمانيّة والـدُّوَل الأوروبيّة شـعر هرتـزل أنّهُ بحاجة إلـى بنية تُوفّـر الدَّعْم الماديّ والمعنويّ، حتى يتمكّن من تنفيذ سياسـته الصهيونية، ففكّر بإنشاء جمعيّة تضُـمّ أثريـاء اليهود وزُعماء الجماعات اليهوديّة، ولمّا لم يسـتطع هرتزل

(١٠١) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٥٠-٥١.

أن ينال مُرادَه من مُقابلة البارون هرتش في بداية الأمر، ذهب لمُقابلة البارون "أدموند دي روتشيلد" إلاّ أنّ هذا اللّقاء الّذي تمّ في ١٨ تموز/يوليو ١٨٩٦م لم يُسْفِر عن شيء أيضًا، واستمرّ هرتزل في لقاءاته مع أثرياء اليهود.

حضر هرتزل إلى إسطنبول في حزيران/يونيو عام ١٨٩٦م لجسّ نبض السُّلطان عبد الحميد الثاني، وعَرض عليه مُقترحات، مثل حمَلات دِعائيّة في الصحافة الأوروبيّة لتحسين صورة السُّلطان العثمانيّ، وتسوية دُيون الدَّوْلة العثمانيّة المُستحقّة لدَى الدُّوَل الأوروبية مُقابل فتح باب الهجرة اليهوديّة إلى فِلِسْطين، وتمليكِها لهم تحت حُكم يهودي ذاتيّ، ولكن هرتزل لم يستطع مُقابلة السُّلطان عبد الحميد، وعَهِد إلى نيولنسكي بتقديم مُقترحاتِه إلى السُّلطان، لكن السُّلطان عبد الحميد الثاني رفض مُقترحات هرتزل خلال لقائه مع "نيولنسكي" قائلًا:

"إذا كان السيّد هرتزل صديقك كما أنت صديقي فانصَحْهُ بألاّ يخطو خُطوة أُخرى في هذا الموضوع، فأنا لا أقدرُ أن أبيع ولو شبرًا واحدًا من الأرض؛ لأنّها ليست مُلكًا لي بل هي لأمّتي، لقد دافع شعبي عن هذا الوطن، وافتداهُ وخضّبه بدمائه، ونحن على استعداد بأن نُدافع عنْهُ مرّةً أُخرى بدمائنا دون أن يقتطع منّا أو ينفصل عنّا.

لقد استُشهد رجالي من أفراد كتائب سوريّة وفِلِسْطين واحدًا تِلو الآخر في "بلونه (*Plevne*)"، وصمَدوا في ساحة القتال، ولم يتراجعوا قيْد أنْمُلة، إنّ الدولة العثمانية ليست مُلكًا لي، وإنّما هي مُلك للأمة، لا أستطيعُ أبدًا أن أُفرّط في أيّ جُزء منْها، ليحتفظِ اليهود بملايينهم، وإذا مُزّقت الدَّوْلة العثمانيّة فقدْ يحصل اليهود على فِلِسْطين بدون مُقابل، إلّا أنّها لنْ تُقسّم إلا على جُثتِنا، وإنّني لنْ أوافق على بَتْر جزء من جسدٍ حيّ".[١٠٢]

(١٠٢) ميم كمال أوكه، ص ٤١-٤٣. علي أرسلان، مصدر سابق، ص ١٠٧.

عاد هرتزل إلى فيينا، وهو يجرُّ أذيال الخَيْبة بسبب رَفْض السلطان لمُقترحاته، ولمَّا لمْ يستطع هرتزل أنْ يُحرز نجاحًا في اتصالاته مع الدَّوْلة العثمانيّة أو مع أثرياء اليهود فكَّر في استمالة عوامّ اليهود نحوه، واستخدام الكُتَل الجماهيرية والشعبية وَرَقة ضَغْطٍ من أجل إقناع أثرياء اليهود بمساندة الصهيونية.

رَغْم أنَّ هرتزل كان يتمتَّع بثقافة عصرية وأفكار عِلْمانية، إلّا أنَّ تعرّفه على بذاءة معاداة السامية، والعداء والاضطهاد الذي عايشه هو بنفسه تجاه اليهود خلال سنوات عمله مراسلًا لصحيفة ألمانية في باريس، كل ذلك دفعه إلى بذل جهود مُضْنية من أجل إنشاء دولة يهودية.

وبفضل هذه الجهود نجح هرتزل في تنظيم أول مُؤتمر للصهيونية العالمية في ٢٩-٣١ آب/أغسطس عام ١٨٩٧م في مدينة بازل السويسرية، وقدْ شارك في هذا المؤتمر أكثر من ٢٠٠ مندوب من مختلف الأطياف والتيارات، واجتمع أصحاب التوجُّهات والرُّؤَى المختلفة من مُتدينين وإصلاحيين ومُؤيدين لسياسة الاندماج في المجتمع تحت سَقْف واحد وراية واحدة، وانتهى المؤتمر بوضع خطّة عمَل للمنظمة الصهيونية تتمثل في القرارات الآتية، وهي باختصار:

١- إنشاء مزارع يهودية في فِلِسْطين، وتوطين العمال الزراعيّين والصُّناع والحِرَفيّين في هذه المزارع لتحقيق الأهداف المنشودة.

٢- تأمين مستوطنات لليهود في أماكن مناسبة، وتنظيمهم وتوزيعهم طبقًا لقوانين البلاد.

٣- تعزيز الشعور بالقومية اليهودية وإيقاظ الوعي اليهودي وتقويته.

٤- اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على موافقة الحكومة على هذه الأعمال والأهداف.(١٠٣)

---

(١٠٣) عُمَر توران، الشرق الأوسط نقطة صراع الحضارات، نشر بني شفق، ص ١٤٧-١٥٠

وأُقِرَّ في هذا المؤتمر تأسيس "المنظمة الصهيونية العالمية"، واختير هرتزل رئيسًا لها.

نجح هرتزل في عَقْد المؤتمر الثاني للمنظمة الصهيونية في مدينة بال في ٢٨ آب/أغسطس عام ١٨٩٨م من خلال حماسة المؤتمر الأول، وحضر ما يربو عن ٦٠٠ شخص، وعبَّر هرتزل في خطابه عن استنكاره لما أبداه بعض الحَاخامات من اعتراضات على الحركة الصهيونية، وضرورة وجود حلّ لهذا الأمر، فقال:

"إنَّ الأقوام والشعوب التي تؤمن بالتوراة الشريفة مُضطرون للتصديق على الحقوق اليهودية، وستحظى الأراضي الفِلسْطينية في وقت قريب بمكانةٍ تجاريةٍ وحضاريةٍ كبيرة في قارة آسيا، وستُشكل هذه المنطقة برامج استراتيجية للسنوات العشر القادمة في قارة آسيا، وكما تعلمون فإنَّ كل دولة تُتابع بعِناية فائقة مساعي الدُّوَل الأخرى وتحرّكاتها، وتضعها في عين الاعتبار، وإذا خرج أحد الحُكّام لزيارة الأراضي المُقَدسة فإنَّ أهالي كل البلاد يُولون أهمية كبيرة لهذا الحدَث، لقد أثبتت الدَّوْلة العثمانيّة في الحرب الأخيرة أنَّها لا تُقهر ولا تُهدم، إنَّ انضمام قوم مُجدّين في العمل ومسالمين ودعاة سلام سيُقوّي الدَّوْلة العثمانيّة، ويزيد من ثرواتها، فإذا انضمَّ الشعب اليهودي إلى الدَّوْلة العثمانيّة فإنّه سيزيد من قُوّتِها ويُضاعف من ثرَواتِها؛ فالدَّوْلة العثمانيّة تعرف مَنْ هم الأصدقاء المخلصون، وأشكال وطرق العمل".

وذكر هرتزل أنّهم لا يودّون الهجرة إلى فِلسْطين مُتسلّلين بطُرُق غير شرعية، وأنّهم سيطبّقون مبدأ -هات وخُذ- تجاه الدَّوْلة العثمانيّة، ثم تمَّت الموافقة على البرنامج الذي وضعه هرتزل.

أمَّا الرئيس الثاني للمؤتمر فقد ذكر ما يلي:

"للمرة الأولى بعد ثورة "باركوخبا (*Barkoça*)" يتّحد الشعب اليهوديّ، إلا أنَّ الذين هم يهود بالاسم فقط، والذين لا يُمكن اعتبارهم من الشعب اليهوديّ يُغذّون روح العداء ضِدّنا، إنَّ بعض الحَاخامات يغضُّون الطَّرْف عن حلم الدَّوْلة اليهودية في الكتب الدينية، وقدْ حدث هذا أيضًا في عَهْد النبي موسى عليه السلام الذي حرَّر أجدادنا من نِيْر العبودية في مصر، إنَّ معارضينا يُشكّلون أقلّية كما كانوا في عصر عزير ونحميا، ومن المُؤكد أنَّ مخالفينا سيتمُّ التخلص منهم، إنَّ الحديث عن وجود فِرْقة صهيونية في اليهودية أمرٌ لا قيمة له؛ لأنَّ الصهيونية تعني اليهودية، إنَّ شعب بني إسرائيل يُساندنا ويقف إلى جوارنا، أمَّا معارضونا فهم كُسالى وعديمو النفع وعَالةٌ على الشعب اليهوديّ".[١٠٤]

أنهى هرتزل هذا المؤتمر بسعادةٍ بالغة، وعمل على تسريع وتيرة هذه الأنشطة والأعمال، وأرسل هرتزل خطابًا إلى السلطان عبد الحميد الثاني بواسطة مُستشار الخارجية "أرتين باشا (*Artin Paşa*)" بتاريخ ٣٠ نيسان/أبريل ١٨٩٩م لتحقيق هذه الغاية، وقد ذكر في هذا الخطاب مايلي:

"أرجو أن تسمحوا لي بتقديم طلب لدى حضرتكم، وأن أُذكّركم بذِكْرى المرحوم السيد دونوليسكي، إنَّ السيد دونوليسكي كان مُخلصًا للدولة العثمانيّة ومُقرَّبًا من جلالة السلطان، وكان يعمل بمشاعر فيّاضة تنبُع من إخلاصه الكبير للصهيونية التي أمثلها منذ فترة.

إنَّ الصهيونية تهدف إلى إيجاد ملجأ شرعيّ وآمن ودائم لإخواننا البُؤَساء الذين يتعرَّضون للظلم والاضطهاد في البلاد المختلفة، وإذا سمَحتم فإنَّنا نتمنى أنْ يكون هذا الملجأ والملاذ

(١٠٤) Y. PRK. TKM, ٤١/ ٥

في فِلسْطين، إنَّ المهاجرين اليهود سيكونون من عبيد السلطان المُخلصين، وحتى هذا الوقت فإنَّه لم يرَ من رعاياه اليهود أيَّ سلوك سوى الخضوع والانصياع، وسيقومون بدفع الضرائب عن طريق المُؤسسات الجديدة التي ستُقام في البلاد، وسيعملون على زيادة مصادر الثروة في كلِ الولايات العثمانيّة بثرائهم ورفاهيتهم، سنُقرض الدَّوْلة العثمانيّة ملايين من الفرنكات بالشروط التي نتفقّ عليها في المُستقبل، وفي مُقابل هذه الخدْمات والتضحيات فإنَّ الشيء الوحيد الذي نطلبه هو جمع شَتات إخواننا البُؤَساء المُضطهدين، وأنْ يشعروا بالأمن والأمان إلى الأبد في إطارٍ من التوافق والتعايش يسمح لهم بالعمل بالطُّرُقِ المشروعة، تمَّت مُناقشة هذه الأفكار ومسألة ارتباطنا بالسلطنة العثمانيّة في مؤتمر الصهيونية الذي عقد بمدينة "بال (*Ball*)"، وتمَّت الموافقة عليها.

وفي حالة الموافقة على طلباتنا فإنَّ المساعدات المالية التي سنُقدّمها لحكومتكم لنْ تقتصر على القروض والضرائب والرسوم، لكنَّها ستمتدّ لإصلاح الوضع الماليّ والاقتصاديّ للدولة العَليّة بشكل كبير.

يجب عليكم أنْ تتخلصوا من إدارة الديون العمومية، وتبدؤوا مرّة أخرى في الاستفادة من مصادر الثروة في بلادكم، وحتى ينجح هذا الأمر فلا بدَّ من العمل بسرّية وشجاعة، وفي جوّ من الهدوء والثقة والأمن؛ لأنَّ أعداءكم لن يكونوا راضين عن استرداد الدَّوْلة العثمانيّة لمكانتها واستقلالها الماديّ.

حتى هذه اللحظة فإنَّ من يُقدّمون المُساعدات المالية للدَّوْلة العثمانيّة يحصلون منكم على فوائد كبيرة جدًّا، ويجعلونكم عُرْضة للتدخُّل والوصاية الأجنبية، وبعد أنْ يجعلوا بلدكم أكثر فقرًا واحتياجًا من قبل فإنَّهم يتركون البلاد، ولكنَّ الوضع معنا مختلف تمامًا، إنَّكم ستحصلون على مُساعداتنا المادية

بشروط مُناسبة ومُيسرة، فرغبتنا أنْ تتخلصوا من الإشراف والوصاية الأجنبية عليكم، ولنْ نترككم ولنْ نتخلّى عن دَعْمكم، فنحن نُريد أنْ يرتبط مُستقبلنا بمُستقبلكم.

لقد أُنشئ بنك المستعمَرات العثمانيّة في لندن من أجل تنفيذ هذه المبادرات المالية المذكورة، وستقوم هذه البنوك بدور الوسيط، لقد اتُّخذت الإجراءات الضرورية من أجل البنوك التي سيتمُّ إنشاؤها في المستقبل.

وإذا لم تتوفّر إمكانية للاتفاق أو لم يتضح ما هو ضروريّ وغير ضروريّ لإجراء الشروط المذكورة في بلد آخر وتنفيذها، فإنّنا لن نتقدّم أكثر إلى الأمام، وفي حال لاقت مُقترحاتنا قبولاً لديكم فإنّني سأحضر بنفسي.

تيودور هرتزل

فيينا- ٣٠ نيسان/أبريل ١٨٩٩م.[١٠٥]

(١٠٥) BOA. Y. MTV, ٢٨٥/١٦٢

(ا)

خارجیه مستشاری اتبه‌سی چاقرلرینه

دولتلو [illegible] طرفندن وارد اولان تحریراتك ترجمه‌سی

مترقی مسیو دوفرلینسکی‌نك خاطره‌سنی یاد ایتمكله سزه مراجعت ایتمكلكمه مساعده بیلمكزی رجا ایدرم مسیو دوفرلینسکی
اصدقای جدکاری حضرت پادشاهیده وصمیمی خیرخواهان دولت علیه‌دن ایدی بر مدتدنبرو عاجزانه وكالتنی ایتدیكم
[illegible] ایچون بو احتساسات صادقانه‌یه [illegible] باكمال غیرت ترویج ایتمسه ایدی [illegible] حالات مختلفه
تفصیلیه ایدیلان محاربه فرنساسزلرده دائمی واسطه ومشروع برملجا [illegible] کتوریلك مقصدیله خارجده
موافقت سنیه‌نك استحصالی ممكن اولور ایسه ملجا مذکورك فلسطینده [illegible] ایجابونه موجود
[illegible] بونه وكیله تبعه موسویلرینه هیچ بروقت صفت عبودیته مغایر برشغل وحرکته کیریشمه اولوبه [illegible]
شوکتسمات حضرت [illegible] تبعه صادقلرینه اولاجقدر ومملکتده تشکیل ایده‌جکلری موسسات جدیده
مصرفیله عموم وتكالیف تادیه ایده‌جکلر وکندی رفاه وسعادتلریله برابر بو ولایت معموره‌نك وکافه
حالات محروسه‌نك دخی منابع ثروتی ترقی ایده‌جکلردر [illegible] مکتوب سنیه‌یی [illegible]
[illegible] بو صفت وفداكارلغه مقابل طلب
ایده‌جکلری شی [illegible] فرنساسزلرك [illegible] تأمل اولنه‌جقدر [illegible]
[illegible] بال شهرنده اجتماع ایده‌جك [illegible]
[illegible] کافه‌سی [illegible]
[illegible] شوکتسمات حضرت [illegible] عبودیت [illegible] دولت علیه‌ده
[illegible] قبول [illegible] سنیه‌یی ایفا ایده‌جکلر سعادت حالیه [illegible] تكالیف [illegible]
[illegible] احوال مالیه دولت علیه [illegible] تماما کسب [illegible]
[illegible] ومنابع ثروتنه استفاده [illegible] کیفیت [illegible]
[illegible] موفقیت کامله‌یی [illegible]
[illegible] دولت علیه‌نك [illegible] قوت

[illegible]

دوقتور تئودور هرتزل

آدرسی

ویانه‌ده ... قارل لودویغ ...
... ۵۰

Wien Währing Carl Ludwigstrasse 50

الخطاب الذي أرسله هرتزل إلى السلطان عبد الحميد الثاني

قــام هرتــزل بدِعاية فــي كل العواصم الأوروبية عــدا باريس، فلم يكن يُريــد أنْ يُقيــم علاقة مــع فرنســا بصفتها مُدافعة عن الحقــوق اللاتينية في فِلِسْطين، واتَّخذ السلطان عبد الحميد خان التدابير اللازمة حِيال هذا الأمر، وفي آب/أغسطس عام ١٨٩٨م أصدر مرسومًا ووزّعه على مُمَثلي الدُّوَل الأجنبية في فِلِسْطين من خلال حاكم القُدْس، وأبلغهم فيه أنّه محظور على كل اليهود الدخول إلى فِلِسْــطين دون تمييز جنسياتهم، وعلاوة على ذلك فإنَّــه فــي نفــس العام وبوســاطة "محمد ويــب (*Webb*)" زعيــم الأمريكان المسلمين الذي يحظى بتأثيرٍ كبير في أمريكا، نجح عبد الحميد في الوصول إلــى "ريتشــارد جوتهــل (*'Richard Gottheil*)" زعيم اليهــود الأمريكان، ودعــاه إلــى التخلّــي عــن حلــم تهجيــر اليهــود وتوطينهــم في فِلِسْــطين، وقامــت الدَّوْلــة العثمانيّة بإجراء اتصــالات مــع المتدينيــن والإصلاحيين مــن الجماعــات اليهودية خاصة في روســيا وأمريــكا، وبيّنت لهــم أنّه إذا قامت دولة يهودية في فِلِسْطين، فإنَّه ستُصادر جميــع ممتلكاتهم في الدُّوَل التي يعيشون فيها مرفَّهين، وأنَّه سيتمُّ تهجيرهم إلى فِلِسْطين التي لا تمتلك إمكانيــات مادية، وخاصة أنَّ فقْــدان عضوية الاتحاد الصهيونيّ في أمريكا له مداخلات مُؤثّرة ومُهمّة.(١٠٦)

ورَغْــم وضــوح موقــف الدَّوْلــة العثمانيّــة حِيال فِلِسْــطين فــإنَّ هرتزل لــمْ يتراجــع عن موقفه، وحاول بشــتى الطُّرُق والوســائل إقناع الســلطان عبــد الحميــد الثانــي للموافقــة علــى اقتراحاتــه، وقبــل أنْ يتوجَّــه هرتزل إلى السلطان عبد الحميد من أجل موضوع فِلِسْطين أراد هرتزل أنْ يستفيد من وســاطة الإمبراطور الألمانيّ "ويلهــام الثاني (*Wilhelm II*)" الذي كان يتبنى سياســة الانفتاح على الشــرق، ويُولي أهمية كبيرة لمُناســبات الدَّوْلة العثمانيّة ومراسمها في ذلك الوقت، وفي تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٨٩٨م

(١٠٦) ميم كمال أوكه، مصدر سابق، ص ٧٠-٧٧.

أثناء زيارة الإمبراطور للدَّوْلة العثمانيّة سنَحت الفُرْصة لهرتزل، ونجح في التحدُّث مع الإمبراطور ويلهام الثاني في إسطنبول، ووعده الإمبراطور ويلهام بأنّه سيُناقش مسألة توطين اليهود في فِلِسْطين مع السلطان عبد الحميد، التقى هرتزل بالإمبراطور الألمانيّ مرّةً أخرى أثناء زيارته لسوريا وفِلِسْطين، ولكنَّ اللقاء لم يُسْفر عن شيء.

ولمّا رأى الإمبراطور الألمانيّ أن آراء هرتزل في إسطنبول معقولة، فاتحَ السلطان عبد الحميد في هذا الموضوع، إلا أنَّ وساطته لم تُجْدِ نفعًا ولم تُفلح، ونتيجة لهذا الأمر بدأ هرتزل في البحث عن حلول سياسيةٍ جديدة.(١٠٧)

وبناءً على مواقف اليهود المُتعنّتة حِيال مسألة توطينهم في فِلِسْطين مُقابل المُساعدات المالية التي ستُقدَّم للدَّوْلة العثمانيّة، فقدْ عبَّر علي "فروح بك (Ferruh Bey)" سفير الدَّوْلة العثمانيّة لدى واشنطن عن موقف بلاده إزاء هذا الموضوع في تصريحه لصحيفة محلية في ٢٤ نيسان/أبريل ١٨٩٩م؛ إذ قال:

> "ليس لدى حكومتنا أيّ نية في بيع أي جزء من الأراضي العربية، ولو جاؤونا بمِلْء الأرض ذهبًا فلن نتزحزح عن موقفنا قيد أنملة".

وأضاف فروح بك أنَّ مسألة شراء فِلِسْطين ليست مالية، ولكنَّها مسألة سياسية.(١٠٨)

ورَغْم وضوح موقف الدَّوْلة العثمانيّة في توطين اليهود في فِلِسْطين، فإنَّ هرتزل كان يعتقد أنّه يُمكن إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بالمُقترحات التي سيعْرِضها عليه عند مُقابلته شخصيًّا، ظلَّ هرتزل

---

(١٠٧) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٠٨.

(١٠٨) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٠٨.

بدون وسيط بعد موت نيولينسكي، وأرسل خطابًا إلى عزت باشا الكاتب الثاني لقصر السلطان -وقد تعرّف عليه أثناء زيارته الأولى لإسطنبول- يُعبّر فيه عن رَغْبته في لقاء السلطان عبد الحميد الثاني شخصيًا، لكنَّ هرتزل لم يتلقّ أيّ ردٍّ منه، وبناءً على هذا اتصل هرتزل بـ"أرمينيوس فامبري (*Arminius Vambery*)" اليهوديّ المجَريّ الأصل والمُهتمّ بالشأن العثماني، واستطاع هرتزل أنْ يحصل على موعدٍ لمُقابلة السلطان عبد الحميد شخصيًا عن طريق وساطة فامبريّ الذي حصل على خمسة آلاف قِطْعة ذَهَب مُقابل ذلك.



زيارة الإمبراطور الألماني ويلهام الثاني

(مكتبة الآثار النادرة بجامعة إسطنبول، رقم التسجيل/ ٩٠٦٥٢-٢٠)

في ١٩ أيار/مايو ١٩٠١م التقى هرتزل بجلالة السلطان في سلاملك قصر يلدز، ومن خلال ترجمة إبراهيم بك مسؤول التشريفات في القصر شرح هرتزل للسلطان عبد الحميد ما يتعرّض له أبناء جنسه منْ ظلم واضطهاد في الدُّوَل الغربية، وقدَّمَ عرفان اليهود وشكرهم للسلطان عبد الحميد لعدالته وحسن معاملته لرعاياه اليهود، وبناءً على ذلك أجاب السلطان عبد الحميد الثاني أنَّ أبواب الدَّوْلة العثمانيّة مفتوحة للمهاجرين اليهود، وذكّر هرتزل السلطان عبد الحميد بأنَّ ما تمتلكه الدَّوْلة العثمانيّة من أراض خَصْبة وثَرَوات طبيعية كالذهب والفضة وحقول البترول الشاسعة في بلاد ما وراء النهر "الرافدين" يُمكن أن يُسهم في ازدهار الاقتصاد، وأن يضع القدرة الاقتصادية للدَّوْلة العثمانيّة في مركزٍ مُتقدّم، ولكن كل هذه الثروات يتمُّ احتكارها واستنزافها من قِبَل الدُّوَل الأوروبية، وأوضح هرتزل بأنَّ الصُّنَّاع الألمان المُوكل إليهم مشروع سكك حديد بغداد -برلين، والمصرفيّين الفرنسيّين الذين يُسيطرون على إدارة الرِّيجي لاحتكار التبغ، والذين يحصلون على امتيازات أُخرى لا يُفكرون في مصالح الدَّوْلة العثمانيّة أبدًا، ولكنَّهم يرغبون في مَلْء جيوبهم وتحقيق المكاسب والأرباح فقط، وذكر هرتزل أنَّ الدُّوَل الكُبرى تُعِيق النهوض الاقتصادي للدَّوْلة العثمانيّة حتى تتمكن من فَرْض الوصاية عليها، وأنَّه في حالة قبولكم توطين اليهود في فِلِسْطين فإنَّهم سيُسخِّرون كل إمكانياتهم وقُدُراتهم ومعلوماتهم لخدمة الدَّوْلة العثمانيّة، إنَّ اليهود بإمكانهم تحرير مالية الدَّوْلة العثمانيّة من رقّ الوصاية الغربية، وإجراء حمَلات ومُبادرات اقتصادية تُسهم في ازدهار الدَّوْلة العثمانيّة، أنصتَ السلطان عبد الحميد بعِناية لكلام هرتزل، وطلب منه إعداد خطة من أجل توحيد ديون الدَّوْلة العثمانيّة، وبعد شهر من مُغادرته إسطنبول عرَض هرتزل خِطَّته على السلطان عبد الحميد.[١٠٩]

---

(١٠٩) ميم كمال أوكه، مصدر سابق، ص ٤٣-٤٧.

إنَّ الترحيب الذي أبداه السلطان عبد الحميد يرجع إلى اهتمام الإمبراطورية المجَرية -النمساوية بقضية مَقدونيا، ولهرتزل دور كبير فيها لكونه مُراسلًا لصحيفة الحرية الجديدة، وهي مُؤثِّرة في تلك الدُّوَل؛ لذلك قلَّد السلطان عبد الحميد هرتزل وِسام المَجيدية من الدرجة الأولى في نهاية هذا اللقاء، وأهداه دبّوسًا لرابطة العُنُق مُرصَّعًا بالأحجار الكريمة.(١١٠)

أدرك اليهود أنَّه لا يمكنهم إقناع السلطان عبد الحميد بمطالبهم بالطُّرُق العادية، وأنَّ السلطان عبد الحميد يُمثِّل عقَبة كبيرة أمام تحقيق آمالهم، فبدؤوا بالبحث عن وسيلة للإطاحة بالسلطان عبد الحميد عن الحُكْم؛ وتغلغلوا في جماعة "تركيا الفتاة" لتنفيذ هدَفهم، واستغلّوا إيمانويل قراصو الذي له دور كبير في جمعية الاتحاد والترقي، وسخرّوه لصالحهم، وفي ١٧ أيلول/سبتمبر عام ١٩٠١م ترأس إيمانويل قراصو وفدًا صهيونيا لمُقابلة السلطان عبد الحميد، وعرَض عليه تقديم ٢٠ مليون ليرة مُقابل توطين يهود روسيا المُضطهدين في فِلِسْطين وتمتُّعهم بحُكْم ذاتيّ، إلا أنَّ السلطان عبد الحميد غَضِب من هذه الاقتراحات، وقام بطَرْد الوفد.(١١١)

وفي عام ١٩٠٢م استدعى السلطان عبد الحميد هرتزل إلى قصر يلدز، وأبلغه بأنَّه يسمح لليهود بالإقامة في كافة أنحاء الدَّوْلة ما عدا فِلِسْطين، واشتغالهم في كافة أنواع المعادن واستغلالهم لها، إلا أنَّ هذا الاقتراح لم يُرِح هرتزل ولم يُعجبه، وأصرَّ على فِلِسْطين(١١٢)، وكانت الاقتراحات المُقدَّمة إلى هرتزل هي:

"أولا: أنه يُسمح لليهود بالهجرة، لكن شريطة ألا يتجمَّعوا في مكان واحد، وأنْ لا تكون أعدادهم كبيرة، وأنْ يتفرّقوا في المُدن التي تُحدّدها لهم الحكومة من الأناضول والعراق، وأنْ

(١١٠) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٠٩-١١٠.

(١١١) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١١١.

(١١٢) ش. طوفان بوزبينار، مصدر سابق، ص ١٥٠-١٥٥.

يخضعوا لقوانين ونظام الدَّوْلة العَليّة، وأنَّهم يُكلّفون بتأدية الخدمة العسكرية في الدَّوْلة العثمانيّة كالعثمانيّين، وأنه ينبغي أن يحصلوا على التصاريح والمُوافقات الرّسميّة من قِبَل الحكومة.

ثانيا: وفي مُقابل هذه الامتيازات يقترح السلطان العثمانيّ إنشاء صندوق ماليّ يهوديّ لخدمة الحكومة ومُساعدتها في المواد التالية، على أنْ تكون إدارة هذا الصندوق مُشتركة بين المسلمين واليهود رعايا الدَّوْلة العثمانيّة، وأنْ تُؤسّس شركة عثمانية محلية للاستفادة من كافة الثروات المعدنية في الدَّوْلة العثمانيّة، وأن تُقدّم تسهيلات كبيرة في مسألة توحيد الديون ومعالجتها بشروط يسيرة ومُجْدية للدَّوْلة العَليّة.

ثالثا: أن تقترض الدَّوْلة العلية المبالغ التي تحتاجها للمشاريع الهادفة بأيسر شروط وأقلّ فائدة".

وبعد أن أُبلغ هرتزل بهذه الاقتراحات ردَّ قائلًا:

"لقد تلقيت مُقترحاتكم ورغَباتكم بكلّ تقدير وإجلال، إلا أنّني أعتذر عن عدم قبولي لهذه الشروط السالفة الذكر، لكنّني مُستعدٌّ للتفاوض في أيّ وقت من أجل بحث المُقترحات الأُخرى.

توقيع/ د. ثيودور هرتزل.(١١٣)

قَبِل السلطان عبد الحميد بمُقابلة هرتزل بصفته وسيطًا يُوفّر قنَوات الاتصال الضرورية مع المصرفيّين والبنوك اليهودية لتسوية ديون الدَّوْلة العثمانيّة، لا على أنه زعيم للصهيونية، وفكّر السلطان عبد الحميد في الاستفادة من اليهود لدفع ديون الدَّوْلة العثمانيّة، وتحرير مالية الدَّوْلة من سيطرة هيئة الديون العُموميّة.

---

(١١٣) BOA. Y.PRK.TŞF, ٦/٧٢

غادر هرتزل إسطنبول عام ١٩٠٢م، والتقى بعدها مع "جوزيف شامبرلن (*Joesph Chamberlain*)" وزير المستعمَرات البريطانية، واقترح عليه إنشاء مُستوطنات لليهود في مدينة العريش في شبه جزيرة سيناء بحُكم مُلاصقتها لفِلِسطين، إلا أنَّ شامبرلن رفَض هذا الاقتراح، وعرَض عليه مكانًا آخر، لكن هرتزل ردَّ عليه مُشيرًا إلى فترة وجود بني إسرائيل في مصر:

"سيدي الوزير نحن لن نذهب إلى هناك بل كنا هناك من قبل".

ولمَّا علمت الحكومة المصرية والدَّوْلة العثمانيّة برَغْبة اليهود في العريش، اعترضوا بشدّة على هذا الأمر، وبهذا أُغلقت مسألة العريش.[١١٤]

دعَتِ الحكومة البريطانية هرتزل لزيارة لندن في عام ١٩٠٣م، وعرَضتْ عليه إقامة وطن قوميّ لليهود في أوغندا -إحدى المُستعْمَرات البريطانية في شرق إفريقيا-، ووافق هرتزل على هذا الاقتراح إلا أنَّه أحدث خلافات كبيرة بين اليهود؛ لأنَّ كثيرًا من زعماء الصهيونية لم يقبلوا بديلًا عن فِلِسطين، وعلى رأس هؤلاء "حاييم وايزمان (*Chaim Weizmann*)" زعيم يهود روسيا المعروفين بـ "أوستجودين (*Ostjuden*)"؛ إذ رفضت هذه الجماعة في مؤتمر الصهيونية السابع الذي عقد في ٢٧ تموز/يوليو ١٩٠٥م اقتراح إنجلترا إقامة وطن قوميّ لليهود في أُوغندا رفضًا قطعيًّا، وقرّروا أنَّهم لن يقبلوا أيّ اقتراح بإنشاء وطن قوميّ لليهود غير فِلِسطين، وكان عقد المُوتمر الصهيوني الأول وإنشاء المُنظمة الصهيونية العالمية قد شكّلا أول خطوة وأهمّها في طريق الحركة الصهيونية، وكان قرار المؤتمر الصهيونيّ السابع بعدم قبول وطن قوميّ لليهود بديلًا عن فِلِسطين هو ثاني خطوة مهمة نحو الحركة الصهيونية.

(١١٤) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١١٢-١١٣.

لقد كرَّس تيودور هرتزل حياته من أجل إقامة وطن قوميّ لليهود في فِلِسْطين، إذ تزعّم يهود العالم، وعَمِل على توحيدهم وتنظيمهم، وقد حاول مرارًا إقناع السلطان عبد الحميد الثاني بتحقيق حلم اليهود، مات هرتزل في ٣ تموز/يوليو عام ١٩٠٤م دون أنْ يحصل على نتائج ملموسة من المُفاوضات التي أجراها مع الدَّوْلة العثمانيّة، وربَّما مات هرتزل دون أنْ يُحقّق حُلمه، لكن الطريق الذي سلكه حاز أهمية كبيرة نحو إقامة دولة يهودية.(١١٥)

تولَّى "ديفيد ولفسون (*David Wolffsohn*)" زعامة المنظمة الصهيونية بعد وفاة هرتزل، وكان له في شبابه نشاط كبير في جمعية مُحبّي صهيون، ثمَّ قام بعد ذلك بالعمل مع هرتزل، حضر ولفسون إلى إسطنبول في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٠٧م، وقام بعَرْض مُقترحات جديدة على الدَّوْلة العثمانيّة، وهي:

- توطين ٥٠٠٠٠ عائلة يهودية في فِلِسْطين خارج القُدْس.
- أنْ تقبل هذه العائلات تبعيّتها للدولة العثمانيّة، وأن تخضع لقوانينها.
- أنْ يُؤدي اليهود الخدمة العسكرية مثل العثمانيّين، ولكن يُعفون من الضرائب.
- تحُدّد الحكومة العثمانيّة أماكن الاستيطان، وتُوزّع الأراضي المملوكة والمُسجّلة باسم المنظمة الصهيونية على المستوطنين اليهود في أقصر وقت ممكن.
- يدفع اليهود مُقابل هذه الامتيازات مليوني جنيه إسترلينيّ لصالح الدَّوْلة العثمانيّة.

---

(١١٥) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١١٣-١١٤.

رفضت الدَّوْلة العثمانيّة هذه المُقترحات إلا أنَّها سمَحت لليهود بإنشاء بنك في إسطنبول، وتولَّى "فيكتور جاكوبسون (*Victor Jacobson*)" – مدير بنك إنجلترا فِلِسْطين في بيروت– إدارة هذا البنك الذي أُنشئ باسم "الشركة المصرفية الإنجليزية المتحدة (*Anglo-Levantine Banking Company*)"، واعتبر اليهود هذا البنك مُمثلًا عنهم في عاصمة الدَّوْلة العثمانيّة، وجعلوا الدكتور جاكوبسون سفيرهم هناك.

ورَغْم أنَّ ولفسون لمْ يُفلح في المُقترحات التي قدمها للدُّوْلة العثمانيّة في توطين اليهود في فِلِسْطين، فإنَّه قد قام بعد ذلك بافتتاح بنك يتولى العلاقات الدبلوماسية ويُعززها.(١١٦)

ورَغْم كل الجهود التي بذلها السلطان عبد الحميد والتدابير والإجراءات التي اتخذتها الدَّوْلة العثمانيّة، فقد نجح الصهاينة في توطين آلاف اليهود في فِلِسْطين، وارتفع عدد اليهود الذين يعيشون في فِلِسْطين عام ١٩٠٨م –وهو العام الذي صدر فيه الإعلان الدستوري– إلى ثلاثة أضعاف ماكان عليه عند تولي السلطان عبد الحميد الثاني الحُكْم عام ١٨٧٦م؛ وذلك بسبب زيادة عدد المهاجرين الذي وصل إلى ثمانين ألف يهوديّ، ونجح اليهود حتى هذا التاريخ بإقامة ٣٣ بُؤْرة استيطانية وشراء أربعين ألف دونم.(١١٧)

---

(١١٦) ميم كمال أوكه، ص ٤٨–٥٠.

(١١٧) ميم كمال أوكه، ص ٨١.

٥- اليهود وجمعية الاتحاد والترقي

إنَّ عدم حصول اليهود على تنازلات من قِبَل السلطان عبد الحميد الثاني في مسألة توطين اليهود في فِلِسْطين، جعلهم يُعلّقون آمالًا كبيرة على إعلان المشروطية الثانية؛ لأنَّ صعود جمعية الاتحاد والترقي إلى سُدّة الحُكْم بشعارات الحرية الجديدة أوجد مناخًا إيجابيًّا أكثر من ذي قبل، فقد قامت بإلغاء تصريح الدخول -وهو البطاقة الحمراء- الذي فرضه السلطان عبد الحميد على من يرغبون في زيارة القُدْس، كما أنَّها فتحت الباب على مِصْراعيه لشراء الأراضي في فِلِسْطين، إلا أنَّ هذا الوضع لمْ يستمرّ طويلًا، وخاصةً بعد واقعة ٣١ آذار/مارس؛ إذ شعرت جماعة "تركيا الفتاة" بالقَلَق إزاء زيادة دعاوي الأقليات من أجل الاستقلال والحُكْم الذاتي، ووضعت قوانين وقيود جديدة صارمة، وكان أهمّ سبب لاتخاذ جماعة "تركيا الفتاة" هذا الموقفَ تجاه الصهيونية، هو أنَّها لمْ تكن تسمح بميلاد حركة انفصالية جديدة في الوقت الذي كانت النَعَرات القومية تُهدّد الدولة العثمانيّة، إلا أنَّ ما يخافون منه حدَث في جبهة أخرى؛ فقد تطوّرت دعاوى القومية العربية في تلك الفترة على صورة جمعيات سِرّية مُؤثّرة؛ من أجل الحصول على الاستقلال وخصوصًا في سوريا ولبنان، إنَّ المُطالبين بهذه الدعاوي كانوا لا يرغبون بالحُكْم الصهيونيّ اليهوديّ محلّ الحُكْم العثمانيّ في فِلِسْطين، وعارضوا النظام العثمانيّ الذي لم يتمكّن من إيقاف هجرة اليهود إلى فِلِسْطين، وبذلوا كل ما في وُسْعهم لمَنْع اليهود من إنشاء المُستعْمَرات في فِلِسْطين في ذلك الوقت؛ ولهذا لم يكن وجود الفِلِسْطينيين على رأس دُعاة القومية العربية ضدّ العثمانيّين من قبيل المُصادفة.



خلال افتتاح المدرسة الصلاحية "الأيوبية" في القدس (١٩١٦)

(الأوائل من اليمين إلى اليسار): *Von Schellendorf*، أنوَر باشا، جمال باشا

(*Kong. Ktp. LC-DIG-ppmsca*-١٣٧٠٩-٠٠٠٧٢)

إنَّ مـن أسـباب تطوّر ردود الفعل العربيـة ثمّ تحوّلها إلى حركة قومية مـع الوقـت، هو زيـادة بيع الأراضي لليهـود رَغْم كل القيـود والقوانين، وأغدقـت المُنظمـات الصهيونيـة كثيـرًا مـن الأموال في فِلِسْـطين لشـراء الأراضـي، مثل الصنـدوق القوميّ اليهوديّ الذي أُنشـئ في عام ١٩٠١م، وقام بعض أصحاب الأملاك من العرب الذين أغوتهم شهوة المال ببيـع ما تحت أيديهم من أراضٍ، أمَّا الحكومة المركزية فقد انشـغلت بالصِّراعات الداخليـة والخارجيـة، ولـم تتمكن مـن التصدي لهذه التطـورات؛ ونتيجة لهذا فقد ناهضت القومية العربية الاستيطان اليهوديّ الصهيونيّ.

إنَّ من أهم عناصر التنافس على فِلِسْطين والصراع بين القومية العربية والقوميـة اليهوديـة، هو تدخُّـل القُوى الأوروبية التي لهـا مصالـح مختلفة في هذه المنطقة الحيوية؛ إذ إن بعض الدُّوَل الغربية -وعلى رأسها إنجلترا- لـم تتـوانَ عن دَغْـم هذين التياريـن دون التفكيـر في تعـارُض الصهيونية مـع القومية العربية في المُستقبل، واستغلّت الحرَكات القومية والانفصالية عـن طريق الوسـائل الدبلوماسـية الخارجيـة؛ لتتمكن من احتـلال منطقة الشـرق الأوسط التابعة للدولة العثمانيّة، ووفَرت الحِماية لهذه الحركات، وأقامت مناطق نفوذ داخل الدَّوْلة العثمانيّة عن طريق العناصر التي تتعاون معها، وهيّأت من خلالها مناخًا يُمكّنها من تقاسُـم ميراث الدولة العثمانيّة فيما بينها بعد تقسيم الدَّوْلة العثمانيّة.(١١٨)

أثنـاء الحـرب العالميـة الأولى قامت القُـوى الأوروبية التـي تُعارض التحالُـف الألمانيّ العثمانـيّ بتحريض العناصر غير التركيـة داخل الدَّوْلة العثمانيّة، وعلى رأسـها الصهاينة ضدّ نظـام الحُكْم العثمانيّ، وفي النهاية نجحوا في اختراق الدَّوْلة عن طريق أنشطة الطابور الخامس وتمرّد الأتراك الذين لم يحقّقوا النصر على الجبهة.

إنَّ تعَهُـدات هـذه الدُّوَل للعرب أو لليهود حتـى تحصل على تأييدهم فـي الحـرب جعلـت الموقـف الفِلِسْـطيني أكثـر تعقيـدًا، فقـد قطعـت إنجلتـرا فـي ١٩١٥م-١٩١٦م وعـودًا كبيرة للعرب من أجـل تحريضهم علـى الدَّوْلـة العثمانيّـة؛ إذ جـاء فـي المراسـلات بيـن الشـريف حسـين و"مكماهون (*McMahon*)" أنَّه مُقابل تقديم العرب الدَّعْم لقوات الحلفاء فإنَّهـا تتعَهَـد باسـتقلال الأراضي العربية، إلا أنَّ عدم ذكر اسـم فِلِسْـطين صراحة قد أثار شيئًا من الغموض، ورَغْم هذا فإنَّ الشريف حسين لم يُدرك أن هـذه التعَهُّدات هـي خداع ووعود زائفة، وقام بالثـورة على العثمانيّين مـن خلال مُسـاعدة دُوَل التحالف، وقامت إنجلترا وفرنسـا رَغْم تعارض

(١١٨) قاراماان، مصدر سابق، ص ٩٤.

مصالحهما بإعداد مُعاهدة سرّية مُشتركة بينهما في أيار/مايو عام ١٩١٦م بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وطبقًا لهذا الاتفاق الذي عُرف بمعاهدة "سايكس بيكو (*Sykes-Picot*)" قسّمت إنجلترا وفرنسا الأراضي العربية إلى منطقتي نفوذ إنجليزية وأخرى فرنسية، وحنثتْ بوعودها في إقامة دولة مستقلة للعرب، ووضعتْ الأراضي الفِلِسْطينية التي لم يتمّ الاتفاق عليها تحت إدارة دولية، لقد استمرّ اليهود بالعمل المُمنهج والتخطيط خلال الحرب العالمية الأولى من أجل تحقيق أهدافهم، فقدّموا الدَّعم لدولة إنجلترا، وخاصة أن جهود الدبلوماسيّ اليهوديّ "حاييم وايزمان" الذي كان في إنجلترا آنذاك قد أحدثت تقاربًا كبيرًا بين إنجلترا واليهود.

إنَّ من الأدلة على خِداع الإنجليز للعرب بالوعود الزائفة هو الخطاب الذي كتبه "بلفور" وزير الخارجية البريطاني إلى اللورد روتشيلد باسم اتحاد الجمعيات الصهيونية التي تهدف إلى إقامة وطن قوميّ لليهود في فِلِسْطين، وعُرف هذا الخطاب بـ"وعد بلفور"، فقد جاء فيه أنَّ بريطانيا تتعَهّد بالدفاع عن إقامة وطن قوميّ للشعب اليهوديّ في فِلِسْطين، وأنَّه لا مَساس بحقوق غير اليهود الدينية والمدنية هناك، وأنَّها ستبذل قُصارى جهدها من أجل تحقيق هذا الهدف.

وفي الوقت الذي وعدت فيه إنجلترا بإقامة وطن لليهود في منطقة لا تمتلك حقّ التصرف فيها، كان ٩٠ ٪ من سكان فِلِسْطين من العرب وامتلاك اليهود للأراضي لا يتعدّى ٢ ٪، ورَغْم هذا التعارض طمأنت إنجلترا العرب بأنَّ هذا الوعد لا يعني إقامة وطن لليهود، وأنَّها ستدعم إقامة دولة عربية مُستقلة مُوحّدة.

وفي ٣١ تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩١٧م تمكَّن الجيش البريطاني بقيادة الجنرال/مشير "اللنبي (*Allenby*)" من احتلال منطقة "بِئْر سبع"، ولم يفلح الفيلق العسكري الجديد من الجبهة العثمانيّة في الدفاع

عن القُدْس، واحتلها الجنرال اللنبي في ١١ كانون الأول/ديسمبر، وعندما وَطِئت قدماه أرض القُدْس قال:

"اليوم انتهت الحروب الصليبيّة"

وبعد سقوط القُدْس على يد الإنجليز احتلوا كافة الأراضي الفِلِسْطينية بحلول عام ١٩١٨م، وبهذا انتهى الحُكْم الفعليّ للدولة العثمانيّة، وطُويت صفحة الخلافة الإسلامية التي استمرّت لقرون صُبغت خلالها المنطقة بهوية عربية إسلامية.[١١٩]



جنود عثمانيون يرفعون الراية في غزة

(Kong. Ktp. LC-DIG-ppmsca-١٣٧٠٩-٠٠١١٦)

(١١٩) – قارامان، مصدر سابق، ص ٩٤.

٦- الجمعيات اليهودية وأنشطتها

إنَّ رغبة اليهود في العيش في فِلِسطين جمعتهم على كلمة واحدة، وتحت راية منظمات تشترك في نفس الهدف، ولكن بأسماء مختلفة، كان "الاتحاد الإسرائيليّ العالميّ" الذي أسس في باريس عام ١٨٦٠م من أجل مُساعدة اليهود المُضطهدين في كافة أرجاء العالم، هو أول مُنظمة تتبنى محاولات تهويد فِلِسطين، ثمَّ تبعتها مُنظمة "عِبْرانيو لندن" التي أُسست في لندن بعد ذلك بعام واحد، وعلى إثر مَوْجة الاضطهاد والعداء تُجاه اليهود في روسيا أنشأ اليهود في عام ١٨٨١م جمعية باسم "مُحبّي صهيون (*Hovevei Zion*)" في مدينة أوديسا الروسية.

ثم انفصل ما يقرب من ٥٠٠ شاب عن جمعية "مُحبّي صهيون"، وأنشؤوا حركة مُستقلة باسم "حركة بيلو"، وفي حزيران/يونيو عام ١٨٨٢م حاولت مجموعة صغيرة تنتمي لحركة "بيلو" أنْ تَعْبُر إلى يافا عن طريق إسطنبول، وبسبب الحظر الذي فرضته السلطات العثمانيّة لم يتمكّن سوى عدد قليل من الدخول إلى الأراضي الفِلِسطينية، ولكنَّهم لم يتمكنوا من تكوين حرَكات مُنظمة هناك.

امتدَّ تأثير حركة بيلو إلى يهود إسطنبول؛ إذ أصدرت جماعة بيلو إسطنبول في عام ١٨٨٢م بيانًا باسم "مانيفستو بيلو"، وتُعتبر هذه أول وثيقة صهيونية تتبنّى فكرة إقامة وطن قوميّ لليهود في فِلِسطين.

وقد ورد في بيان "رواد حركة بيلو" أنَّ الشعب اليهوديّ يعيش حياة النَّفْي والطَّرْد في كافة أرجاء العالم بعدما هُدّمت معابده وأُحرقت، ولكن حياة المَنفى هذه ليست سوى غَفْوة، وأنَّها لن تقوم بأيّ شيء

حتى ينهض اليهود، وأنّه سيتمُّ إنشاء فروع لجمعية بيلو في كل المجتمعات، وستكون القُدْس مركزًا لهذه الجمعيات.(١٢٠)

بذلت الجمعيات اليهودية جهودًا كبيرة من أجل تحقيق حلم توطين اليهود في فِلِسْطين، ففي الوقت الذي كانت فيه بعض هذه الجمعيات -مثل "جمعية يهود إزمير"- تجمع الأموال من أجل اليهود، كان البعض الآخر مثل "الجمعية الصهيونية في سلانيك" تبذل جهودًا حثيثة؛ من أجل تهجير يهود سلانيك ومقدونيا وبعض المناطق الأخرى إلى أرض فِلِسْطين.(١٢١)

تُعدُّ جمعية "الاتحاد اليهوديّ" من أكثر هذه الجمعيات تأثيرًا؛ إذ كانت تعمل في الظاهر على أنها جمعية خدمية تهدف إلى تحسين مُستوى المعيشة للشعب اليهوديّ وتربيته أخلاقيًا، ولكن هدفها الأساسيّ هو تشجيع هجرة اليهود المُشتتين من كافة أنحاء العالم وتوطينهم في سوريا وفِلِسْطين، وتجميعهم في مُلتقى واحد، وكانت تستخدم كافة الوسائل المادية والمعنوية من أجل إحياء أفكارهم ومُعتقداتهم؛ ولهذا كانت تفتتح لها فروعًا صغيرة في كل بلد تحت أسماء مختلفة، وكانت هذه الجمعية تضمُّ في عضويتها أصحاب النفوذ وأثرياء العالم مثل "روتشيلد (*Rothschild*)" و"البارون هرشين (*Baron Herşin*)" وكثير غيرهم.

إنَّ هجرة يهود روسيا التدريجية التي لم تكن كما يتوقَّعون، ولم تكن مرضية لهم، وكذلك تيقّظ الدَّوْلة العثمانيّة وتحفظها على قبولهم قد جعلت رُوّاد هذه الجمعية يُصابون بخيبة أمل ويَأْس كبير؛ فأنشؤوا جمعية كبيرة في رومانيا باسم جمعية الانتقام.

اتَّخذت هذه الجمعية من رومانيا مركزًا لها، وجعلت من فكرة العَدَمية الوجودية التي ظهرت أصلًا في روسيا مذهبًا لها.

---

(١٢٠) بوستانجي، مصدر سابق، ص٩٣-٩٦.

(١٢١) BOA. HR. SYS, ٤١٠/٣-٢٤

وكانت هذه الجمعية تضمّ عناصر تخريبية هدّامة تقوم بالتنسيق مع الجمعيات العدمية في روسيا، وكان هدفها هو إحداثَ مُواجهات دمَوية من باب ردّ الفِعْل على ما ترتكبه روسيا في حقّ الشعب اليهوديّ، واتخاذَ كافة السُّبُل والوسائل من أجل قبول الدَّوْلة العثمانيّة لليهود.

رَغْم وضوح نظام عمل هذه الجمعية وطريقة إدارتها، فإنَّ الوسائل التي تستخدمها من أجل تحقيق أهدافها كانت مجهولة، فقد قامت الجمعية بإنشاء فرع لها في فِلِسْطين وسوريا، وترأَّس هذا الفرع مسيو فرانك الذي كان يتولى دَعْم وَحْدة الصف والترابُط اليهوديّ في سوريا قديمًا، إذ كان يقيم في التَرسانة الأميرية، وكان مُوكلًا من قبل روتشيلد، رَغْم أن "مسيو فرانك (*Mösyö Frank*)" يهوديّ فرنسيّ إلا أنَّه حصل على جنسية روسية بعد انتقاله إلى ولاية "الإلزاس (*Alsas*)" في ألمانيا، نجح مسيو فرانك في توطين كثير من اليهود في سوريا وفِلِسْطين، وهكذا اتضحت أهدافه الخفية من تحركاته، وكان من مهامه في سوريا شراء مساحات شاسعة من الأراضي باسم موكله روتشيلد.

حاول مسيو فرانك أن يستفيد من الأزمة المالية التي تُعاني منها الدولة العثمانيّة؛ ولهذا قام بمبادرات عديدة، منها أن يدفع للدَّوْلة العثمانيّة قَرْضًا بقيمة نصف مليون فرنك بفوائد مُخفّضة مُقابل أراضٍ تُنقل ملكيتها إلى روتشيلد في سوريا.

إنَّ الهدف منْ مجيء مسيو فرانك إلى دار السعادة (إسطنبول) ليس هو دفع الأموال للحكومة العثمانيّة مُقابل الأراضي فحسب، ولكن أثناء وجوده في إسطنبول تشاور مع بعض اليهود من أصحاب الأقلام والمعلمين في الشركة الاتحادية اليهودية؛ من أجل افتتاح مقرّ جديد لجمعية الانتقام في إسطنبول، ووَضَع حجَر الأساس لهذا الفرع.(١٢٢)

(١٢٢) BOA. Y. PRK. BŞK, ٢٢/٨٩

كان البارون روتشيلد أكبر داعم ومُموّل لهجرة اليهود إلى فِلِسْطين من دون شك، إذ إن حَجْم المساعدات التي قدَّمها روتشيلد من أجل استيطان اليهود في فِلِسْطين يفوق كثيرًا ما تُقدِّمه كثير من الجمعيات، قام مجلس إدارة الجمعية العمومية في باريس عام ١٨٥٤م بإيفاد ألبرت جون سكرتير روتشيلد ورئيس الجمعية الخيرية اليهودية إلى الشرق، ومعه خمسون ألف فرنك، وافتتح جون بأموال روتشيلد مدرسة في الإسكندرية، ومدرسة مهنية للبنين ومدرسة لتعليم البنات ومستشفى في القُدْس، فمثلًا حَجْم ما أنفقته جمعيات مُحبّي صهيون في الأعوام ما بين ١٨٨٣م-١٨٩٩م من أجل التجمعات الاستيطانية الجديدة لم يتجاوز ٨٧ ألف جنيه إسترلينيّ، بينما قدَّم روتشيلد في نفس هذه الأعوام بمبلغ ١,٥ مليون جنيه إسترليني.[١٢٣]

حاولت الإدارة العثمانيّة إجهاض أنشطة روتشيلد بشتى الطُّرُق، فكانت تحظُر بيع الأراضي ونقل ملكيتها إلى الجمعيات اليهودية المختصة والموكلة من قبل روتشيلد،[١٢٤] إلا أنَّ وقف هذه الأنشطة لم يكن مُمكنًا.

وتكشف إحدى الوثائق عن بعض أنشطة روتشيلد الاستيطانية من خلال ما سرَدَه بعض المُعاصرين لهذه الأنشطة، فقال:

> قبل حوالي سبع سنوات كنت شاهد عيان على ما قام به روتشيلد من جهود لإنشاء قُرى يهودية من أجل توطين يهود روسيا وغيرهم في عكّا والقُدْس، وعلى ما قام به روتشيلد من إنفاق مبالغ طائلة في هذه الولايات وخداعه للشعب المسلم بالأموال والحِيَل، ورَغْم قبول اليهود لكل عروض الدَّوْلة العثمانيّة مُقابل هجرتهم إلى فِلِسْطين، إلا أنَّهم أثاروا كثيرًا من المشكلات للدَّوْلة العثمانيّة، فقد مُنع اليهود من الهجرة إلى فِلِسْطين؛ لأنَّ زيادة أعدادهم بشكل كبير سيكون سببًا في ظهور مُشكلات

(١٢٣) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٤٢-٤٣.

(١٢٤) BOA. ŞD, ٢٢٨٠/٢٦

سياسية وخيمة في المستقبل، ولم تُؤخذ اقتراحات روتشيلد من أجل رَفْع الحَظْر في زمن الصدر الأعظم السابق بعين الاعتبار، واستمرّ الحَظْر المفروض على هجرة اليهود إلى فِلِسْطين.

بذل روتشيلد جهودًا كبيرة قبل تطبيق هذا الحَظْر من أجل هجرة اليهود وتوطينهم في فِلِسْطين وحمايتهم، وخصوصًا أنه كان يُسيطر على البورصات في أوروبا، وكان يتمتع بنفوذ كبير جدًّا في بعض الدُّوَل الأوروبية، ومن ثمّ قام بمحاولات مُضْنية من أجل رفع هذا الحَظْر، إلا أنَّ كل هذه الجهود كانت تمثل خطَرًا داهمًا؛ لأنه إذا تمَّ توطين اليهود في فِلِسْطين، فإنَّ هذا سيفتح الباب على مِصْراعيه؛ لتظهر مُشكلة أرمينية بصورة أكبر في المستقبل.

وحسبما سمعت فقد لجأ روتشيلد إلى جواد باشا الصدر الأعظم للدَّوْلة العثمانيّة؛ لكي يحصل على مُساعدته من أجل السماح لليهود بالهجرة إلى فِلِسْطين، وكان من المحتمل إيجاد حلّ لهذا الموضوع في وقت قريب؛ بسبب مُحاولات جواد باشا مساعدته في هذا الأمر.

اتُّخذت التدابير من أجل مَنْع مَوْجات الهجرة المُتدفقة بشكل مُنتظم، بعد أن تواصلت هجرة يهود روسيا وغيرهم إلى فِلِسْطين بدَغم من روتشيلد؛ وذلك لأنَّ كثافة أعداد اليهود في هذه المنطقة يُمكن أن تفتح أبواب مشكلات عديدة كالمشكلة الأرمينية.

(٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٨٩٤م) ".[١٢٥]

وهذه أمثلة لبعض الجمعيات والمنظمات اليهودية التي أُسست لمساعدة اليهود:

١- "حالوقا (*Haluka*)":

أُسّس هذا الصندوق من أجل مُساعدة اليهود في فِلِسْطين،

(١٢٥) BOA. Y. PRK. AZJ, ٣٠/٣٧

وكان يَهدف إلى جَمْع المُساعدات من كافة الجمعيات اليهودية في كل بُقْعة من العالم؛ من أجل مساعدة اليهود في فِلِسْطين، وكانت هذه المساعدات تُجمع بشكل مُنظم عن طريق مُوظفين معنيّين بهذا الأمر.

٢- "مُنظمة الاتحاد الإسرائيليّ العالميّ
***(Alliance Israelite Universelle) (AIU)*":**

أُسّست في باريس عام ١٨٦٠م من أجل استقلال اليهود وتعليمهم والنهوض بهم، كانت هذه المُنظمة مركزًا للتكافُل والترابُط الدينيّ والرقيّ الروحيّ، وكانت حائط الدفاع الأول عن كل مُضطهد لكونه يهوديًا.

أَنشأت هذه المنظمةُ في إسطنبول ما بين ١٨٧٤-١٩٠٨م إحدى عشرة مدرسة، منها ستّ مدارس للبنين، وخمس مدارس للبنات، إذ كان يدرس فيها ما يربو عن ٤ آلاف طالب يتلقّى نصفهم تعليمًا مجانيًا، ومنذ إنشائها في عام ١٨٦٠م حمَلتْ هذه المنظمة (الإليانس) على عاتقها تعليمَ الشباب والأطفال من اليهود الشرقيين (السفردين) من المغرب حتى إيران وتربيتهم، وخلال الحرب العالمية الأولى أشرفت هذه الجمعية على تربية وتعليم ٤٣ ألف طالب في ١٨٣ مدرسة.

٣- جمعية مُحبّي صهيون:

أُسّست عام ١٨٨١م على إثر الاضطهاد الذي تعرّض له اليهود في روسيا، أسسها "ياهودا لب بنسكر (*Leib Pinsker Yehuda*)" الذي وُلد في مدينة أُوديسا الروسية (١٨٢١م-١٨٩١م)، وكان يؤمن بوجوب الاستيطان في فِلِسْطين، وأنّه إذا استطاع أنْ يوضح للدُّوَل الأوروبية حقّ اليهود في إقامة وطن قوميّ لهم، فإنَّ الغَرْب سيدعَم الصهيونية ويُساندها، أَسست الجماعات اليهودية التي تتبنى هذه الأفكار كثيرًا من فروع جمعية مُحبّي صهيون في أماكن عِدّة؛ إذ كان عدد هذه

المقرّات التي أنشئت في أوروبا الشرقية وروسيا ما بين ١٨٨٢-١٨٨٣ م اثني عشر فرعًا، ثمّ زاد هذا العدد حتى وصل إلى ١٣٨ مقرًّا جديدًا للجمعية ما بين ١٨٨٩ - ١٨٩٠م.

٤- "اتحاد المستعمَرات اليهودية (*Jewish Colonization Association*)":

أسس عام ١٨٩١م على يد "هرتش" بهدف إنشاء مستعمَرات لليهود في الأرجنتين ومناطق أخرى.

٥- "الاتحاد الإنجليزي اليهودي (*Anglo- Jewish Association*)":

أُسّس بهدف مساعدة اليهود وتقديم الدعم لهم، وكان له نشاط فعّال في المجال السياسيّ.

٦- المنظمة الصهيونية العالمية:

ظهرت فكرة الصهيونية على يد هرتزل، وشهدت تطورًا كبيرًا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت تهدف إلى إقامة دولة مُستقلّة لاستيطان اليهود في فِلِسْطين من خلال كافة المنظمات الصهيونية.

٧- لجنة المُساعدات الأمريكية المُشتركة.

٨- جمعية حماية حقوق المرأة اليهودية.(١٢٦)

كانت هذه الجمعيات تعمل على توطين اليهود في فِلِسْطين مُتذرّعة بحُجّة إنشاء مُؤسّسات خِدمية نافعة كالمستشفيات والمدارس.

وعلى سبيل المثال، فقد ذُكر في أحد الوثائق أن أعضاء مجلس ولاية سوريا قد قَبِلوا بافتتاح مدرسة زراعية في يافا باسم الجمعية العمومية الإسرائيلية ومقرها باريس، وكانت شروط الاتفاق التي أعدت لهذا الأمر كالتالي:

---

(١٢٦) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٤٠-٥١.

" وفي عام ١٢٨٥هـ تقدّم السيد "شارل ناتور (*Şarl Nator*)" بدعوى للحكومة العثمانيّة بواسطة سفارة باريس؛ من أجل تخصيص أراضٍ لافتتاح مدرسة زراعية في يافا وضواحيها باسم الجمعية العمومية الإسرائيلية ومقرها باريس، وقد بحث أعضاء مجلس ولاية سوريا هذه الدعوى، وأيضًا الدعوى التي قُدّمت بعد ذلك من قِبَل السيد كرامبو رئيس هذه الجمعية، وأعطى الإذن بإنشاء هذه المدرسة، إلا أن السيد شارل ناتور المُفوض من قِبَل الجمعية العمومية الإسرائيلية قد حصل على التصاريح اللازمة لإنشاء مدرسة زراعية في مدينة القُدْس، ولكن بالشروط التالية:

١- أن تكون هذه المدرسة باسم "مدرسة الجمعية العمومية الإسرائيلية الزراعية"، وأن تخضع لقوانين الدَّوْلة العَليّة، وتشرف عليها إدارة المعارف، وأن تُعدّ واحدة من المدارس العثمانيّة، وتتمتع بحماية الدَّوْلة العَليّة.

٢- يُقبل في هذه المدرسة من ثلاثين إلى ستين طالبًا، ويُقيمون لمدة ثلاث سنوات.

٣- رَغْم أن هذه المدرسة تُبنى من أجل الأطفال اليهود، فإن الطلبة والأطفال من أصحاب المِلَل والمذاهب الأخرى يتمّ قبولهم أيضًا في هذه المدرسة، وتكون أعمارهم ما بين ١٣ إلى ١٦ سنة.

٤- أن يكون طلبة هذه المدارس من رعايا الدَّوْلة العثمانيّة.

٥- في حالة وجود طلبة من الخارج يرغبون في الالتحاق بهذه المدرسة من أجل الدراسة فقط، فإن طلباتهم تُقبل ويتلقّون تعليمًا مجانيًا.



مدرسة الزراعة اليهودية في يافا

(جامعة إسطنبول، مكتبة الآثار النادرة، ٩٠٥٠٤-٩١)

٦- أن يُؤخذ من كل طالب من الطلاب المُلتحقين بهذه المدرسة مبلغ يُقدّر من ٢٠٠-٣٠٠ فرانك سنويًّا شاملًا للطعام والشراب والملابس وباقي الاحتياجات الأُخرى.

٧- أن تُدرّس مواد الزراعة لطلبة هذه المدارس.

٨- تمنح الدَّوْلة العثمانيّة من خِلال الإدارة المحلية المساحة التي تطلبها هذه الجمعية من أراض في مدينة القُدْس، وتُقدّر بـ ٢,٦٠٠ دونم (فدان) مُقابل إيجار سنويّ يُقدّر بـ ٧,٥٠٠ قِرْش.

وطالما استمرّت هذه الجمعية بدفع الإيجار، وعَمِلت وفْقًا لهذه الشروط، فإنَّ هذه الأراضي ستظلّ تحت سيطرتها، ولكن اعتبارًا من تاريخ صدور القرار السلطانيّ ستُعْفى هذه الجمعية من دفع الإيجار لمدة عشر سنوات بمنزلة هِبَة ودَعْم من السلطان العثمانيّ لها.

٩- ضـرورة إنشـاء هـذه المدرسـة فـي غضون عاميـن، وإن لـم تبـنَ خِلال هذه المـدة يُعد التصريح لاغيًا، وفـي حالة إغلاق الجمعية لهذه المدرسة بعد إنشائها، تعود هذه الأراضي وما عليها من أبنية إلى الدَّوْلة العثمانيّة، بشرط أن تدفع الدَّوْلة ثمنها.

١٠- تُعفـى هـذه الجمعيـة من أعشـار المحاصيـل الزراعية التـي تخرج من هـذه الأراضي، وفي حالة تصدير هذه المحاصيل تحصل الدَّوْلة على ضريبة جُمْركية فقط.

١١- لن تُؤخذ ضريبة جُمْركية عن مُشـتريات هذه المدرسـة الخارجية عدا الآلات الزراعية.

(١٥شباط/فبراير ١٨٧٠م)" .

الفصل الرابع

دور الدُّوَل العُظمى في حماية اليهود والنصارى

لقد كان المسيحيّون بكل مذاهبهم تقريبًا يعيشون في الأراضي الفِلِسْطينية، ومع تنامي تأثير القوّة الدبلوماسية في العلاقات الدُّوَلية بحيث صارت عنُصرًا مُؤثّرًا فيها، كانت الدُّوَل العُظْمى تَرْغب بأن تكون صاحبة الكلمة بين المسيحيّين الذين يعيشون في القُدْس، وظهر هذا تمامًا تزامنًا مع ضَعْف الدَّوْلة العثمانيّة.

١ - فرنسا

فرنسا أول دولة غربية منحتْها الدَّوْلة العثمانيّة حقّ حماية الكاثوليك في القُدْس، وكانت فرنسا قد أقامت علاقات صداقة مع الدَّوْلة العثمانيّة منذ عصر السلطان القانونيّ؛ إذ بحثت عن سبيل للتدخُّل في الخِلافات التي نشبت بين الكاثوليك والأرثوذكس، ودفَعها إلى ذلك اعتقادها بأن هذه المشكلات تحلّ لصالح الأرثوذكس على حساب الكاثوليك، وفي عام ١٥٣٥م وافقت الدَّوْلة العثمانيّة على قرار امتيازات للتجار الفرنسيين الذين يُقيمون داخل الأراضي العثمانيّة، ومُنح رجال الدين الكاثوليك حقّ حماية الأماكن المُقَدسة في القُدْس، وكذلك مُنح الرعايا الفرنسيون حقّ الحرية الدينية، وفي عام ١٧٤٠م قامت فرنسا بتجديد الحقوق والامتيازات التي حصل عليها الكاثوليك من دار قضاء القُدْس بين أعوام ١٥٦٤ و١٦٧٣م، وتنصّ المادة الخاصة بذلك من العَهْد المُؤرّخ بعام ١٧٤٠م:

> على ألا يتعرّض السُّفرَاء والقناصل والمُترجمون والتجار وسائر الرعايا الفرنسيين وزوار القدس الشريف الفرنسيّون، وكذلك الرُّهبان المُقيمون في كنسية القيامة لأيّ أذىً، وتتمّ حِمايتهم من قِبَل السُّلطات المعنية بذلك.(١٢٧)

(١٢٧) BOA. A. DVN. S. NMH.d.١

وهكذا مهّدت تلك المادة السبيل لِتتدخّل فرنسا في الشؤون الداخلية للقدس مع مرور الوقت، وتلعب دور الحامي للمسيحيّين هناك.

ومع مرور الزمان توسّعت الامتيازات الممنوحة لفرنسا، وفي عام ١٨٣٠م قرّرت الدَّوْلة العثمانيّة مَنْح الامتيازات لرعايا إنجلترا وهولندا وروسيا وبروسيا وأمريكا المُقيمين في الأراضي العثمانيّة، وبموجب القرار تمّ حماية الجماعات التي تعيش في داخل الدَّوْلة العثمانيّة، وكان هناك تنافس بين الدُّوَل الأوروبية في زيادة نفوذ كل منها، وحماية مصالحها في أراضي الدَّوْلة العثمانيّة؛ واشتدّ هذا السباق والتنافس منذ أواسط القرن التاسع عشر، وكانت الدُّوَل الأوروبية تسعى جاهدة لفَتْح قُنصليات لها في الدَّوْلة العثمانيّة، وافتُتحت أول قُنصلية من قِبَل إنجلترا في منطقة فِلِسْطين عام ١٨٣٩م، وقبل أن يمضي على افتتاحها كثير من الوقت توالى افتتاح قُنصليات الدول الأوروبية والغربية الأخرى في القُدْس، إذ افتتحت بروسيا قنصليتها هناك عام ١٨٤٢م، ولم يمضِ وقت حتى افتتحت قُنصليات في القُدْس لكل من سردينيا وفرنسا عام ١٨٤٣م، والنمسا عام ١٨٤٧م، وإسبانيا عام ١٨٥٤م، وأمريكا عام ١٨٥٦م، وروسيا عام ١٨٥٧م ، وكان قناصل المنطقة يبذلون جهودًا كبيرة للحصول على الامتيازات اللازمة للتدخُّل في شؤون الدَّوْلة العثمانيّة الداخلية، كما كانت قُنصليات الدُّوَل الأوروبية في القُدْس تسعى بواسطة سفرائها في إسطنبول إلى حماية اليهود القادمين إلى فِلِسْطين للحجّ أو الإقامة على حدّ سواء، رَغم أن هؤلاء اليهود ليسوا من رعايا الدَّوْلة العثمانيّة.[١٢٨]

كان اليهود من رعايا الدُّوَل الأجنبية الممنوع توطينهم في الأراضي الفِلِسْطينية يُخرَجون من قِبَل قنصلياتهم التابعين لها حتى ذلك الحين ويُرحَّلون إلى حيث جاؤوا، في حين أُعلن أنّه لن يُنفّذ قرار الترحيل

(١٢٨) بوستانجي، مصدر سابق، ص ١٣٦.

هذا بحق رعايا قنصليات إنجلترا والنمسا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكا، والقرار يُصرِّح بضرورة إعادة اليهود إلى بلادهم بواسطة سفارات الدُّوَل التابعين لها أو أن تقوم الدَّوْلة العثمانيّة بإعادتهم بالقوة إذا لزم الأمر»(١٢٩) وقد ورد في مراسلات إدارة القُدْس إلى وزارة الخارجية ١ أيار/مايو عام ١٨٨٨م ترحيل جميع اليهود المحظور إقامتهم في القُدْس إلى بلادهم؛ وذلك من خلال القنصليات الأجنبية التي يتبعونها، وقد ذُكر في المراسلات عدم ترحيل اليهود التابعين لقُنصليات إنجلترا ونمسا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وأمريكيا.

وورد في وثيقة أخرى:

> قررت الدَّوْلة العثمانيّة في وقت سابق ألا تتعدى مدة إقامة اليهود الزائرين للقُدْس شهرًا واحدًا إلا أن دول أمريكا والنمسا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا طالبت بتمديد إقامة زوار اليهود ثلاثة أشهر، ولكن هذا العَرْض رُفض من قِبَل السلطات العثمانيّة؛ وذلك للحفاظ على التوازن السكانيّ في المدينة، وكذلك طُبّق هذا الحُكْم على اليهود المقيمين داخل الأراضي العثمانيّة.»(١٣٠)

وقد تدخلت إنجلترا في شؤون الدَّوْلة العثمانيّة بعد أن تحرّكت فرنسا وروسيا بالتدخل في شؤون الدَّوْلة العلية بحجة حماية مذاهب التابعين لهم هناك، وقامت بنشاطات وحمَلات دِعائية وتنصيرية؛ وذلك عن طريق إرسال الكثير من المُنصِّرين إلى الدَّوْلة العثمانيّة نظرًا لقلة عدد المسيحيين البروتستانت فيها، وافتتحت أول كنيسة بروتستانتية في القُدْس عام ١٨٤٢م.

---

(١٢٩) BOA. HR. SYS, ٤١/٣

(١٣٠) BOA. HR. SYS, ٤١٠/٣-٢٤

وقد استفادت روسيا من انتهاج فرنسا سياسة المبادئ العَلْمانية أثناء الثورة الفرنسية الكبرى فائدة لا بأس بها؛ فبدأ القياصرة الروس يتدخلون بدور الحامي للرعايا الأرثوذكس في الدَّوْلة العثمانيّة، وعلى هذا النحو حقّقت روسيا امتيازًا أعلى في مواجهة فرنسا، واستمرّ هذا الوضع حتى إعلان لويس نابليون نفسه إمبراطورًا عشية ثورة عام ١٨٤٨م، وكانت فرنسا تريد:

- وضع نجم جديد في كنيسة بيت لحم الكبرى.
- تجديد مفروشات المغارة.
- حرية التحرك داخل الكنيسة التي ولد فيها عيسى ﷺ.
- الاعتراف بحقوق الكاثوليك في ضريح مريم وقبرها، والحجَر المقدس، وقبر عيسى ﷺ.
- أحقّية الرهبان الفرنسيين في تعمير قُبّة كنيسة القيامة.
- ترميم هذه الكنيسة بحيث ترجع إلى ما كانت عليه قبل الحريق الذي اندلع فيها عام ١٨٠٨م.

ودُعِمت مطالب فرنسا في هذا الشأن من قِبَل سفراء النمسا وإسبانيا والبرتغال وسيجليا وتوسكانا في إسطنبول.

ورأى الباب العالي وجود مجموعة من المحاذير الحقيقية في أخذ أماكن الزيارة المُقَدسة السالف ذكرها من أيدي الأرثوذكس وإعطائها للكاثوليك كما ترغب فرنسا؛ وذلك لأنّه كان من المعروف أن روسيا سوف تتدخل في الأمر في حال حدوث شيء كهذا، ومن ثم وجدت الدَّوْلة العثمانيّة أن المصلحة في ظل تلك الظروف تُحتّم عليها تدخلها المباشر في القضية وإصدارها الأحكام بنفسها.(١٣١)

(١٣١) كوسه، مصدر سابق، ص ٦٦-٧٠.

وبموجب المعاهدة التي أُبرمت مع فرنسا بعد حرب "القرم (*Kırım*)" اتُّفق على ضرورة عَرْقلة الصِّراعات السياسية التي تنشب في الأراضي المُقَدسة بين المذاهب المسيحية، وحِماية الوضع القائم في الأماكن المُقَدسة والحِفاظ عليه، غير أنه حدثت اضطرابات في أثناء وضع الروم صليبًا جديدًا على كنيسة القامامة في فِلِسْطين؛ تذرّعت بها فرنسا مُدعية أن حاكم القُدْس لم يهتمّ بالأمر كما ينبغي، وبناء على ذلك أرسلت خطابًا إلى الإدارة المركزية يحمل لهجة تحذيرية جاء فيه:

"إن مصلحة الحكومة الثنية تُلزمها باتخاذ تدابير سريعة شديدة لرِعاية الوضع الراهن الذي يَضْمن السِّلم والأمن العام في فِلِسْطين".(١٣٢)

وقد ورد في وثيقة أخرى:

أن فرنسا كانت تتدخل في الخلافات التي تحدث بين المسيحيين، ومن ذلك أن خلافًا دام بضع سنوات بين الرهبان اللاتينيين والروم -بسبب مرور أسقف الروم بملابسه الروحانية من السُّلَّم الشمالي في مغارة المهد بكنيسة بيت لحم- حُلّ بالتفاهم والاتفاق بين أطرافه، وقد صدّقت القنصلية الفرنسية العامة وإدارة القُدْس كلتاهما في ٢٦ آذار/مارس عام ١٩٠٠م على المعاهدة المُبرَمة في هذا الشأن بين مدير عام الرهبان اللاتينيين وبطريركية الروم.

٢٦ آذار/مارس ١٩٠٠م، الصدر الأعظم رفعت.(١٣٣)

وثمّة وثيقة أخرى ورد فيها أنَّ حكومة فرنسا طلبت أرضًا لتكون مدرسة يهودية لإنشائها أمام حائط ساحة المسجد الأقصى بالقُدْس الشريف، غير أن إدارة القُدْس الشريف ردّت على هذا الطلب المُؤرخ في ٨ نيسان/أبريل ١٨٨٠م باستحالة ذلك؛ إذ جاء في ردّها:

---

(١٣٢) BOA.Y. PRK. EŞA. ٧/٤٠

(١٣٣) BOA. HR. HMŞ. İŞO. ١٨٧/٥٢

"...يتجّه اليهود إلى هذا الجدار في وسط الشارع وخارج السُّوْر من الجهة الغربية من ساحة المسجد الأقصى ويدعون، وقد أجيب بأنه يستحيل تخصيص أرض بدون مُقابل، حتى ولو طُلب تخصيصها بالمال لإنشاء المدرسة اليهودية هناك؛ وذلك لأن ثلاث جهات من مكان إقامة المدرسة اليهودية هي أبنية تابعة لأوقاف وزوايا حضرة أبي مَدْين، بينما الجهة الأخرى منه هي حائط ساحة المسجد الأقصى".(١٣٤)

وكان الفرنسيون يدعمون اليهود منذ سنة ١٨٨٠م، إذ زادت فيها هجرتهم إلى فِلِسْطين تزامنًا مع النشاطات الصهيونية، وتجلى دعمهم لليهود من خلال نشاطات مدارس "أليانز" بصفة خاصة؛ إذ كانت منظمة أليانز صاحبة الكلمة بين اليهود السفارد (*Safared*)، بينما كانت منظمة "هيلفس فيرين (*Hilfsverein*)" صاحبة النفوذ بين اليهود الأشكناز (*Eşkanaz*)، وبدأت فرنسا تبذل قُصارى جُهْدها لدعم منظمة أليانز؛ إذ رأت أنها أنسب منظمة تتماشى مع مصالحها الشخصية وأنشطتها الاستعمارية، وقد كان ثمة قانون في الدَّوْلة العثمانيّة يحظر تسجيل المدارس باسم مؤسسات غير حكومية؛ لذلك قامت الدَّوْلة العثمانيّة بتغييره عندما سمحت بالتسجيل، وهو ما تَرتَّب عليه تسجيل مدرسة روتشيلد في القُدْس باسم الجمعية الإنجليزية- اليهودية؛ وبناء على ذلك قدمت فرنسا مُذكرة شفهية للحكومة العثمانيّة في عام ١٩٠٤م طلبت فيها اعتبار مؤسسة "*AIU*" جمعية فرنسية.

أوصت المفوضية الفرنسية العُليا بالسعي إلى التفاهم مع الصهاينة من خلال زيادة ساعات دروس اللغة العِبْرية المُقرّرة في مدارس أليانز؛ لمواجهة ثِقَل الصهاينة في إسطنبول ونفوذهم الذي بدا واضحًا بعد نهاية

(١٣٤) BOA. HR. SYS. ١٥٢٦/٩

الحرب العالمية الأولى، وقد استجابت المنظمة لهذه التوصية، وفي عام ١٩٢٠م وصل التقارب بين الحكومة الفرنسية ومُؤسّسة أليانز إلى أعلى مستوياته، وقدّمت الحكومة الفرنسية لتلك المنظمة مِنْحة سنوية قدرها ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسيّ.(١٣٥)

٢- روسيا

انتقلت القضايا التي تعني الكاثوليك والأرثوذكس في القُدْس إلى الساحة الدُّوَلية؛ إذ تحوّلت إلى مجال للتنافس بين دولتين عظيمتين، ومن ثمّ ظهرت روسيا على أنها "حامي الأرثوذكس" في مواجهة فرنسا التي تَزْعُم أنها "حامي الكاثوليك".

وقرّرت روسيا استغلال الدين لتهدم الدولة العثمانيّة أو تتقاسمها مع الدُّوَل الأخرى، وكانت روسيا تتبع المذهب الأرثوذكسي، وكذلك كانت الغالبية العُظمى من رعايا الدولة العثمانيّة المسيحيين تابعة للكنيسة الأرثوذكسية، وفي تلك الفترة بلغ عدد الأرثوذكس من رعايا الدَّوْلة العثمانيّة حوالي ١٣,٥ مليون نسمة، كان منهم ما يقرب من مليون نسمة في اليونان فقط، ولما كان قيصر روسيا يظنّ أن حقوق الأرثوذكس في الأراضي المُقَدسة أقدم بكثير من حقوق الكاثوليك؛ سعى إلى أن تكون روسيا هي حامي الأرثوذكس، وأقام من خلال اتفاقية "قاينرجه الصغرى (*Küçük Kaynarca*)" المبرمة عام ١٧٧٤م كنيسة أرثوذكسية روسية تخضع لحماية السفير الروسي في إسطنبول، وبذلك هيّأ المناخ ليقوم الحجّاج الروس بزيارة القُدْس بحريّة، وهاك المادة الثامنة من معاهدة قاينرجه الصغرى:

---

(١٣٥) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٥٩-٦٠.

"يُسمح لكلِّ واحد من طائفة الرهبان الروس أو من رعايا روسيا الآخرين بزيارة إلى الأماكن المُقَدسة في القُدْس وغيرها من الأماكن الواجبة الزيارة، ولا تُطلب من السُّياح والمسافرين في الطريق أو داخل القُدْس أو غير ذلك من الأماكن أيةُ رسوم أو ضرائب، ولا يُقترح عليهم شيء من هذا القبيل، كما يُمنح الرعايا الروس القرارات والتصاريح الممنوحة لرعايا الدُّوَل الأخرى، ولن يتعرّض إليهم أبدًا؛ نظرًا لوجودهم وإقامتهم بأراضي دولتنا السامية، ولا يُتدخل في شؤونهم، بل يخضعون للحماية والأمن بموجب قواعد الشريعة وصلاحيتها (١٣٦)".

وقد ساندت القيصرية الروسية الصهاينة أيضًا بهدف التخلُّص من اليهود المقيمين في أراضيها وتمزيق الدَّوْلة العثمانيّة، وورد في الخطاب الذي أرسله وزير الخارجية الروسي "بلهيف (*Plehve*)" إلى دكتور هرتزل عام ١٩٠٣ ما يلي:

"إنَّنا نحن الحكومة الروسية نَدْعَم الحركة الصهيونية طالما أن هدفها هو إقامة دولة مُستقلة في فِلِسْطين".(١٣٧)

٣- ألمانيا

إن ألمانيا التي اتحدت في أعوام ١٨٧٠م، ودخلت في سباق التوسع الاستعماري، كانت تستغلّ كل فرصة لتحصل على نصيبها في هذا الشأن أيضًا؛ إذ لم تكن تقف صامتة غير مُكْترِثة بالأمر، وأبرز نموذج على هذا تلك الرحلة التي قام بها الإمبراطور الألماني ويلهام الثاني في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٨٩٨م مع عائلته إلى إسطنبول ثم إلى القُدْس، وكانت زيارته هذه تعني حمايته للمسيحيين عامة، وللبروتستانت منهم خاصة.

(١٣٦) كوسه، مصدر سابق، ص ٦٦-٧٠.

(١٣٧) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٦٠-٦١.

ومن خلال زيارة الإمبراطور الألماني للقدس أعطى مجموعة من الرسائل، حاول من خلالها الإيحاء بأنّه إمبراطور الكاثوليك أيضًا لا البروتستانت فحسب، والتقى برؤساء الكاثوليك هناك، وأجزل لهم العطايا، حتى إنَّه سعى إلى تقديم رسائل طيبة للمسلمين أيضًا لا للمسيحيين فحسب؛ إذ قام بزيارة الأماكن المُقَدسة للمسلمين أيضًا.

وقد كان ثمّة اعتقاد بأنَّ اليهود ينحدرون من عِرْق دنيء ينتشر في ألمانيا أكثر من غيرها من الدُّوَل الأوروبية، إلا أنَّ هذا المُعْتَقد حُورب في أواخر القرن التاسع عشر من أجل دَعْم الصهيونية، وكان دعم الألمان لهجرة اليهود إلى فِلِسْطين للتخلص من اليهود الذين يرونهم سببًا في كثير من السلبيات التي تقع في بلادهم، وفي عام ١٨٩٨م قال السفير الألماني لدى فيينا لـ"هيرتزل" رئيس المنظمة الصهيونية:

> "إنَّ الإمبراطور الألماني جاهز للتوسط لدى السلطان العثمانيّ وحماية جميع اليهود في الشرق".

وكان الإمبراطور الألماني يدعم أيضًا شراء المسيحيين أراضيَ بالقُدْس وإنشاءهم كنائس عليها، وقد وردت رسالة إلى الحكومة المركزية من السفارة الألمانية في ٢٥ شباط/فبراير عام ١٩٠٢م تحضّ على تسجيل الأراضي التي اشتراها الإمبراطور الألماني باسم الجمعية الروحانية الفِلِسْطينية، والسماح بإنشاء كنيسة عليها، غير أنه رُفض هذا الطلب؛ لأن قبول هذا الطلب لا يتناسب مع قوانين الحكومة المركزية، ولأن قِطْعة الأرض المذكورة قريبة من مقام داود ﷺ والزاوية الأدهمية، وكان من شروط بناء الأبنية المراد إنشاؤها أن تكون بعيدة عن الأماكن المُقَدسة بحيث لا تُخِلُّ بحُرْمتها.(١٣٨)

---

(١٣٨) BOA. HR. SYS, ٤٠٩/٦

٤ - إنجلترا

مشكلة توطين اليهود الذين طُردوا من أوروبا نتيجة لحركاتهم القومية والعداء الذي تنامى نحوهم أواخر القرن التاسع عشر، هذه المشكلة جعلت إنجلترا أعظم دول العصر، ومن بعدها أمريكا التي تُدافع عن حقوق اليهود أيضًا لا عن حقوق المسيحيين فحسب، والحقيقة أن إنجلترا كانت تهتمّ في الدرجة الأولى بمصالحها الاقتصادية في المنطقة، وكانت القوة الاقتصادية والإعلامية التي يتمتع بها اليهود عالميًا آنذاك لها تأثير واضح في هذا الشأن، علاوة على أن إنجلترا كانت ترغب في استخدام العنصر اليهوديّ ورقة رابحة من أجل التدخل في الشؤون الداخلية للدولة العثمانيّة التي اتخذت موقفًا واضحًا من هذا الموضوع.

بدأ اهتمام إنجلترا باليهود المهجرين من روسيا في الثلاثينات من القرن الثامن عشر؛ إذ وجّهت لندن رسالة عام ١٨٣٩م إلى نائب القنصل الإنجليزي في القُدْس مُؤدّاها أن حماية اليهود أصبحت من ضروريات وظائفهم ومَهامّهم هناك، وأعطت الحكومة الإنجليزية اليهود الروس الذين جاؤوا من روسيا واستوطنوا فِلِسْطين في شهر تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٨٤٨م حرية الدخول تحت الحماية الإنجليزية أو البقاء تحت إدارة الحكومة العثمانيّة؛ وبناء على ذلك انتقل مُعظم اليهود إلى الحماية الإنجليزية، وعلى هذا النحو زاد عدد المستوطنين اليهود الذين يخضعون للحماية الإنجليزية في الأراضي المُقَدسة.(١٣٩)

وأعدت إنجلترا المعنية بموانئ شرق البحر الأبيض خرائط الموانئ الفِلِسْطينية المهمة بالنسبة لليهود مثل ميناء عكّا وحيفا ويافا وغزة، وبدأت تتابع عن قُرْب التحديثات الجارية في تلك الموانئ.

(١٣٩) كوسه، مصدر سابق، ص ٨١.

وعقب استيلاء إنجلترا على الهند في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وتحوّل الهند إلى أهمّ جزء في النظام الاقتصادي الإنجليزي أصبح الطريق البحريّ المؤدي إلى الهند ومحيطه يشكل أهمية استراتيجية بالنسبة لإنجلترا، ومن ثمّ هدفت السياسة الخارجية الإنجليزية إلى أن يكون هذا الطريق في أيد أمينة، كما هدفت إلى توفير الأمن فيه، ولذلك كانت سياسة إنجلترا تدعم حماية وحدة أراضي الدولة العثمانيّة واستقلالها؛ إذ كانت الدولة تمتلك أراضي منطقة الشرق الأوسط التي يمرُّ بها الطريق المؤدي إلى الهند.

تخلّت إنجلترا عن حماية استقلال الدولة العثمانيّة والحِفاظ على وحدة أراضيها في أعقاب الحرب الروسية- العثمانيّة ١٨٧٧-١٨٧٨م التي تعرف بـ"حرب ٩٣"، إذ كانت إنجلترا ترغب في الاستيلاء على منطقة الشرق الأوسط لحماية طريق الهند ومنع توسُّع روسيا نحو الجنوب، وفي سبيل تحقيق أهدافها في المنطقة والسيطرة عليها دعمت إنجلترا الدُّوَل الحديثة والصغيرة في المنطقة.(١٤٠)

بدأت إنجلترا تستولي على الأراضي الإستراتيجية الخاضعة للدَّوْلة العثمانيّة بعد ظهور ألمانيا على الساحة بوصفها قوة مؤثرة، ووضوح ضَعْف الدَّوْلة العثمانيّة إلى حد كبير في نهاية حرب ٩٣، إذ كان استيلاؤها على جزيرة قبرص مُؤشرًا مُهمًّا يُظهر بداية هذه المرحلة، وقد طُرح على الساحة آنذاك مشروع توطين اليهود في فِلِسْطين؛ إذ أبلغ "أوليفنت" النائب السابق في حزب المحافظين الإنجليزي آراءه في هذا الموضوع لـ"ديزرائيلي (*Disraeli*)" رئيس وزراء إنجلترا حينها، فطلب منه ديزرائيلي - الذي رأى المشروع مناسبًا- أن يكتبه ويُقدّمه إلى وزير الخارجية "ساليسبوري

(١٤٠) نسرين كنار، القضية الفِلِسْطينية في نظام ألطا بالشرق الأوسط، (رسالة ماجستير)، جامعة أولو داغ، بورصة، ١٩٩٤م، ص ٤٠.

(*Salisbury*)"، وقد بارك سالسبوري هذا الأمر؛ فكتب بنفسه رسالة إلى كل من يمكنه المساعدة من الدبلوماسيين الإنجليز في سبيل تنفيذ هذا المشروع؛ وبناء على هذا سافر أوليفنت إلى إسطنبول، وقدَّم المشروع الذي أعدّه للسلطان عبد الحميد الثاني في أيار/مايو أو نيسان/أبريل عام ١٨٧٩م، وفي تلك الفترة تولت السلطة في إنجلترا حكومة "غلادستون (*Gladstone*)" الذي كان يصرّح بعدائه للأتراك بشكل قاطع، وتوترت العلاقات بين البلدين توترًا شديدًا، وفي عام ١٨٨٠م التقى السفير الإنجليزي لدى إسطنبول ليارد بالسلطان عبد الحميد الثاني من أجل الحصول على ردّ بشأن مشروع أوليفنت، غير أن هذا المشروع لم يلقَ قبولًا.[١٤١]

وكان السفير عبد الحق حامد يعترض على توطين اليهود المهاجرين من روسيا في فِلِسْطين تحت حماية إنجلترا على هذا النحو:

"لقد جاء اليوم في جريدة التايمز خطاب للسيد غلادستون عن المعاملة التي يلقاها اليهود في روسيا، وكذلك المنشورات والمحاولات الجارية هنا بهذا الصدد، كما هو معلوم لدى الجناب العالي.

وفي هذا الخطاب يأسف السيد غلادستون لذلك الوضع، وبعد أن بيّن أنه يتوقّع أن كلامه هذا لن يَلْقى ترحيبًا من قِبَل الحكومة الروسية قال:

"إنني أشاهد البهجة والسرور من اليهود من أجل مساندتهم للهجرة إلى فِلِسْطين، وإذا تفضّل السلطان العثمانيّ بمساعدتنا في هذا الشأن وحمايته للمشروع فسأكون أكثر امتنانًا وسعادة"...

وإنَّ حديث جريدة التايمز عن هذا الخطاب، وطلب السيد غلادستون- وقد أساء إلى الأتراك وعاداهم منذ زمن- المدَد والمساعدة من السلطان العثمانيّ في توطين اليهود المطرودين من روسيا في فِلِسْطين لَموقف غريب جدًّا.

---

(١٤١) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ٥٥-٥٦.

وقد تكرّر لجوء المُبعدين عن بلادهم إلى الدَّوْلة العثمانيّة بسبب التعصُّب المسيحي؛ إذ كانت سلانيك وغيرها من البلاد العثمانيّة تكتظُّ باليهود الذين نُفوا من إسبانيا من قِبَل حكومة ملوك الكاثوليك.

غير أنَّ الشيء الجديد والعجيب الذي يدعو إلى الحيرة هو أن يأمل السيد غلادستون في نَيْل عَطْف الدَّوْلة العثمانيّة ورحمتها بشأن الذين تعرّضوا لظُلْم الإمبراطور الروسيّ، وهو ما جعله يتفوّه بكلمات على هذا النحو، ويُعتبر هذا دليلًا آخر على عظمة سلطاننا، أطال الله جلّ في علاه عُمر سلطاننا، اللهم آمين.

(٢٩ أيار/مايو ١٨٩١) عبد الحق حامد".[١٤٢]

وقد كانت إنجلترا تدعم هجرة اليهود إلى فِلِسْطين، كما أنها وجَّهت بعض التوصيات في هذا الموضوع إلى السلطان عبد الحميد، إلا أنها بعد فَشَل هرتزل في الحصول على أراض من فِلِسْطين خلال زيارته إسطنبول، لم تقبل اقتراحًا بإنشاء وطن لليهود في العريش أقرب المناطق المصرية إلى فِلِسْطين، ورَغْم قبول هرتزل هذا الاقتراح؛ إلا أن مصر وإنجلترا رفضتا رفضًا قاطعًا، وكان رفْض إنجلترا التي تحتلّ مصر آنذاك لئلا تزجّ في مشكلة دولية من هذا القبيل في سياساتها الشرق أوسطية، وبديلًا عن هذا اقترحت انجلترا على تيودور هرتزل عام ١٩٠٣م إنشاء وطن يهوديّ في أوغندا، غير أن هذا الاقتراح عُورض بشدة بالغة في المؤتمر الصهيونيّ العالميّ السابع، وأعلن أنَّه لن يُقبل أبدًا أيّ مكان آخر غير فِلِسْطين ليكون وطنًا يهوديًا.

وكانت إنجلترا تسعى أثناء الحرب العالمية الأولى لإقناع حلفائها بالتسوية التي تضمن مصالحها الخاصة في منطقة الشرق الأوسط؛ وذلك

(١٤٢) BOA. Y. PRK. EŞA. ١٣/٦٧

لأن تحويـل فِلِسْـطين إلـى قضية دولية عَقِـب خروج المنطقة عن سـيادة الدَّوْلـة العثمانيّـة يُعرّض مصالحها في الشـرق الأوسـط عامـة وفي مصر خاصة إلى الخطَر.

وراحـت إنجلتـرا أثناء الحـرب العالمية الأولى تسـعى للاعتماد على العـرب، ووقّعـت علـى اتفاقيـة بين الشـريف حسـين والمُفـوّض العالي الإنجليـزي "هنري ماكـون (*Henry McMahon*)" في مصر لإقامة مملكة عربية بالشـرق الأوسـط، غير أن حـدود تلك المملكة لم تحـدّد، وكانت إنجلتـرا تسـعى من وراء مخططاتها هذه أن تُضعـف حركة القومية العربية التي تهدد وجودها في الشرق الأوسط، وتُضيق نطاق المطامع الصهيونية فـي هـذه المنطقـة أيضًـا، وقـدّم الإنجليـز فـي وعد بلفـور كل الرسـائل التـي من شـأنها السـيطرة على الإمكانيات السياسـية فـي مواجهة العرب واليهود، وبينما كانت إنجلترا تتظاهر للصهاينة بالصداقة من جانب، كانت تُعطـى العـرب من جانـب آخر ضمانًـا لحماية حقوقهـم، وكان مصطلح "وطـن" الوارد في وعد بلفور يُسـتخدم أحيانًا لخدمـة الهدف الصهيونيّ، وهو الدَّوْلة اليهودية.[١٤٣]

وفـي عام ١٩١٧م كتبت صحيفة "جورنـال دوجينيه (*Jurnal Düjne*)" أن إنجلتـرا وافقـت علـى إنشـاء دولة يهوديـة في فِلِسْـطين، كما أعلنت أنهـا سـتدعم أي تحـرك في هذا الشـأن، وأن صهاينة إنجلتـرا أبلغوا بهذا القـرار الدكتور "مسـيو فيليكس بنـوس (*Mösyö Flekis Peynos*)" رئيس جمعية تيودور هرتزل.

وكان أنـور نائـب القائـد العام يذكر فـي ٦ آب/أغسـطس ١٩١٧م أن الملحق العسـكريّ لسـتوكهولم يرغب في تشكيل حكومة يهودية بالقرب

(١٤٣) نسرين كنار، مصدر سابق، ص ٤٤.

من القُدْس تكون تحت رقابته؛ وذلك رغبة من إنجلترا في تأمين شرق قناة السويس، وأن حكومات دول الحلفاء تدعم هذه الرغبة، وهو ما سمعه من كبير حاخامات ستوكهولم.(١٤٤)

وكانت البابوية أيضًا تدعم سياسة إنجلترا وسياسة توطن اليهود بفِلِسْطين، وكان مساعد البابا الجديد مونسيور كيدشيني صرّح لمراسل صحيفة إسبانيا في روما تصريحًا قال فيه:

> كثيرًا ما قيل إن السلام المسيحيّ سيُوصلنا إلى قوة كنا نتمتع بها من قبل، وإن السياسة الكاثوليكية لن تسمح بترك فِلِسْطين مرّة أخرى لتكون بيد أتباع محمد ﷺ.(١٤٥)

> وجاء في البرقية التي أرسلها فؤاد بك سفير برلين أنَّ البابا طلب ألا تقوم النمسا بإمداد الدَّوْلة العثمانيّة بالجنود والمهمات العسكرية؛ كي تستردّ فِلِسْطين التي صارت تحت سيادة إنجلترا الدَّوْلة المسيحية.

٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٧.(١٤٦)

وكانت السياسة الأمريكية في فِلِسْطين تسير بالتوازي مع السياسة الإنجليزية، ففي برقية أرسلت من قِبَل حلمي باشا سفير فيينا بتاريخ ١١ آب/أغسطس عام ١٩١٧م يُبين فيها أن الرئيس الأمريكي ويلسون وعد الصهاينة بتخصيص الأراضي الفِلِسْطينية لليهود، وأن الحكومة الإنجليزية آنذاك أيدت موافقته على هذا الرأي،(١٤٧) وهكذا أعلن المؤتمر الأمريكي في قرار اتخذه عام ١٩٢٢م أنَّه من المناسب إقامة وطن قوميّ لليهود في فِلِسْطين.(١٤٨)

---

(١٤٤) BOA, HR. SYS, ٢٣٣٧/٧

(١٤٥) BOA. HR. SYS, ٢٣٣٣/١

(١٤٦) BOA. HR. SYS, ٢٣٣٣/١١

(١٤٧) BOA. HR. SYS, ٢٣٣٣/١

(١٤٨) نسرين كنار، مصدر سابق، ص ٤٧.

ونتيجة لمساعي الصهاينة فقد اعتُرف رسميًا بوعد بلفور من قِبل فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان في مؤتمر باريس المنعقد في كانون الثاني/يناير عام ١٩١٩م، وقد شارك وفد المنظمة الصهيونية العالمية في هذا المؤتمر، وقدّموا جميعًا مقترحاتهم للاعتراف بحقوق تاريخية لليهود في فِلِسْطين، وإعطائهم الفُرْصة لإقامة وطن قوميّ لهم فيها، وإقامة انتداب في فِلِسْطين يكون تحت الإدارة الإنجليزية، وتنفيذ وعد بلفور، والسماح لليهود بالتوطُّن في فِلِسْطين، وكان المؤتمر قد طالب بإنشاء دولة يهودية في فِلِسْطين كما ورد في وعد بلفور.

وفي أعقاب مؤتمر باريس للسلام عُقِد مؤتمر آخر في سان ريمو بتاريخ ٢٤ نيسان/أبريل عام ١٩٢٠م؛ لإجراء تعديلات خاصة بدول الشرق الأوسط، وقد تقرّر في هذا المؤتمر وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسيّ، بينما وُضع العراق وفِلِسْطين تحت الانتداب البريطانيّ، وفي ٢٩ أيلول/سبتمبر ١٩٢٣م تمّ التصديق على حكومة الانتداب في فِلِسْطين، وبدأت بممارسة عملها بالفعل، وجاء في مقدمة نصّ اتفاقية الانتداب أن حكومة الانتداب مسؤولة عن وعد بلفور؛ لذلك عليها توفير وطن قوميّ للشعب اليهوديّ في فِلِسْطين، وكانت نسبة العرب ٩١ ٪ من إجمالي الشعب الفِلِسْطيني حين تمّت الموافقة على نصّ اتفاقية الانتداب، وكانوا يملكون ٩٧ ٪ من أراضي فِلِسْطين.

وشُرع في تطبيق وعد بلفور عَقِب إقامة الانتداب الإنجليزي في فِلِسْطين، وشُجّعت هجرة اليهود إلى فِلِسْطين، كما أُتيح لهم تملُّك الأراضي فيها، وسُمح بتشكيل جماعات عسكرية باسم المنظمات الثقافية اليهودية، وكان تعيين الصهيوني المُتطرّف هربرت صموئيل مُفوّضًا ساميًا لإنجلترا في المنطقة تلك الفترة يُمثل نموذجًا واضحًا لسيطرة الصهاينة على حكومة الانتداب هناك، ثم نزل عدد السكان اليهود في فِلِسْطين

إلـى ثلث العدد الإجمالي للسـكان الأصليين هنـاك؛ نتيجة التعاون ما بين الحركة الاستعمارية الإنجليزية والحركة الصهيونية.(١٤٩)

وعلى هذا النحو انتُزِعت دولُ الشـرق الأوسـط بعـد الحرب العالمية مـن الدَّوْلـة العثمانيّة التـي كانت تحكمهـا لأكثر من أربعة قـرون، وبينما كانـت مجتمعـات المنطقـة تنتظر الاسـتقلال إذا بها تدخل تحت سـيطرة الـدُّوَل الغربيـة من خـلال نظام الانتداب الذي أقرّتـه عُصْبة الأمم، وأدت الحدود المُصطنعة التي رسمها الغربيّون في تلك المؤتمرات إلى حدوث انقسامات وصراعات لا تزال مُستمرّة حتى يومنا هذا.

---

(١٤٩) نسرين كنار، مصدر سابق، ص ٤٦.

الفصل الخامس

التدابير المتخذة لمنع توطين اليهود في فلسطين

١- التدابير المتخذة في عَهْد السلطان عبد الحميد الثاني

اتخـذت الإدارة العثمانيّة بعض التدابيـر الوقائية مـع التزايد التدريجيّ فـي أعداد اليهود الراغبين بالاسـتيطان في فِلِسْـطين، وظهـور النية لإقامة دولة يهودية هناك.

وقد اتخذت الإدارة العثمانيّة قرارًا بالسماح للحجاج ورجال الأعمال اليهود فقط في دخول فِلِسْطين بدءًا من عام ١٨٨٢م، إلا أن اليهود استطاعوا خَرْق هـذا الحَظْر من خلال لبـاس زيّ الحجاج ورجـال الأعمال، وبناءً علـى هذا طلـب حاكم القُدْس رؤوف باشـا من الحكومـة العثمانيّة زيادة التدابير، ومن ثمّ فقد حُظر دخول رجال الأعمال اليهود إلى فِلِسْطين وفْقًا لقانون صدر في عام ١٨٨٤م؛ وذلك بحجة أن الامتيازات سـارية بالنسـبة للمناطـق التجاريـة فحسـب، وأُبلـغ الحجـاج اليهود بضـرورة حصولهم علـى تأشـيرات دخـول على جوازات سـفرهم من القناصـل العثمانيّة في بلادهم، وسُـمح لهم بالدخول لمدة شـهر واحد فقط شـريطة أن يدفعوا تأمينًا ماليًّا يُجبرهم على مغادرة فِلِسْطين، غير أن الدُّوَل الأوروبية مارست ضغوطها بحجة أن مواطنيها يتخللون هؤلاء اليهود الوافدين إلى فِلِسْطين، وأنه سيتعذّر تطبيق هذه القيود نظرًا لما تقتضيه الامتيازات الممنوحة لها؛ ونتيجة لتلك الضغوط سُـمح لليهود بدخول منطقة فِلِسْـطين بدءًا من عام ١٨٨٨م شـريطة ألا يأتوا فـي صورة مجموعات، ونُبِّه بأنّه سـتُطبّق القيود والحَظْر في حال حدوث هجرات كبيرة العدد؛ ومن ثم بدأت هجرة اليهود من جديد في صورة ثلاث أو أربـع عائلات في كل مرّة.

وقد تسببّت هجرة اليهود وتوطُّنهم في فِلِسْطين في تقدُّم عديد من المؤسسات والأشخاص بكتب وتقارير إلى الإدارة المركزية لمَنْع هذه الهجرات، واتخاذ التدابير اللازمة لتزايد استيطان اليهود في فِلِسْطين.

وكانت التقارير الأمنية الواردة من الجنود تُطالب بحَظْر هجرة اليهود بشكل قاطع، وفي تقرير مجلس النواب بشأن اليهود الأجانب -وهم أربعمائة وأربعون شخصًا- الوافدين إلى حيفا، قامت اللجنة العسكرية بتقديم تقرير إلى السلطان جاء فيه:

"إذا رفضت الدُّوْلة العثمانيّة طلَب اليهود بالتوطُّن في أراضيها والدخول في تبعيتها، فهذا ليس عذرًا لأفكارهم ضدّ الدَّوْلة العثمانيّة؛ لأنه لا يحقّ لليهود ولا للدول التي نفَتْهم من بلادها أن تتطاول على الدُّوْلة العثمانيّة.

والسبب في عدم قبول الدُّوْلة العثمانيّة لليهود أنهم سوف ينزحون تدريجيًّا من الأماكن التي أسكنتهم فيها الدَّوْلة العثمانيّة ثم يجتمعون في فِلِسْطين، ويحاولون تشكيل حكومة يهودية فيها؛ وذلك بتشجيع من الدُّوَل الأوروبية لهم وبحمايتها، وحتى لو لم يحدث هذا الخطر فإنهم لن يعملوا بالزراعة في الأماكن التي يُوطّنون فيها، بل سيسعون للإضرار بأهالي تلك المناطق كما فعلوا في البلاد الأخرى.

(٤ آب/أغسطس عام ١٨٩١م) ".(١٥٠)

وفي هذا التاريخ أيضًا ورد تقرير مُهمّ من عبد الله باشا الذي عمل في القُدْس جاء فيه:

"يعرض خادمكم عبد الله باشا ما يلي:

نظرًا لأنني عملت مدة عام في إدارة القُدْس فإنني أعرض بعض الأمور المُهمّة المُلْفِتة للانتباه في تلك المنطقة:

(١٥٠) BOA. Y. PRK. BŞK, ٢٢/٨٩

"إن الأراضي الفِلِسْطينية أهمّ نقطة في الدَّوْلة العثمانيّة وألطفها؛ لأنها أرض اليهود الموعودة منذ أربعة آلاف سنة، ومَهْد الديانة النصرانية، ومزار يحظى بالتقديس بين المسلمين، إلى جانب ما تتمتّع به من موقع جغرافيّ؛ ومن ثَمّ فإنها مطمح الأنظار من ثلاث جهات: الأولى: اليهود، الثانية: الأماكن المسيحية المُقَدسة، الثالثة: البدو والمشايخ.

اليهود: من المعروف تاريخيًّا أن بني إسرائيل لم يتعرّضوا للعذاب والنكال على أيدي الحكومة الروسية بقَدْر ما عانَوْه على أيدي بختنصر وفراعنة مصر الذين قاموا بذلك حسدًا منهم؛ بسبب طبيعتهم المفطورين عليها.

وجميع اليهود في القارات الخمس اليوم يطمعون في فلسطين، ولا شك أنهم يسعَوْن ويجتهدون منذ عشرين سنة لإقامة دولة بني إسرائيل أكثر من أيّ وقت سابق، وإن غَضضْنا الطَّرْف عن خضوع الأراضي الفِلِسْطينية للإدارة العثمانيّة، فإن الدُّوَل الكبرى لا ترى مانعًا من هجرة اليهود إلى فِلِسْطين والتوطُّن فيها؛ نظرًا للحقوق الدينية المشتركة في هذه المنطقة، إلا أن الموقف يبدو مختلفًا عما هو عليه بالنظر لأفكار هذه الطائفة ومواقفها العامة.

ولا شك أن اليهود عند السماح لهم بالهجرة إلى الأراضي الفِلِسْطينية والاستقرار فيها، سوف يسيطرون عليها في غضون ثلاثين سنة، ويجعلونها تحت تصرُّفهم؛ إذ إن اليهود يشترون اليوم الأراضي بمائتي قرش أو بثلاثمائة، وقد كانت قيمتها عشرة قروش على الأكثر قبل خمس سنين أو خمس عشرة سنة، وأحيانًا بأكثر من ذلك، وكان المزارعون العاجزون عن تحمُّل مكائد هذه الطائفة وطَمَعهم في الأموال يُرغَمون على تسليم أراضيهم والتخلي عنها، وقد سيطروا اليوم على قسم ساحليّ يبلغ حوالي ٥٠٪ من السواحل الممتدة من حيفا حتى غزة، بينما قسم آخر منهم

يُنشئ في الأماكن المهمة من فِلِسْطين قُرى ومستعمَرات كبيرة تُشبه تلك التي في أوروبا، ويزرعون هناك زراعة تتناسب مع أصول الزراعة تمامًا، وعلى سبيل المثال فقد زرعوا مليوني شجرة عِنَب في قرية واحدة خلال خمس سنوات، وحاولوا تخريج مُتخصِّصين في الزراعة في مدرسة نظامية تضمّ كل التخصصات في مجال الزراعة، وقاموا كذلك بتنشئة فنّيين مُحترفين من مدرسة نظامية تضمّ كل الصناعات، إذًا قد استولوا على الصناعة والتجارة والزراعة في القُدْس وما حولها من الآن، وبعد خمس أو عشر سنوات سيضطرّ السكان من المسلمين وغيرهم إلى بيع ما يمتلكونه من أراضٍ في تلك المناطق لليهود، وحينها سيُغلقون الحوانيت والمحالّ هناك، ويمتلك اليهود منها حاليًّا ما نسبته ١٠٪، ويرحلون من القُدْس تاركين كل الأراضي الفِلِسْطينية لبني إسرائيل، إن اليهود المُبعدين والمنفيّين من البلاد الأجنبية ومن روسيا، عندما يُواجهون الصعوبات يدخلون تحت حماية القناصل الروس وغيرهم في يافا والقُدْس، ويستفيدون من جميع الامتيازات، وهناك جمعيات مثل روتشيلد وهيرش وأليانز تساعدهم بملايين الفرنكات؛ لذا يبدو أن السيطرة على هذه المنطقة وإقامة دولة بني إسرائيل لا تكون بالمدافع ولا بالبنادق، بل عن طريق الزراعة والصناعة والتجارة؛ وبناء على هذا الوضع ينبغي اتخاذ التدابير الآتية:

١- إغلاق سواحل سوريا بالكامل أمام اليهود.

٢- إنزال أقصى العقوبات بمن يأتون إلى فِلِسْطين بهدف الزيارة، ثم يختفون فيها ولا يعودون إلى بلادهم، أو عدم قبول أيّ يهوديّ على الموانئ البحرية، حتى ولو كان قادمًا للزيارة.

٣- ترحيل من يدّعون تبعيتهم للدول الأخرى أو إلزامهم بقبول التبعية للدولة العثمانيّة، والسماح بتوطينهم في أماكن مناسبة وفقًا لذلك.

٤- حَظْر بيع الأراضي لليهود.

٥- إخضاع جميع المدارس لتفتيش وزارة التعليم العالي ورقابتها، واتخاذ تدابير أخرى مثل تساوي نِسَب الطلاب المسلمين وغير المسلمين الدارسين في المدارس الزراعية والصناعية.

وعند إلقاء نظرة على الأماكن المُقَدسة في القُدْس، فإنه يصعب إيضاح أهمية القُدْس السياسية من هذه الجهة؛ إذ إن الكنائس المُنشأة حيث وُلد المسيح ورُفع إلى السماء والمكان الذي طُردت منه السيدة مريم العذراء، كلها أماكن ومزارات مُقَدسة بين مختلف الطوائف الدينية، وقد يحدث تعدٍّ على حقوق كل طَرَف من هذه الطوائف، وصراعات تنشب فيما بينها لا تتفق مع مبادئ الأديان، وقد تؤدي هذه المشادات والصراعات التي تنشب بين تلك الطوائف إلى تدخُّل الأجانب أحيانًا.

ولا بدّ من اتخاذ إجراءات لازمة لمَنْع الصراعات والنزاعات في المنطقة، ويتمثل ذلك بتشكيل لجنة من الطوائف ذات الحقوق المشتركة في الأراضي المُقَدسة؛ بحيث يُختار عضو فخريّ من كل طائفة وما يُعادل عددهم من المسلمين، ويتغير أعضاء هذه اللجنة كل سنة أو سنتين، ولا بدّ أن تجتمع تلك اللجنة برئاسة شخص مُخلص، مُطلع على الوضع، وتقوم بإصدار خرائط لجميع الأماكن المُقَدسة، كل مكان على حِدَة، وتُطبّق القواعد والمبادئ المعمول بها وفْقا للوضع الدُّوَليّ الراهن حتى الآن، كما تُعرَض القرارات التي ستُصدرها على الحكومة والإدارة المركزية في إسطنبول.

(٢٧ أيلول/سبتمبر عام ١٨٩١).[١٥١]

(١٥١) BOA. Y. PRK. UM, ٢٣/٦٦

وبناء على استمرار الطلبات من دول عديدة -وعلى رأسها رومانيا- إلى الدَّوْلة العثمانيّة كي تقبل اليهود للإقامة بأراضيها؛ أمر السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٩٠٠م باتخاذ قرار يسمح للمهاجرين المسلمين فقط بالإقامة في الأراضي العثمانيّة، وعدم قبول المهاجرين غير المسلمين، وفي ٢٤ نيسان/أبريل عام ١٩٠٠م ناقش مجلس الوزراء قرار السلطان عبد الحميد الثاني حول هذا الأمر؛ فقرّر مجلس النواب بناء على رأي السلطان قبول المهاجرين المسلمين فقط إلى الأراضي العثمانيّة، وإعلام وزارة الداخلية من أجل اتخاذها التدابير اللازمة لعدم قبول غير المسلمين من المهاجرين، كما تقرّر تقديم المعلومات اللازمة للعضوية الأولى من لجنة المهاجرين المسلمين ووزارة الخارجية.

وفي ٢٥ نيسان/أبريل ناقشت الحكومة هذا الموضوع، وقرّرت -استنادًا إلى قرار السلطان- ضرورة أن يُعاد أولئك المهاجرون من اليهود والنصارى القادمين إلى الدَّوْلة العثمانيّة إلى بلادهم، كما قرّرت الحكومة إعلام وزارة الخارجية بألا تمنح المهاجرين من غير المسلمين تصريحًا بدخول البلاد؛ إذ لن يُسمح من الآن فصاعدًا بقبول أي مُهاجر غير مسلم إلى الدَّوْلة العثمانيّة، وقد رأى السلطان عبد الحميد الثاني والحكومة أن الحلّ يكْمُن في مَنْع هجرة غير المسلمين إلى الأراضي العثمانيّة.

بالإضافة إلى ذلك فقد أُعلن في ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٠٠م عن مرسوم جديد يُسمّى "شروط دخول الضيوف العِبْرانيين إلى الأراضي المُقَدسة"، ويتكون من أربع مواد، وُزِّع في يوم صدوره على جميع القنصليات الأجنبية في الأراضي الفِلِسْطينية.

وتنصّ المادة الأولى أنه ينبغي على أيّ يهوديّ يرغب في زيارة فِلِسْطين من أيَّة دولة في العالم أن يحمل وثيقة إثبات هوية أو جواز سفر يُدوّن فيه مِهْنته، وجنسيته وسبب الزيارة.

وأما المادة الثانية من هذا المرسوم فتنصّ على ضرورة قيام كل يهودي بتسليم وثيقة سفره أو جوازه لمُوظّفي الجوازات العثمانيّين فَوْر وصوله إلى منطقة فِلِسْطين، وفي مُقابل ذلك يحصل على إذن إقامة وزيارة مُؤقّتة، وتكون الوثيقة باللون أحمر حتى يتسنّى تمييزها عن غيرها من الوثائق، ومن حقّ الإداريين أو مسؤولي الأمن طلب هذه الوثيقة ممن يشكّون فيهم؛ وذلك من أجل إجراء التفتيش اللازم، كما أعلن أنه ينبغي على اليهود مُغادرة منطقة فِلِسْطين في نهاية اليوم الثلاثين من إذن الإقامة الممنوح لهم، وإلا فإنهم يُرحّلون خارج الأراضي العثمانيّة بتصديق القُنصليات التابعين لها ومساعدة رجال الأمن العثمانيّين.

ووفْقًا للمادة الثالثة من هذا المرسوم فُرِض على مراكز الشرطة المحلية في منطقة فِلِسْطين أن تُسجل شهريًّا أسماء من مَنَحتهم دفاتر إقامة من اليهود، وتاريخ دخولهم فِلِسْطين، ومحلّ إقامتهم فيها.

أما المادة الرابعة من تلك اللائحة فتنصّ على سَحْب هذه "الدفاتر الحمراء" من اليهود فَوْر انتهاء مدة إقامتهم في فِلِسْطين، وإعادة جوازات سفرهم الأصلية إليهم، وترحيلهم خارج فِلِسْطين.

ومن هنا بدأ اليهود الذين عجزوا عن الاستيطان في الأراضي الفِلِسْطينية يستقرّون في الأماكن القريبة منها، وبناء على ذلك صدر قرار من مجلس الوزراء بتاريخ ٢٧ كانون الثاني/يناير عام ١٨٩٧م:

> "يحظر إسكان اليهود المهاجرين من الدُّوَل الأجنبية في فِلِسْطين والمناطق المجاورة لها، كما يحظر إسكانهم في ولايتي سوريا وبيروت أيضًا ".[١٥٢]

---

(١٥٢) BOA, MV, ٩١/١٩

٢- القرارات المتخذة في فترة حكومة الاتحاد والترقي

فـي الفتـرة الانتقالية التي حافظ فيها السـلطان عبد الحميد الثاني على عرشه، كان في السلطة من يحكمون البلاد من قبل، ولم يشاركوا مسؤولي الاتحـاد والترقـي في الحُكْم بشـكل مباشـر، وأقنـع "إيمانويـل قراصو" الاتحـادي الموالـي للصهاينة "نسـيني روسـو (*Nesini Ruso*)" و"نسـيح مزلييـاخ (*Nesih Mazliyah*)" بالانضمـام إلى صفوف الصهاينة، ثمّ انضمّ إليهم "ويتالي فراجي (*Vitali Faraci*)" أفندي نائب إسـطنبول، كما صرّح "بيهـور (*Behor*)" أفنـدي اليهـودي الوحيد في مجلس الشـورى العثمانيّ أنه ليس ضد الصهاينة.

وفي إسـطنبول هُدد كل من يلتقي بهرتزل من اليهود بالطرد خارجها، لكن حاييم ناعوم -وقد كان من مؤسسـة أليانز وكبيرًا للحاخامات- أخبر الدكتور "جاكوبسون" أنه سيعمل من أجل نجاح الصهاينة، حتى إنه أرسل برقيـة تهنئة لمؤتمر عاشـق صهيون الذي عُقد في أوديسـا، وكان الدكتور جاكوبسـون يريد التأثير على الحكومة بواسـطة النواب اليهود في جمعية الاتحـاد والترقـي بصفة خاصـة، وقد كان هـؤلاء النواب يُؤيـدون هجرة اليهـود إلى الأراضي الفِلِسْـطينية، حتى إن أحمـد رضا قال مخاطبًا حاييم ناعوم الذي جاء يُهنئه على رئاسة المجلس:

> "نحن على استعداد لاستقبال اليهود في كل مكان من دولتنا، يكفـي أن يأتـوا ويُسـهموا فـي قِطاع الزراعـة والصناعة فـي بلدنا ومعهم رؤوس أموالهم".[١٥٣]

---

(١٥٣) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ١٠٢-١١٦.

استفاد اليهود من مناخ الحرية الذي ساد مع المشروطية الثانية، وزادوا من هجرتهم مرّة أخرى، وأثناء ذلك بدأ نشرُ مقالات ضد الصهيونية من جانب، وتحركت حكومة حسين حلمي باشا من جانب آخر لأخذ التدابير اللازمة من أجل وقف هجرة اليهود إلى فِلِسْطين؛ بناء على طلب شعبة جمعية الاتحاد والترقي هناك.

وعند اجتماع مجلس النواب في ٢٠ حزيران/يونيو ١٩٠٩م، لفت الانتباه إلى أن خمسين ألف يهوديّ استوطنوا القُدْس مُستغلين إعلان المشروطية الثانية دون أن يُعلنوا عن تبعيتهم للدولة العثمانيّة، وقرّر بناء على ذلك تطبيق القرارات التي اتخذتها الحكومة من قبل في هذا الشأن تطبيقًا جادًّا وحازمًا؛ إذ إن تمديد إقامة الزائرين للقُدْس كان يُسبّب مُشكلات كبيرة جدًّا من الناحية الإدارية،[١٥٤] وفي ٢٨ أيلول/سبتمبر عام ١٩٠٩م أعلن وزير الداخلية طلعت بك أن هذا الموضوع عاجل جدًّا، وأمر بتطبيق القيود والحَظْر الذي كان مفروضًا في عَهْد السلطان عبد الحميد الثاني بكل حَزْم، كما حظَر أيضًا شراء اليهود مواطني الدَّوْلة العثمانيّة أراضي أو عقارات في فِلِسْطين، وفي تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٠٩م طلب الصدر الأعظم تسجيل تاريخ جوازات سفر اليهود القادمين إلى القُدْس في أحد السجلات، أو أن تتم متابعتهم بإعطائهم دفاتر إقامة مُؤقّتة حتى لا يُسمح لهم بالإقامة فيها أكثر من ثلاثة أشهر.[١٥٥]

وقد صُدم الصهاينة صَدْمة شديدة بسبب هذه التدابير الشديدة التي اتخذتها جمعية الاتحاد والترقي مع بداية حُكْمها؛ إذ كانوا يأملون في توطُّن فِلِسْطين مع إعلان المشروطية الثانية.

---

(١٥٤) BOA. İ. MVL, ١٢٩/٦

(١٥٥) BOA. DH. MUİ, ٢٦-٢/٢٩

وفـي تلـك الفتـرة طُرح موضـوع توطين اليهـود بمقدونيـا، فقد أُعلن عـام ١٩١٠م عـن توطيـن ٢٠٠ ألـف يهوديّ علـى ضِفاف نهـر واردي، غيـر أنه لم يتسـنّ تطبيق هذا المشـروع، والحقيقة أن فكـرة توطين اليهود بمقدونيـا لـم تكن فكـرة جديدة؛ إذ إنهـا طُبقت جزئيًا في عَهْد السـلطان عبد الحميد الثاني، ولم يكن السلطان عبد الحميد الثاني يرغب -كما سبق بيانه- في توطين اليهود الذين يتزايد عددهم في إسطنبول بمكان آخر مثل سـلانيك، وقد أمر بتوطين جزء منهم في أماكن مثل أسـكوب ومناسـتير؛ إذ كانت تلك المناطق ضِمْن حدود مقدونيا آنذاك، وكان طَرْح الاتحاديين لمقدونيا بديلًا عن سلانيك يهدف إلى مَنْع زيادة عدد اليهود في سلانيك، ومَنْع نشاطات وتحرّكات الروم والبلغار عن طريق توطين اليهود المُهاجرين في أماكن الصراع، والاستفادة من ذلك بوَضْـع مقدونيا تحت المراقبة.

حظَـر الاتحاديـون هجرة اليهود إلى فِلِسْـطين، إلا أنهـم كانوا يرغبون فـي مسـاعدة هؤلاء اليهـود الذين اضُطهـدوا في أوربا، والاسـتفادة منهم مـن أجل مصلحة البلاد، ومن ثَمّ رأوا أنه يُمكن توطين اليهود المهاجرين في بلاد الرافدين.

غيـر أن إنجلتـرا كانت ترى منطقـة بلاد الرافدين منطقـة نفوذ تخصّها وحدها، وانزعجت من مشـروع توطين اليهود فيها، ولا سـيما أنهم تحت حماية المنظمات اليهودية المدعومة من قبل ألمانيا التي انتهجت سياسـة عالميـة، وقـد أَزْعب إنجلترا احتمالُ توطُّن اليهود فـي هذه المنطقة بدَعْم مـن المنظمات اليهودية في ألمانيا، ولا سـيما بعد دخول الألمان المنطقة بسبب مشروع سكة حديد بغداد- برلين، إلا أن هذا المشروع فَشِل لرغبة اليهود بالتوطن في فِلِسْـطين لا في بلاد الرافدين، ناهيك عن الدور الذي قامت به إنجلترا للحيلولة دون ذلك.[١٥٦]

---

(١٥٦) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ١٢٠-١٢٢.

وإضافة إلى حَظْر هجرة اليهود إلى فِلِسْطين وشرائهم أراضي منها في فترة الاتحاد والترقي، كان القادمون منهم لزيارتها يمنحون إقامة زيارة مُؤقّتة، إلا أن وزارة الداخلية أرسلت مذكرة إلى المجلس عام ١٩١٣م يُفهم منها أن هذا الإجراء فَشِل في تحقيق النتيجة المطلوبة أيضًا، وقد ورد في هذه المذكرة:

"يظهر من هذه المذكرة أن دفاتر الإقامة الحمراء للزوار اليهود القادمين إلى الأراضي الفِلِسْطينية لمَنْع تمديد الإقامة فيها لم تُحقّق الفائدة المنشودة منها، بل فتحت الطريق لكثير من أوجه الاستغلال، ومن ثمّ قرّرنا إبلاغ إدارة القُدْس بإلغاء هذا الدفتر الأحمر بدءًا من تاريخ صدور القرار، وأن على الحكومة المحلية هناك أن تتيقّظ لمحاولات اليهود القادمين للزيارة جماعات أو أفرادًا، سواء كانوا من الولايات العثمانيّة أو من الدُّوَل الأجنبية، وينوون تمديد إقامتهم أو الاستعداد للهجرة مُخالفين هذا الحظر، كما تقرّر وضع التدابير مُراعاة للزمان والمكان، وعدم السماح لهم إطلاقًا بتمديد إقامتهم والهجرة إلى هناك".(١٥٧)

في بداية الحرب العالمية الأولى بدأت حكومة الاتحاد والترقي باتخاذ تدابير حازمة بشأن اليهود الذين يواصلون الهجرة إلى فِلِسْطين مُتجاهلين كل القوانين التي كانت صدَرت من قبل.

وقد ورد في إحدى الوثائق أن الحكومة العثمانيّة قرّرت في ١١ أيار/مايو عام ١٩١٤م:

"ضرورة إبلاغ اليهود الأجانب الذين استوطنوا من خلال شرائهم الأراضي والمنازل في لواء القُدْس وولايتي سوريا وبيروت، أنه يتعيّن عليهم قبول تبعيتهم للدُّوْلة العثمانيّة دون اعتراض، وإلا فعليهم الرحيل ومغادرة أراضيها، وفي حال قبولهم

(١٥٧) BOA. MV. ١٨٠/٣٢

التبعية العثمانيّة يتم إحصاء عدد منازلهم وسكانهم، وما يشتغلون فيه من الأعمال، وإرسال سجلات الإحصاء، والحصول على سَنَد من رئيس كل عائلة يتعَهّد فيه بأنهم سيتبعون قوانين الدَّوْلة العثمانيّة ولوائحها، وفي حالة رَفْض هؤلاء تبعية الدَّوْلة العثمانيّة، تُبلّغ إدارة القُدْس وولايتا سوريا وبيروت أنه يتعيّن على هؤلاء الرافضين للتبعية العثمانيّة مُغادرة تلك المناطق خلال المدة المحددة، وبيع الأراضي والعقارات التي استملكوها، أو تركها لآخرين يقومون بإدارتها بدلًا منهم.(١٥٨)

وقد ورد في وثيقة أخرى أن كثيرًا من اليهود نُفوا خارج الحدود العثمانيّة؛ إذ أفادت الوثيقة:

"لقد تجاوز عدد اليهود الذين استوطنوا الأراضي الفِلِسْطينية مائة وعشرين ألفًا؛ نتيجة نشاطات الجمعيات والمنظمات الصهيونية السرية في تشكيل حكومة صهيونية في الأراضي الفِلِسْطينية، جدير بالذكر أن ٩٠٪ منهم هم رعايا الدُّوَل الأجنبية الخصوم؛ ولذلك فإنه ينبغي على الفور إيقاف هذا التيار الذي يُهدّد السياسة العثمانيّة في المستقبل، وقد وافق مجلس النُّوّاب أن يُبعد من لا يقبل تبعية الدَّوْلة العثمانيّة من يهود الدُّوَل الخصوم إلى خارج الحدود العثمانيّة؛ لئلا يُفسح المجال لحدوث تدخُّل أجنبيّ في هذه المناطق.

ورَغم أن الغالبية العُظمى من يهود الدُّوَل الخصوم راجعت الدوائر المعنية، وقَبِلت بأن تُغيّر تبعيتها بناء على قرار مجلس النواب، إلا أن قسمًا منهم لم يرضَ بذلك، وقاموا من تلقاء أنفسهم بمُغادرة الحدود العثمانيّة بالبواخر، ومعهم رؤساء بلدياتهم دون أن تُرافقهم الشرطة أو حرَس الدَّرَك، أو أن يُمارس عليهم أيّ ضَغْط من أيّ جانب قط، بل برغبتهم من أنفسهم، حتى إن الحكومة تكفّلت مُباشرة بمصروفات رِحْلة من لم يرغبوا

(١٥٨) BOA.Y. RES, s. ٩٣/٦

في الخروج زاعمين أنهم لا يملكون المال، وسُلّموا إلى شركة البواخر ومن هناك أركبوا الباخرة.

(١٠ نيسان/أبريل عام ١٩١٥م) وزير الداخلية: طلعت".[١٥٩]

وقد استمرّت حركة جمال باشا -وقد عمل واليًا لسوريا وقائدًا للجيش الرابع في فترة الحرب العالمية الأولى- المناوئة للصهيونية استمرت في المقاومة دون انقطاع ما بين ١٩١٥-١٩١٦م، وشاركت الوحدات العسكرية من اليهود الأجانب في الحرب إلى جانب إنجلترا، ومارست منظمة التجسّس نيلي الموالية لإنجلترا نشاطها في سوريا وفِلِسْطين ما بين عامي ١٩١٥-١٩١٧م، وفي الوقت الذي وصل فيه الإنجليز غزةَ أُرسل ما بين ٧٠٠٠ - ٩٠٠٠ يهوديّ إلى الشمال ممن كانوا يعيشون في يافا في ٩ نيسان/أبريل عام ١٩١٧م.[١٦٠]

غير أنه رَغم كل هذه القوانين المانعة، بل ورَغْم قيام حكومة الاتحاد والترقي بطَرْد قسم من اليهود من فِلِسْطين، إلا أنه حين وضعت الحرب أوزارها واستولى الإنجليز على الأراضي الفِلِسْطينية، قامت السلطات الإنجليزية بإزالة جميع العقَبات التي كانت تقف أمام هجرة اليهود إلى فِلِسْطين تطبيقًا لوعد بلفور الذي أُعلن عام ١٩١٧م.

---

(١٥٩) BOA. HR. SYS, ٢١٦٠/٣

(١٦٠) علي أرسلان، مصدر سابق، ص ١٢٧-١٢٨.

خلاصة البحث

إن اسم "فِلِسْطين" مصطلح رُسِّخ في اللغة الدبلوماسية للدولة العثمانيّة من جانب الدُّوَل الغربية أواخر القرن التاسع عشر، ولاسيما مع ظهور المنطقة على الساحة السياسية، بَيْد أنه لم يكن ثمّة وَحْدة إدارية في الحكومة العثمانيّة تُسمى "فِلِسْطين"، وعندما صدَر قرار بعدم توطين اليهود المُهاجرين من روسيا في أرض فِلِسْطين جرى نقاش حول حدود هذا المكان، وناقش مجلس الوزراء هذا الموضوع في جلسته المنعقدة بتاريخ ١٢ نيسان/أبريل عام ١٨٩١م، وقرّروا:

"حدود فِلِسْطين تضمّ ولايتي القُدْس وعكّا، ويحظر إسكان المهاجرين اليهود في تلك الأماكن".

وقد تحدَّدت حدود الأرض الموعودة لليهود من التوراة كما يزعمون، وحدودها من البحر الأحمر في الجنوب حتى الفرات في الشمال، ومن البحر الأبيض في الغرب حتى البحر الميت في الشرق، وكانت منطقة فِلِسْطين التي خضعت للسيادة العثمانيّة في القرن السادس عشر تابعة لولاية الشام، وكانت مُقسّمة إلى ثلاث مناطق إدارية، هي لواء القُدْس وغزة، ولواء نابلُس صفد، ولواء صالت عجلون، وفي عام ١٦١٤م تشكّلت ولاية جديدة باسم صفد - صيدا - بيروت، وضُمّت إليها ألوية نابلُس وجبل عجلون وتدمر وكرك شوبك داخل ولاية الشام، وبعد هذا التقسيم الجديد صارت الأراضي التي تُشكّل منطقة فِلِسْطين واقعة في ولايتين مختلفتين، وقد خضَعت المنطقة لسيادة أبناء محمد علي باشا ما بين ١٨٣١-١٨٤٠م، ثم عادت من جديد إلى سيادة الدَّوْلة العثمانيّة عام ١٨٤٠، وارتبطت تمامًا بولاية صيدا، وعندما تأسّست ولاية سوريا عام ١٨٦٥ انضمّت مدن القُدْس ونابلُس وعكّا إليها.

حازت منطقةُ فِلِسطين أهمية كبيرة من قِبَل جميع الدُّوَل مع تطبيق قرارات التنظيمات والإصلاحات في المنطقة، وكذا "قضيةُ الأراضي المُقَدسة" التي ظهرت في أثناء حرب القرم، واكتسبت أهميةً كبيرة في القرن التاسع عشر نتيجة بدْء هجرة اليهود إليها بشكل مُنظم، وأصبح لواء القُدْس تابعًا للعاصمة إسطنبول مباشرة بسبب هجرة اليهود التي بدأت من ثمانينات القرن التاسع عشر (١٨٨٠م)، فصار إدارة برأسه.

وتحمِل منطقة فِلِسطين ولاسيما القُدْس أهمية كبيرة جدًّا بالنسبة للأديان السماوية الثلاثة، إن هذه المنطقة عند المسيحيين هي المكان الذي شَهِد ميلاد عيسى ﵇، ورَفْعه إلى السماء، ودُفنت فيه مريم عليها السلام.

أما أهمية القُدْس عند المسلمين فإنها تأتي من كونها المكان الذي عرَج منه نبيّ الإسلام محمد ﷺ إلى السموات العُلى، بالإضافة إلى أن كثيرًا من الأنبياء والصحابة دُفنوا هناك، كما تحوز دُوْر وأماكن العبادة التي أنشؤوها هناك أهمية كبيرة لدى المسلمين.

وكانت الإدارة العثمانيّة تُرسل إلى القُدْس قَدْرًا كبيرًا من الأموال وبعض الأشياء الأخرى كل عام، كما كانت تُرسل إلى مكة والمدينة أموالًا وأشياء عن طريق قوافل"الصُّرَّة"، وكانت تدعم شعب تلك المنطقة اقتصاديًا، وقد أَوْلى السلاطين العثمانيّون هذه الأماكن المُقَدسة اهتمامًا خاصًا على مرّ العصور، ناهيك عن أن كثيرًا من أهل الخير ومُحبّيه قدّموا بواسطة الأوقاف كثيرًا من الخدْمات المادية والمعنوية إلى تلك المناطق.

ويذكر أوليا جلبي الذي زار القُدْس في القرن السابع عشر أن فيها سبعمائة وَقْف، ومسؤولو هذه الأوقاف كانوا يشرفون أيضًا على المحاكم، وقد ورد في تقرير مُراقبة وَقْف حسكي سلطان الذي تأسّس عام ١٥٥١-١٥٥٢م:

"فقراء هذه الديار كثيرون يا حضرة السلطان! وكان الطعام هنا يُقدّم مرّة واحدة فيما مضى، ثم صار يُقدّم مرّتين في اليوم،

ومـع ذلـك لاحظـتُ أن الطعـام لـم يكفِ لـكل النـاس، وكنت أتحيّـر وأتعجّب من الضجيج والصُّراخ الذي يُطلقونه قائلين: إننا جائعون".

والحقيقة أن إطعام هذا القَدْر الكبير من الفقراء، إلى جانب تعمير كثير مـن الأماكن الدينيـة والتاريخية وصيانتها، فضيلـةٌ لا يمكن لها أن تتحقّق إلا بعَطْف الدَّوْلة العثمانيّة وقوتها، كما أن إدارة من ينتسـبون إلى الأديان والعِرْقيات بعدالة وتسامح منهج تتصف به هذه الدَّوْلة العالمية.

إن فِلِسْـطين عنـد اليهـود -كمـا هـو معـروف- مركـز الكـون، كمـا يدَّعـون أن الله وعدهـا بني إسـرائيل، وقد نجح اليهـود -الذين جيء بهم من مصر مـع موسـى عليه السلام إلى "الأرض الموعودة" المذكورة في التوراة- فـي إقامـة أول دولـة لهم في فِلِسْـطين في عَهْد يوشـع بعد موسـى عليه السلام، غيـر أنَّ ممالـك آشـور وبابل هدَمت تلـك الدَّوْلة التي أسّسـوها، وبدأت حيـاة "المنفـى الأولـى" بالنسـبة لليهـود بعد أن جُلِبـوا إلى بابـل (العراق حاليًـا)، وقـد أقـام اليهـود دولتهـم مـن جديـد حين عـادوا إلـى ديارهم عـام ٥٣٩ ق.م، غيـر أن إمبراطـور روما طرَدهـم من فِلِسْـطين وهجّرهـم مـرّة ثانيـة حين تمرّدوا عام ١٣٥م، وهو مـا ورد في التاريخ على أنه حياة "المنفـى الثانية" بالنسـبة لليهود، وقد حافظ اليهود بإصـرار على هوياتهـم وأفكارهـم الدينيـة والقوميـة، وتمسـكوا بهـا بشـدة فـي البـلاد والمـدن التي هاجروا إليها، وعاشوا فيها، فهم يعدون أنفسهم "شعب الله المختار"، واعتقـدوا أنهم سـيجتمعون فـي الأراضي الموعودة يومًـا ما تحت نجمة الملك داود السداسية.

وقـد أثّـرت حركـة العـداء لليهـود (مُعـاداة السـامية) التـي ظهـرت في أوروبا الغربية ما بين القرنين ١٣-١٥ في جاليات اليهود الذين يعيشون هنـاك تأثيرًا مُباشـرًا؛ فطُـرد اليهود مـن إنجلترا عام ١٢٩٠م، ومن فرنسـا عـام ١٣٩٢م، ومـن إسـبانيا عـام ١٤٩٢م، ومـن البرتغال عـام ١٤٩٧م،

وأُرسل اليهود المطرودون من هذه الدُّوَل إلى هولندا وبولندا والقُدْس، وقد زاد عدد اليهود في القُدْس أكثر من قبل؛ وذلك بسبب هجرة اليهود الهاربين من قَمْع محاكم التفتيش في أوروبا خلال القرن السادس عشر، بعد أن دخلت فِلِسْطين تحت السيادة العثمانيّة، وكان ظهور الحركات القومية التي تسارعت وتيرتها في أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد أشعل العداء ضدّ اليهود؛ وقد اضطرّ اليهود إلى الهجرة من أوروبا وروسيا، ونزحوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وفِلِسْطين وإنجلترا وكندا وجنوب إفريقيا، وقد أنتجت حركة مُعاداة السامية التي ظهرت في القرن التاسع عشر حركة الصهيونية، وهي تعني القومية اليهودية، وهذه الحركة القومية قد شجّعت الهجرة اليهودية إلى القُدْس مُباشرة في الثمانينات من القرن الثامن عشر.

وقد اتخذ السلطان عبد الحميد خان الثاني مجموعة من التدابير والإجراءات كي يمنع هجرة اليهود إلى فِلِسْطين وشراءهم الأراضي هناك، غير أنه لم يُحقّق النجاح في هذه القيود والقوانين نتيجة ضغوط الدُّوَل العظمى لما كانت تتمتع به من امتيازات، ونتيجة بعض الأسباب الداخلية أيضًا، وبناءً على هذا سعَتْ الحكومة العثمانيّة برئاسة السلطان عبد الحميد الثاني إلى تحويل وِجْهة هجرة اليهود إلى الأراضي العثمانيّة بعيدًا عن فِلِسْطين؛ إذ اتبعت سياسة توطين اليهود ببعض المناطق، مثل إزمير وسلانيك وبورصة، وكان الهدف من ذلك هو الاستفادة من اليهود في سلانيك لمواجهة البلغار واليونانيين، واتخاذ التدابير المستقبلية في غرب الأناضول أيضًا لمواجهة اليونانيين الذين كانوا يتحرّكون للاستيلاء على إزمير.

ورَغْم اتخاذ عِدّة تدابير إلا أن ما يقرب من ١٢٠٠٠ يهوديّ استوطنوا فِلِسْطين ما بين عامي ١٨٨٠-١٨٩٠م؛ نتيجة هجرة اليهود إليها، وقد تكاثفت هجرتهم أثناء خلافة السلطان عبد الحميد خان للدولة العثمانيّة،

وعرفت هذه الفترة باسم "عَلِيا الأولى"، وفي عام ١٨٨٩-١٨٩٠م ظهرت مدينة عشوائية حول ميشكنوت شعانيم أول محلة يهودية خارج القُدْس. وبحلول عام ١٨٩٧م الذي عُقد فيه المؤتمر الصهيوني، زاد اليهود بشكل خطير جدًّا إذ بلغ عدد الأحياء اليهودية في القُدْس ٤٦ حيًّا، وبحلول عام ١٩٠٨ بلغ عدد اليهود في فِلِسْطين ٧٠٠٠٠ يهوديّ، بينما وصلوا إلى ٨٥٠٠٠ نسمة قبل الحرب العالمية الأولى.

وأثناء الحرب العالمية الأولى أُخرج من فِلِسْطين بعض اليهود ممن لم يدخلوا تحت تبعية الدَّوْلة العثمانيّة، وكانوا موالين لأعدائها، وواصل جمال باشا والي سوريا وقائد الجيش الرابع نضاله ضدّ الصهاينة ما بين عامي ١٩١٥-١٩١٦م؛ لأن الوحدات العسكرية التي تشكلت من اليهود الأجانب شاركت في الحرب إلى جانب إنجلترا، وكانت منظمة التجسُّس "نيلي" الموالية للإنجليز مارست أنشطتها العدائية ضدّ العثمانيّين في سوريا وفِلِسْطين، وعندما وصل الإنجليز إلى غزّة أُرسل ما بين ٧٠٠٠-٩٠٠٠ يهوديّ من يافا إلى الشمال بتاريخ ٩ نيسان/أبريل عام ١٩١٧م، وانتقلت فِلِسْطين إلى سيطرة إنجلترا حين وضعت الحرب أوزارها، كما زالت العراقيل التي كانت تَقِف أمام هجرة اليهود إلى فِلِسْطين تطبيقًا لوعد بلفور الذي أُعلن عام ١٩١٧م.

ورَغْم كل هذه التدابير القانونية والعسكرية إلا أنه تعذّر مَنْع هجرة اليهود إلى فِلِسْطين، وكان لهذا الأمر كثير من الأسباب الداخلية والخارجية، غير أن التاريخ شَهِد أكثرَ من مرّة أن الخسائر الأخلاقية كانت دائمًا تقف وراء الخسائر المادية، لقد فَقَد أحفاد عُمَر ﷺ وصلاح الدين الأيوبي وياووز سليم فاتحي القُدْس أشياء كثيرة من قِيَمهم المُقَدسة والسامية، فحلَّتْ الخيانةُ محلَّ الصلابة، والجهل محلّ العلم، والكسل والسفاهة محلّ التديُّن، ولو لم يكن الأمر كذلك لطُبِّقت القوانين التي سُنّت، ولَمَا طمع القَرَويون وباعوا الأرض التي روَتْها دِماء أجدادهم الشهداء بثمن

بخس، ولمَا ارتشى المُوظفون وساعدوا على إتمام هذا البيع، ولأدركوا تمام الإدراك أن الأراضي التي يعيشون عليها أراضٍ مُقَدسة.

وإذا ما أمعنّا النظر والتفكير في سبب حدوث هذا القدْر من فَقْد الوَعْي لاتّضح أنه لم يبقَ أيُّ أثَر من قِيَم المحاكم الشرعية وأخلاقها التي كان غير المسلمين يفضّلون أن يحتكموا إليها ثقةً منهم بعدالتها، كما أنه لم يبقَ أثَر من المدارس التي كانت بالقُدْس، وكان عددها يفوق ١٠٠ مدرسة في زمن ما.

وتُشير لائحة فتحي بك والي نابلُس إلى تلك المعاني، يقول بإيجاز:

"يسعى اليهود إلى أهدافهم التي طَمِعوا في تحقيقها سرًّا وخُفية في الصوامع والمدارس، ودور الأيتام المقامة باسم الدين والإنسانية، وتُساعدهم مجموعة من الحكومات والجمعيات في هذا الشأن، إنهم لا يتورّعون من الاستفادة حتى من ظروف العجَزة الذين يلجؤون إلى المستشفيات، والأكثر من ذلك أنهم يسعون لكَسْب قلوب الشعب الجاهل الذي يعيش في القُرى، وهو عاجز عن التفريق بين الحسَن والرديء، وكذا الأطفال المسلمون الملتحقون بالمدارس.

وبناء على تلك الملاحظات والبحوث قُمت بإنشاء مستشفى خلال خمسة عشر شهرًا من خلال ما جَمعْتُه من أموال عن طريق المساعدات وغيرها من الوسائل، وعملتُ ليلَ نهارَ في لواء نابلس للحفاظ على هذا اللواء، وهذا ما يقتضيه حُبّي وإخلاصي للوطن وضميري وأخلاقي التي ظلت طاهرة سليمة حتى بلغتُ هذه السنّ؛ وذلك لدفع الأهالي إلى طريق الحضارة والتقدم، وتأليف قلوبهم من أجل حكومتنا، وأقمت آثارًا مثل الحدائق الظريفة المفتوحة للعامة التي تلفت الانتباه، والمدارس الخاصة بالذكور وغيرها من المُنشآت، وأكملتُ كل ما هو ضروريّ لأجل تعليم الفتيات وتربيتهنّ.

ومن جهة أخرى وُفِّقْتُ إلى كَسْب ثقة الشعب، وبفضل هذا كشفتُ عن حقوق الشعب التي كانت تُغتصب حتى في الوقت الحالي، وتيسّر لي أن أزيد دَخْل اللواء أربعة أضعاف، ويعلم الله تعالى ما العراقيل والصِعاب التي واجهتُها، وكم عانيتُ من مشاقّ أثناء إجراءاتي المتواضعة هذه.

وبناءً على ذلك أقول: إن هذا الوضع والتردّي الذي سقطت فيه الدَّوْلة سوف يُصلَح، ويتحسّن إذا ما عَمِل زملائي ونُظَرائي، واجتهدوا في العمل بهذه الطريقة أيضًا.

وهكذا يتبين لنا أن الدُّوَل الأجنبية سوف تتدخّل بواسطة السياسة التي يتبعونها في الشؤون العثمانيّة الداخلية، وسوف يزيدون من نفوذهم داخل البلاد العثمانيّة.

ولقد لقيتُ كثيرًا من الشباب المسلم الذي تخرّج من مدارس يافا والقُدْس وبيروت، وهو لا يفهم كلمة من لغة الدَّوْلة الرسمية، إلا أنّه يتحدث اللغة الإنجليزية والفرنسية بطلاقة، وهناك من تعلم اللغة الإنجليزية من رجال نابلُس ونسائها المسيحيات اللائي لا زِلْنَ يستترْنَ في ثيابهن حتى الآن، وقد حدَث هذا في ظلّ مدرسة صغيرة أُقيمت في زاوية إحدى الكنائس البروتستانتية الصغيرة، ومنذ اللحظة الحالية نجد أن المُبشرين البروتستانت والكاثوليك تسلّلوا إلى كرك وما حولها؛ تلك المنطقة التي استطعنا الحفاظ على الأمن والسلم فيها بواسطة الجنود.

وقد تقدَّم الإنجليز خُطَوات واسعة إلى الأمام في هذا التنافس في صمت وهدوء، إلا أنهم فعلوا ذلك بواسطة جهود كبيرة، وكان الهدف الحقيقيّ للإنجليز هو إقامة منطقة نفوذ إنجليزية تَصِل إلى مصر وساحل البحر الأبيض المتوسط، عن طريق الهند وإيران والبصرة وبغداد والجزيرة وفِلِسْطين، وليس ثمّة شكّ في أن حدودًا جديدة ستُرسم في وقت قريب، تمتدّ من الهند حتى مصر مُتعقبَة تلك الطُّرُق السالفة الذِّكْر.

وليس هناك ضرورة للخوف إلى هذا الحدّ من محاولات الإنجليز القومية الشوفينية الاقتصادية والسياسية البحتة إذا ما كانت هناك دولة مُتقدّمة وقوية، غير أنه ليس من المُستبعد أن نُواجه هنا أيضًا -والعياذ بالله- ما واجهناه من مُعاناة في مصر إذا ما حدث العكس، وخاصة أن عيون بعض الدُّوَل الأوروبية تطمع في بلادنا التي تمتلك كل أنواع الإمكانيات؛ إذ عجَزت تلك الدُّوَل عن أن تَجِد لها ساحة للتوسُّع بقَدْر ما كانت تأمل بسبب صَحْوة اليابانيين والصينيين في شرق آسيا.

وعندئذ لا يُمكننا الردّ على هذه الجيوش المُتسلّحة بالعلم والمعرفة والاقتصاد والسياسة إلا إذا كنا مُجهّزين بنفس الأسلحة التي تسلّحوا بها، فمن الصَّعْب أن نعيش ونبقى بخلاف ذلك، كفى! علينا أن نستفيق وننتبه إلى أنفسنا، ولْنسعَ أن نَدْعم بعضنا بدلًا من أن يسحَق بعضنا بعضًا، علينا ألا نخدم أغراضنا الشخصية وأطماعنا، بل نرعى المصلحة العامة أكثرَ مما نرعى المصلحة الشخصية، لا بدّ أن نُوكل كل شيء لِمن هو أهله، علينا أن نُؤثر التطبيق على النظرية في شؤون الحُكم، إن السياسات الواهية والمحاولات الاعتباطية لا تُحافظ على دولة ولا تُديم بقاءها.

ينبغي التفكير في مُستقبلنا لمئات السنين، لا ليوم أو يومين، وبناء على ذلك علينا أن نحدّد لنا منهجًا سياسيًّا، هكذا عرضتُ بعض الحقائق على الحكومة عَبْر تقريري هذا، وبناء على ذلك أقترح على حكومتنا إنعاش الخلايا التي أنشِئت خِصّيصَى لطلاب العلم قديمًا في مُحيط المسجد الأقصى وقُبّة الصخرة لما لها من الفوائد السياسية والاجتماعية والمادية والمعنوية، وهي تُستخدم اليوم -للأسف- غُرَفًا وحوانيت، أو أن تُنشأ مدرسة في القُدْس التي لها أهمية استراتيجية كُبْرى، وهي نقطة تَقاطُع بين مصر والحجاز وسوريا، وهذه المدرسة تُعادل الجامع الأزهر في مصر على أن يتمّ تعليم اللغة العثمانيّة فيها؛ وذلك عن طريق تأسيس جامعة مُستقلّة هناك".(١٦١)

(١٦١) BOA.DH.İD ٣٤/١٨

وقد اقترح كثير من رجال الدَّوْلة وكبار علماء الدين- مثل فتحي بك والي نابلُس- على الإدارة العثمانيّة كثيرًا من الأمور للقضاء على الجهل والفقر وتنشئة جيل مُؤمن ذي عزيمة وإرادة، وكافحوا كثيرًا في هذا السبيل.

وقد جاء أهمّ اقتراح لإصلاح المدارس من قِبَلِ صفوت باشا وزير التعليم العالي، إذ أشار في تذكرة أعدّها الباشا عام ١٨٨٠م أن الموادّ الطبيعية قد أُلغيت من المدارس نتيجة برامج نُظِّمت قبل ٢٠٠ سنة، واقترح صفوت باشا من أجل هذا "أن يتم إصلاح المدارس؛ وذلك من خلال تدريس مواد حديثة، مثل الجغرافيا والفلك والحساب والجبر وعلم القانون"، غير أنه لم تَجْرِ في تلك الفترة أية دراسة لإصلاح المدارس وإحيائها قطّ، وعملت المدارس التي افتُتِحت على النَّمَط الغربيّ نتيجة الانفتاح على الغَرْب من أجل تَنْشِئة "وكالات مُتطوّعة" للغرب في الأراضي العثمانيّة على حدِّ تعبير جميل مريج، لا من أجل رِفْعَة الدَّوْلة العثمانيّة من جديد، وذلك لوجود غربيين في هيئات الإدارة في تلك المدارس.

وطالما لم تحي من جديد وتنتعش خلايا العلم التي أُنشِئت سابقًا للطلاب الذين يُحصّلون العلم، وحُوّلت فيما بعد إلى حوانيت ودكاكين، فإنه من المؤكّد أن الردّ على جيوش العلم والمعرفة والاقتصاد والسياسة الذين رآهم حاكم نابلُس أمر ليس سهلًا، وكان لا بدّ من البحث عن الخاتم حيث فُقِد كما جاء في حكاية نصر الدين جحا الماتعة، وطالما لم ينشأ جيل ينتصر لدينه ووطنه وقِيَمه المُقَدسة، فإنه يتعذّر أن يكون لأمة مُستقبل ما بواسطة المُناورات السياسية اليومية، مثلما قال المرحوم محمد عاكف:

"وطنٌ بلا صاحب هالك يقينًا

فإن ننتصرْ للوطن فلنْ يَهْلِك ما بَقِينا"

المصادر

أ- وثائق الأرشيف العثمانيّ التابع لرئاسة الوزراء

١- دفاتر المُهمّات:

1- BOA. Mühimme Defterleri, 5, No: 248

2- BOA. Mühimme Defteri, 6, No: 53-57

3- BOA. Mühimme Defteri, 6, No: 113

4- BOA. Mühimme Defteri, 12, No: 1133

٢- قسم مُهمّات الديوان الهُمايوني باب آصافي:

5- BOA. A. DVN. MHM, 75/548

٣- قسم غير المسلمين بالديوان الهُمايوني باب آصافي:

6- BOA. A. DVN. KLS. d. 08, s. 5

7- BOA. A. DVN. KLS. d.08/s.6

8- BOA. A. DVN. KLS.d.08

٤- دفاتر الاسم السلطانيّ بسجلات الديوان الهُمايوني باب آصافي:

9- BOA. A. DVNS. NMH. d.1

٥- وثائق قسم مُهمّات مُراسلات الصدارة العُظمى:

10- BOA. A. MKT. MHM, 5 84/17

٦- إيرادات وزارة الداخلية:

11- BOA. İ. DH, 442/29174

12- BOA. İ. DH, 168/8868

13- BOA. İ. DH, 1327 .N. /1

٧- الإيرادات الخصوصية:

14- BOA. İ. HUS 139-1324 M/54

٨- إيرادات الأوقاف:

15- BOA İ. EV, 1325. S/21

٩- إيرادات المجلس الأعلى للقضاء:

16- **BOA**. İ. MVL, 129 /6

١٠- إيراد المجلس المخصوص:

17- **BOA**. İ. MMS, 122/5229

١١- شؤون سياسة الخارجية:

18- **BOA**. HR, SYS 41/3
19- **BOA**. HR. SYS, 410/3-24
20- **BOA**. HR. SYS, 41/3
21- **BOA**. HR. SYS, 410/3-24
22- **BOA**. HR. SYS, 1526/9
23- **BOA**. HR. SYS, 409/6
24- **BOA**, HR. SYS, 2337/7
25- **BOA**. HR. SYS, 2333/1
26- **BOA**. HR. SYS, 2333/11
27- **BOA**. HR. SYS, 2333/1
28- **BOA**. HR. SYS, 2160/3

١٢- وثائق قسم مُكاتبات وزارة الخارجية:

29- **BOA**. HR. MKT, 97/48

١٣- وثائق الغُرْفة الاستشارية بمستشارية القانون بوزارة الخارجية:

30- **BOA**. HR.HMŞ.İŞO, 187/52

١٤- قسم مكاتبات الداخلية:

31- **BOA**. DH.MKT.1030/33
32- **BOA**. DH MKT 207/1
33- **BOA**. DH. MKT, 918/75
34- **BOA**. DH. MKT,2350/46
35- **BOA**. DH. MKT.196/62

١٥- وثائق مديرية الشؤون المحلية والولايات بوزارة الداخلية:

36- **BOA**. DH. UMVM, 145/49

١٦- وثائق إدارة المخابرات العمومية بوزارة الداخلية:

37- **BOA**. DH. MUİ, 26-2/29

١٧- إيرادات الداخلية:

38- **BOA**. DH.İD 34/18

١٨- الأمن العام بالداخلية:

39- **BOA**. DH. EUM. 4. Şb. 22/40
40- **BOA**. DH. EUM, 4.Şb.11/32

١٩- وثائق العرض الرسمية بوزارة بيلدز:
41- **BOA**. Y.a. RES, 24/38
42- **BOA**. Y.a. RES, 5/58
43- **BOA**. Y.a. RES, s. 93/6

٢٠- الوثائق العمومية المتفرقة بييلدز:
44- **BOA**, Y. PRK. UM 23/66
45- **BOA**. Y. PRK. UM, 23/66

٢١- وثائق معروضات يبلدز المتنوعة:
46- **BOA**. Y. MTV, 264/ 119
47- **BOA**. Y. MTV, 285/162
48- **BOA**. Y. MTV, 313/162

٢٢- وثائق معروضات وزارة الداخلية - يبلدز المتنوعة:
49- **BOA**. Y. PRK. DH, 7/29

٢٣- جرنالات محلات عرض الحال- يبلدز المتفرقة:
50- **BOA**. Y.PRK. AZJ 50/86
51- **BOA**. Y. PRK AZJ, 30/37
52- **BOA**. Y. PRK. AZJ, 30/37

٢٤- وثائق قسم مترجمية المابين والمحررات الأجنبية المافرقة بييلدز:
53- **BOA**. Y PRK. TKM, 38/51
54- **BOA**. Y. PRK TKM, 41/ 5

٢٥- وثائق دائرة التشريفات العمومية المتفرقة بييلدز:
55- **BOA**. Y.PRK. TŞF, 6/72

٢٦- وثائق معروضات دائرة السكرتارية العامة المتفرقة بييلدز:
56- **BOA**. Y.PRK. BŞK, 22/89
57- **BOA**. Y. PRK. BŞK, 22/89
58- **BOA**. Y. PRK. EŞA, 7/40
59- **BOA**. Y. PRK. EŞA, 13/67

٢٧- متفرقات وثائق سِجلات نظارة العدل والمذاهب بييلدز:
60- **BOA**. Y. PRK. AZN, 5/9

٢٨- مجلس الشورى:

61- **BOA ŞD**, .2301/16
62- **BOA**. ŞD, 2269/24
63- **BOA**. ŞD, 2280/26
64- **BOA**. ŞD, TNZ.2272/86

٢٩- قلم التحريرات بالخزينة الخاصة:

65- **BOA**. HH. THR, 27/2

٣٠- محاضر مجلس النواب:

66- **BOA**, MV, 91/19
67- **BOA**. MV, 180/32

ب- الرسائل العلمية

١- فيظاء بتول كوسه: **القُدْس تحت الحُكم العثمانيّ**، رسالة ماجستير، جامعة أتاتورك، أرضروم ٢٠٠٣م.

Feyza Betül Köse, **Osmanlı Yönetiminde Kudüs**, Yüksek Lisans Tezi, Atatürk Ünivesitesi, Erzurum-2003.

٢- إشيق إشيل بوستانجي: **فلسطين في القرن ١٩** (وضعها الإداري والاقتصادي-الاجتماعي، رسالة دكتوراه، جامعة فرات، ٢٠٠٦م).

Işık Işıl Bostancı; **XIX.Yüzyılda Filistin** (İdari ve Sosyal-Ekonomik Vaziyet), Doktora Tezi, Fırat Üniversitesi-2006.

٣- نسرين كنار: **القضية الفلسطينية في نظام ألطا بالشرق الأوسط**، (رسالة ماجستير)، جامعة أولو داغ، بورصة، ١٩٩٤م.

Nesrin Kenar, **Ortadoğu Alta Sisteminde Filistin Sorunu**, (YüksekLisan Tezi) Uludağ Üniversitesi, Bursa-1994.

٤- رياض ميشال: **التطور السكاني في الأردن وإسرائيل منذ النشأة، وحتى اليوم، وتحليله البنيوي** (رسالة ماجستير)، جامعة إسطنبول، إسطنبول، ١٩٩٧م.

Riyad Mishal, **Kuruluşundan Bugüne Ürdün ve İsrail'in Nüfusunun Gelişimi ve Yapısal Analizi**, Yüksek Lisans Tezi, İstanbul Ünivesitesi, İstanbul- 1997.

ج- الكتب والمقالات

١- علي أرسلان: **الهجرة اليهودية الثانية من أوروبا إلى تركيا**، دار نشر تروو، إسطنبول، ٢٠٠٦م.

Ali Arslan; **Avrupa'dan Türkiye'ye İkinci Yahudi Göçü**, Truva Yayınları, İST-2006.

٢- آمي سينغر: البر في الدَّوْلة العثمانيّة، عمارة حسكي سلطان بالقُدْس، إسطنبول، ٢٠٠٤م.

Amy Sınger, **Osmanlıda Hayırseverlik**, Kudüs'te Bir Haseki Sultan İmareti, TVYY., İstanbul-2004.

٣- وثائق الأرشيف العثمانيّ التابع لرئاسة الوزراء، رقم التسجيل بالمكتبة: ٤٢٧٠ (المزارات الخاصة بالمسيحيين في القدس وتحقيقات اللجان الخاصة بالمعابد).

BOA. Kütüphane kayıt no: 4270 (Kudüs'te Hristiyanlara Ait Ziyaretgah ve Mabedlere Ait Komisyon Tahkikatı))

٤- جمال قونتاي: التاريخ يتحدّث، ج. ٦، العدد ٣٥، كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٦م.

Cemal Kutay; **Tarih Konuşuyor**, C.VI, Sayı 35, Aralık 1966.

٥- تاريخ الإسلام منذ الظهور، وحتى اليوم، دار نشر جاغ، إسطنبول، ١٩٨٦م.

Doğuştan Günümüze İslam Tarihi, C.II, C.IV, Çağ Yay., İstanbul-1986.

٦- درور زيعوي: القُدْس، دار نشر يورت، وَقْف التاريخ، إسطنبول ٢٠٠٠م.

Dror Ze'evi, **Kudüs**, Tarih Vakfı Yurt Yay. İstanbul-2000.

٧- كمال قاريات: نظرة عامة على العلاقات العربية التركية: ماضيًا، وحاضرًا، ومستقبلًا، بحوث المؤتمر العالمي الأول، ١٨-٢٢ تموز/يوليو ١٩٧٩م، جامعة حاجت تبه، أنقرة.

Kemal Karpat; **"Türk-Arap ilişkilerine Toplu Bir Bakış"** Türk-Arap ilişkileri: Geçmişte, Bugün ve Gelecekte, 1. Uluslararası Konferansı Bildirileri, 18-22 Haziran 1979, Hacettepe Üniversitesi, Ankara.

٨- كريم بالجي: "القُدْس: المدينة الباحثة عن أيامها السعيدة"، مجلة فيزيون، آذار/مارس ٢٠٠٩م.

Kerim Balcı; " **Mutlu Günlerini Arayan Şehir: Kudüs**", Vizyon dergisi, Mart 2009.

٩- ميم كمال أوكه: قضية فِلسْطين من الصهيونية إلى صراع الحضارات، مكتبة أُفق، إسطنبول، ٢٠٠٢م.

Mim Kemal Öke; **Siyonizm'den Uygarlıklar Çatışmasına Filistin Sorunu**, Ufuk kitapları, İstanbul- 2002.

١٠- م. لطف الله قارامان: موسوعة وزارة الشؤون الدينية الإسلامية، فِلسْطين، نشر وقف الشؤون الدينية.

M. Lutfullah Karaman, D.İ.B.İ.A. **"Filistin"**, C. XIII, Diyanet Vakfı Yay.

١١- محمد تميرجي: الآثار العثمانيّة في القُدس، مجلة كولتور، العدد: ١٥، إسطنبول، ٢٠٠٩م.

Muhammet Temirci, **"Kudüs'te Osmanlı İzleri"** Kültür Dergisi, Sayı: 15, İstanbul- 2009.

١٢- نبي بوزقورت: "قُبّة الصخرة"، موسوعة وزارة الشؤون الدينية الإسلامية، نشر وَقف الشؤون الدينية.

Nebi Bozkurt, **"Kubbetü's- Sahrâ"**, D.İ.B.İ.A, C. XXVI, Diyanet Vakfı Yay.

١٣- نبي بوزقورت: "المسجد الأقصى"، موسوعة وزارة الشؤون الدينية الإسلامية، نشر وقف الشؤون الدينية.

Nebi Bozkurt, **"Mescid-i Aksa"**, D.İ.B.İ.A, C. XXIX, Diyanet Vakfı Yay.

١٤- عُمَر توران: الشرق الأوسط نقطة صراع الحضارات، نشر يني شفق.

Ömer Turan, **Medeniyetlerin Çatıştığı Nokta Ortadoğu**, Yeni Şafak Yay.

١٥- بارس توغلاجي: القُدْس؛ المدن العثمانيّة، إسطنبول، ١٩٨٥م.

Pars Tuğlacı, **"Kudüs" Osmanlı Şehirleri**, İstanbul-1985.

١٦- رمضان بالجي: فِلِسْطين الجبهة التي هدمت الدّوْلة العثمانيّة، نشر نسِل، إسطنبول، ٢٠٠٦م.

Ramazan Balcı, **Osmanlı'yı Yıkan Cephe Filistin**, Nesil Yay, İstanbul-2006.

١٧- رمضان شَشَنْ: "الأيوبيون" تاريخ الإسلام العظيم من الميلاد حتى يومنا الحاضر.

Ramazan Şeşen, **"Eyyübiler"** Doğuştan Günümüze Büyük İslam Tarihi, c.VI.

١٨- ش. طوفان بوزبينار: قضية الهجرة اليهودية إلى فِلِسْطين في عصر السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٨-١٩٠٨م)، موسوعة الأتراك.

Ş.Tufan Buzpınar; **"2. Abdülhamid Döneminde Filistin'e Yahudi Göçü Meselesi (1878-1908)"** Türkler, C.XIII, (s.78-85)

١٩- جريدة مضبطة البرلمان التركي، مطبعة البرلمان التركي، أنقرة ١٩٦٠م.

T.B.M.M. **Zabıt Ceridesi**, C. 26, T.B.M.M., Matbaası, Ankara.